EKADOLLI

إيكادولي

د.حنان لاشين

رواية



إيكادولي

رواية

حنان لاشين





عصير
الكتب

إهــــداء

إلى

المحـــــاربين


عصير
الكتب

مقدّمة

"قد تكون الكلمات وكل الكتابات ميّتة، مكفّنة في أوراق
دفاترنا البيضاء، معانيها مدفونة بين السطور،
على الرفوف وفي أدراج المكاتب، لا تحيا إلا عندما تُقرأ
فتجري الدماء في أوصالها بخيال القارئ، وعندما يصدّقها
تضجّ بالحياة!"


عصير
الكتب

(١)

"أبـــادول"

مطر خفيف كالبكاء يرشق الرمال الناعمة بعذوبة، من بعيدٍ ثمّة نهر ريّان يتدفق ماؤه العذب بهدوء. ضوء الشمس الذهبي يميل بدلال فيداعب تلك الغدران الصغيرة التي تكونت هنا وهناك لتنعكس ألوان الطيف وتتعانق في الهواء. سعف النخيل يظلل الأفق من بعيد وكأنّه سحاب أخضر. صيحة غريبة صمّت أذنيه ثُمّ شعر فجأة بمخالب تقبض على كتفيه، فرفع بصره ورأى طائرًا عملاقًا يبسط جناحيه مظللًا فوق رأسه، تسارعت أنفاسه وهو يطير على ارتفاعٍ شاهق فوق وادٍ عميق يقطعه نهر ماؤه رقراق زمرّدي اللون!

لاحت من بعيد أكواخٌ صغيرة لكنّها متقاربة مصفوفة بانتظام في مجاميع يفصل بينها ممرّات أرضها مغطاة بزهور صغيرة صفراء. تناهى إلى سمعه صوت أنثوي ناعم، كان يناديه ويكرر كلمة غريبة لم يدرك كنهها! استعذب الصوت للحظات لكنّ خفقات قلبه التي بدأت تؤلمه في صدره أنسته حلاوة الصوت، وفجأة! انفلت من بين مخالب الطائر ليهوي تجاه مصبّ ذاك النهر الفيّاض بسرعة شديدة، كان لون الماء يزداد قتامة كلّما اقترب منه، أراد أن يرفع عينيه ليرى هيئة الطائر الذي كان يحمله، لكن ظِلّ جناحيه الكبيرين المهيبين كان قد حجب عن عينيه كلّ شيء، فتح ذراعيه وباعد بين ساقيه فحلّق لفترة وجيزةٍ، للحظات شعر أنّه أخفّ من الريشة، وكأنّه يحلّق بروحه لا بجسده، على صفحة الماء لاح له رمز غريب الشكل، حدّق فيه وهو يقترب، ويقترب، ويقترب، وفجأة..التقمه الظلام، وظل رنين حاد يتصاعد مخترقًا أذنيه.

أيقظه رنين هاتفه النقّال، وكان قد وقّته على السادسة والنصف، مدّ ذراعه بصعوبة بعد أن قاوم ذاك الشعور بأنّه مشلول البدن ليوقف صوت الرنين المزعج. مسح جبينه الذي كانت تتلألأ عليه حبّات العرق وجلس على



طرف الفراش يلتقط أنفاسه. نفس الكابوس الذي يتكرر، نفس المخالب، نفس الطائر الذي لا يدرك كنهه! ونفس النهر ذي الماء الأخضر الزمرّدي، وذاك الرمز الغريب. سار بخطوات بطيئة نحو المرآة وطالع وجهه وكأنّه يطالع شخصًا غريبًا عنه، عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، وأنف ذو انحناءة لطيفة يتوسّط وجهًا مستديرًا ظللته لحية خفيفة. أحيانًا يشعر أنّه غريب عن نفسه وخاصّة في تلك الحظات التي تعقب استيقاظه من ذاك الكابوس المتكرر. غادر غرفته ومرّ برواق البيت فلمح والديه فحيّاهما سريعًا وأسرع يصبّ الماء البارد على رأسه لعلّ الأفكار التي تنهش عقله تهدأ، ثمّ لحق بهما في المطبخ الذي كان يعبق برائحة القهوة، جلس وقد بدت على وجهه علامات الإرهاق، أزاح والده الجريدة التي كانت تحجب وجهه عنه وطالعه من فوق عويناته بتمعّن وقال بنَبرة هادئة:

- هل رأيت نفس الكابوس؟

- نعم.

- هل سقطت في الماء؟

- لا...كالعادة استيقظت قبل أن يلمس جسدي الماء.

- هل رأيت رأس الطائر؟

- لا...لا يا أبي.

رفع الأب سبابته وحرك عويناته على أرنبة أنفه وعاد للقراءة، كانت تلك الأسئلة الثلاثة تتكرر في كلّ مرّة يستيقظ فيها "أنس" وعلى وجهه علامات الإرهاق، وكأنّ أباه يقرأ صفحة وجهه فيدرك أنّه رأى نفس الكابوس! شرد "أنس" للحظات قبل أن يقول بخفوت:

- لكنني سمعت صوتًا لم أسمعه من قبل!

انتفض والده وكأن هناك من وخزه بإبرة وألقى الصحيفة وسأله وقد اتسعت حدقتا عينيه:

- صف لي الصوت وأخبرني ماذا قال لك.

أغمض "أنس" عينيه ليجترّ ما رآه وأحسّ به، ثمّ قال بصوتٍ متهدّج:

- كان صوتًا أنثويًّا رفيقًا وجميلا، لم أسمع مثله من قبل، غناء ربّما أو كأنّ هناك فتاة ما تهمس في أُذني.

خلع الأب عويناته وعاد يحدّق في وجهه وسأله بتوتّر:

- ماذا قالت لك؟

- كانت تردد كلمة لم أفهمها ولم أدرك معناها، أظنّها بلغة غريبة ما !

- ما هي الكلمة؟

- لا أذكر.

- حاول أن تركز أرجوك...كررها أمامي.

التفت "أنس" متعجبًا من إلحاح والده عليه وهزّ كتفيه بلا اكتراث وهو يقول:

- للأسف نسيتها.

شحب وجه الأب وطالعه بنظرات مرتابة، التفت "أنس" لأمّه التي مسحت على ظهره بحنان لكي يطمئنّ، التقط يدها ووضعها على صدره، كان يشعر بانقباض لا يبارحه عادة إلّا بعد فترة طويلة في مثل هذا الموقف، يتلاشى ربّما بعد عدّة أيّام!.

تناول قهوته على عجل ولم يكمل إفطاره، فقد دقّت الساعة معلنة أنّها السّابعة والنصف..ولا بدّ أن يُسرع حتى لا يفوته موعد القطار. على مكتبه كانت تستقر حقيبة جلدية من النوع الفاخر اعتاد أن يحملها على ظهره عندما يسافر، شاحن الهاتف وجهاز الحاسوب النقّال، كانا أهمّ ما حرص "أنس" على وضعه في حقيبته.

ثُمّ العديد من القمصان المكويّة أوّلها القميص السماوي اللون الذي يفضله، مع بنطال من الجينز، ومنامات صوفيّة تقيه البرد، والكثير من الجوارب كان كلّ هذا ما حرصت الأمّ على وضعه في حقيبة ابنها الأخرى منذ البارحة. فسيسافر لبيت جده في الفيّوم ليقضي معه أسبوعًا لطيفًا، فهو لم



يروِّح عن نفسه منذ أنهى عامه الأخير حيث كان يدرس بكليّة الهندسة. لا بد من وقت مستقطع يبتعد فيه عن صخب الحياة فقد أرهق كثيرًا في الأيام الماضية، وما أجمل أن يكون هذا الوقت في بيت جده المحبب إليه. على عجلٍ ركض على الدرج خلف والده، ملوحًا لأمّه وشقيقته من نافذة السيّارة، اختفى طيف وجه أمّه الملائكي عندما دلفت سيّارة والده لشارع جانبي. راقب الأبخرة التي تتكاثف على زجاج النافذة إثر ملامسة أنفاسه الدافئة له، رفع إصبعه ورسم عليها ذاك الرمز الذي رآه على سطح الماء وهو نائم، قطع ذلك الشرود الذي غرق فيه صوت والده وهو يلقي على مسامعه نصائحه مثلما اعتاد في كلّ مرّة يسافرون فيها لقضاء الإجازة مع جدّه، يبدو أنّه لن يتوقف عن نصحه ومعاملته بتلك الطريقة، حتى بعد تخرّجه وربما عمله أو حتى لو تزوج وأنجب العديد من الأحفاد، كان هذا يضايق "أنس" لكنه لم يُظهر ضيقه أبدًا لأبيه وكان ينصت إليه بأدب بليغ، سيبقى في عينيه الابن الذي يحتاج النصيحة، قال الأب وهو يعدّل عويناته:

- لا تترك جدّك وحده لفترة طويلة، فأنت هناك لكي تؤنسه، ليس من اللائق ألّا تنظر إليه وهو يحدّثك فهذا يزعجه كثيرًا، أنصت إلى نصائحه بلا جدال، استأذن منه قبل أن تستعير أيّ كتاب من مكتبته الخاصّة، كن ضيفًا خفيفًا ولا تُثقل عليه.

كانت تلك المرّة الأولى التي يسافر فيها وحده، لم يُفاجأ بقرار أبيه وأُمّه فقد أخبراه أنّهما لن يتمكنا من السفر معه لأن شقيقته "حبيبة" مرتبطة بدروسها الخصوصية الخاصّة بالثانوية العامة، أصرّ "أنس" على السفر فقد كان مشتاقًا لرؤية جدّه، والذي كان يشجعه كثيرًا على القراءة فقد قضيا معًا ساعاتٍ طويلة في مكتبة جدّه الخاصّة، ذاك البناء البديع والمكوّن من غرفة واحدة واسعة ويتوسّط حديقة منزله حيث تحيط به أشجارُ الياسمين من كلّ جانب، وحيث الكثير من الكتب العتيقة التي قضى الجدّ عمرًا في جمعها وقراءتها والاعتناء بها وكأنّها أفراد أعزّاء من عائلته. لم يكن لدى "أنس" العديد من الأصدقاء ليخرج معهم، كان شابًّا تقليديًّا كما يقولون له، لا يدخن ولا يصاحب الفتيات، لم تمطر سحابات الحبّ على شرفات قلبه طوال سنوات الدراسة! رغم كثرة قراءاته عن الحب فهو لم يجرّبه حتى الآن، النفس تشتاق، والأحلام تمرّ على جبينه من آنٍ لآخر، لكنه لم يصطدم بتلك

التي تحسن التوقيع على شغاف قلبه حتى الآن.

طريقته في تناول الأمور كانت تزعج زملاءه أحيانًا، فهو حاد في حكمه يستبعد من طريقه كلّ من يخطيء خطأ واحدًا ويبتعد عنه حتى وإن كانت فيه ميزات أخرى تشفع له! خطأ واحد من صديق كان يكفي لكي ينحيه جانبًا وكأنّما وُصِمَ به للأبد! كانوا جميعًا يطلبون ودّه ويتقربون إليه فهو شاب جذاب مثقف ذو خلق ورياضي، كما أنّه ذكي جدًا، لكنه كان مندفعًا أحيانًا يركض خلف حدسه، في الحقيقة.. لم يفسح المجال إلا لصديقين فقط من جملة من التفوا حوله.

وصلا سريعًا لمحطة القطار والتي كانت –كعادتها- مزدحمةً بالركاب، كان الأب يسرع في خطواته ليجاري خطوات "أنس" الواسعة، انتبه "أنس" فَرَقَّ لأبيه فهدّأ من سرعة خطواته قليلًا حتى لا يُرهقه. كان الجوّ باردًا جدًا. اقتربًا من أحد المقاعد وجلسا يراقبان الأبخرة الهاربة من أفواه روّاد المحطّة، كانت هناك مسحة من الضباب تشوب الأجواء. أما السماء فكانت ندف السحاب تنتشر فيها بشكل واسع، بدت وكأنها على وشك البكاء. التفت "أنس" لوالده وقال وهو يفرك كفَّيْه:

- لقد وصلنا مبكرًا.

سحب الأب نفسًا عميقًا وقال بنَبرة حازمة بعد أن رمق ساعة يده بسرعة:

- هذا أفضل.... *أن تصل مبكرًا وتنتظر خير لك من أن تصل بعد فوات الأوان.*

- اشتقت لجدّي.

- وهو أيضًا ينتظر وصولك بشغفٍ يا "أنس".

- لا أدري لماذا يرفض الانتقال إلى الاسكندرية ليقيم معنا!

- جدّك مرتبط ببيته وله فيه ذكريات طويلة.

- وأسرار.

رفع الأب حاجبيه الكثيفين وقال وهو يطالعه من فوق عويناته:



- أيّ أسرار؟

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتي "أنس" عندما تذكّر تلك الغرفة القابعة في الطابق العلوي والتي لا يجرؤ أحد على اقتحامها وكيف كان يركض مع أبناء عمّه عندما كانوا يقتربون من بابها المهجور وهم صغارٌ ويلصقون آذانهم ببابها وينصتون فيسمعون أصواتًا تهمهم وهسهسات غريبة فيفزعون ويركضون هاربين. قال لأبيه بحماس:

- غرفة الأشباح.

انزعج الأب من ارتفاع صوت "أنس" وتلفّت يمينًا ويسارًا قبل أن يقول له لائمًا:

- تعلم أنّها غرفة خالية، ولقد رأيتها بنفسك، فلا تزعج جدّك باقتحامها والسؤال عن سبب إغلاقها..أرجوك.

- لا تقلق يا أبي، ما عدت أخافها، ولا يهمّني الأمر، فقط هو فضول! وددت لو أنني حاورت شبحًا أو رأيته، يشغلني أمر الجنّ وهيأتهم، كما أنني.....

قاطعه أبوه قائلًا:

- *بعض الفضول قد يفيد، وبعضه قد يؤذيك، فاحذر يا بنيّ.*

ران عليهما الصمت للحظات، فلم يكن ذاك فقط هو ما يشغل بال "أنس" فبيت جدّه ممتلئ بالأسرار، ولديه الكثير من الأسئلة عنه، وربّما حانت الفرصة لينفرد بجدّه ويسأله عن سرّ كلّ ركن فيه.

علا صفير القطار وهو يشق الضباب معلنًا عن وصوله، همهم الأب في أذن "أنس" بالدعاء وهو يعانقه وصعد الأخير ليقف ويلوّح لأبيه وعلى وجهه ابتسامة حنون، انطلق القطار وجلس "أنس" يراقب الحقول الخضراء التي انبسطت أمام عينيه. لوحة ربّانية تموج بالكثير من المعاني التي لا يترجمها إلّا عاشق للطبيعة الخرساء!

مزّق البرق صفحة السماء، أحبّ صوت قطرات المطر الذي استحال سماعه بعد لحظات وهي ترشق زجاج النافذة بجواره فشرد مسحورًا بالصور المتتابعة مصحوبة بتلك الألحان التي تعزفها قطرات المطر.

التفت يراقب ركّاب القطار، ذاك رجل في العقد الرابع من عمره سريعًا ما أغمض عينيه ليسحب حبل النوم الذي قطعه منذ ساعة ويتعلق به مرّة أخرى لعلّه ينعم ببقيّة حلم. وتلك فتاة صغيرة تراقب مرور الأشجار أمام عينيها بسرعة خاطفة وكأنّها هي التي تركض وليس القطار، كانت تضحك ببراءة وتحرك وجهها يمينًا ويسارًا تزامنًا مع حركة الصور الخاطفة، أمّا أُمّها فكانت تطالع حقيبة يدٍ فاخرةٍ لامرأة أخرى تجلس قبالتها بإعجاب، والتي كانت تلقي على كتفيها معطفًا أنيقًا من القطيفة السوداء. من بعيد تناهى لسمعه حوار بين رجلين يبدو أن كلاهما يعمل في هيئة ما تختص بصناعة الأسمدة الزراعية، تحدّثا كثيرًا عن الفوسفات. أمّا ذاك الشاب الأنيق الذي كان يرتدي سترة جلدية سوداء فكان يصيح في هاتفه معاتبًا صديقه على إلغاء الموعد الذي كان بينهما ليلة أمس. في مقعد آخر كانت هناك فتاة ساكنة كالصنم، تطالع كتابًا وتقرأ سطوره بهدوء شديد وكأنّها حجر أصمّ، مرّ الوقت سريعًا وما زال "أنس" يحتفظ بهدوئه وحضوره اللطيف.

في تلك اللحظة كان أبوه لا يزال يقف خارج محطة القطار محملقًا في زجاج نافذة سيارته التي كان "أنس" يجلس بجوارها منذ ربع ساعة بينما كان هو يقود السيّارة منشغلًا بالزحام على الطريق وهو يقله لمحطة القطار، لقد رأى الرمز الذي رسمه ابنه على الزجاج بإصبعه عندما تكاثف البخار، أخرج هاتفه الجوال وقام بالاتصال بالجد ليخبره، جاء صوته الهرِم على الطرف الآخر من الهاتف:

- مرحبا يا "كمال".

- أبي....لقد رآه يا أبي، لقد رأى"أنس" الرمز.

- ماذا؟!!

- رسمه منذ قليل على زجاج النافذة الذي تكاثف عليه البخار بإصبعه، وما زال مرسومًا أمامي.

- امسحه بسرعة.

فتح الأب باب سيّارته ثُمّ مسح الزجاج من الداخل بمنديل ورقي ثُمّ تلفّت حوله ليتأكّد أن ليس هناك من يراقبه، ثُمّ عاد يقول لأبيه:



- محوته يا أبي.

- يا إلهي..لا بدّ أنّ نستعد.

- وماذا سنفعل؟ هل سنخبره أم سننتظر حتى يحين الوقت؟

- يبدو أنّه قد حان الوقت بالفعل!

- نعم.. فالكابوس يتكرر، كما أنّه...

- ماذا؟

- سمع صوتًا أنثويًّا الليلة.

- وماذا قال له؟

- لا يذكر...أخبرني أنّه نسي ما همس به ذاك الصوت في أُذنه، أنا قلق عليه، لا أظنّه سيستوعب الأمر بسهولة!

- لا تقلق عليه.

- وكيف لا أقلق وقد مررتُ بما سيمرّ به من قبل!

- لكنّك بخير يا ولدي..أليس كذلك؟

- نعم أنا بخير لا تقلق يا أبي، وماذا عنك؟

- لا تقلق...سأكون بخير ،"كمال" لا بدّ أن تأتي الآن في القطار التالي

- حسنًا يا أبي سأفعل إن شاء الله

انتهت المكالمة وقد بدأ القلق يستبدّ بـ"كمال". هبّت ريح قويّة فأصابته قشعريرة فأسرع إلى داخل سيّارته، تقوقع أمام المقود وأطرق مفكرًا يجترّ ما مرّ به في الماضي، متفكرًا فيما سيمرّ به ابنه "أنس". كان يجلس صامتًا وعيناه تجوسان في حزن بين أمواج البشر، تذكر الخوف، الرهبة، أن يختاره أحد ما ويثق به وينتظر منه أن يقدم له الكثير! وتذكر الشعور المقيت بالوحدة هناك، انتبه للوقت فوثب خارجًا من سيّارته وأسرع يستقلّ القطار التالي ليلحق بابنه "أنس".



خفف القطارمن سرعته وأطلق صفيرا اهتزّله زجاج النوافذ، وثب الركاب من أماكنهم واحدًا تلو الآخر عندما لاحت لهم لافتة المحطّة، تزاحموا في الممر المؤدي لباب القطار فسقطت بعض الحقائب من أعلى الرفوف، ترجل "أنس" من القطار ثُمّ وقف يفتش بين وجوه المارّة عن وجه جدّه، أخيرا التقطته عيناه من وسط الحشود فقامته المديدة وعليها المعطف الأزرق الطويل، ولحيته الرمادية اللطيفة التي برزت من الوشاح الخوخي اللون الذي كان يلف به عنقه، عويناته المستديرة، ونظرته الواثقة من خلفها، وتلك الابتسامة الواسعة التي كانت تضيء وجهه، كل تلك اللفتات البسيطة التي يحبّها "أنس" ميّزت جدّه عمّن حوله فأسرع يحتويه في حضنه. طال العناق قبل أن يقول الجدّ وهو يمسح وجه حفيده بكفّه الدافئة:

- ازددت طولًا يا أنس، وتباعد منكباك.

- أرأيت، الآن أنا الذي يحتويك في حضنه يا جدّي وليس العكس.

- أوحشتني يا "أنس".

- وأنت يا جدي..أوحشتني كثيرًا.

أسرعا بالخروج من الزحام واتجها معًا إلى بيت الجدّ حيث كانت هناك الكثير من الأحجيات التي لا يعرفها "أنس". من بعيد كان هناك من يراقبه ويرصد حركاته وهو يبتعد مع جدّه. كان يتفحّصه بإمعانٍ شديد.

وقفت سيارة الأجرة أمام بوابة بيت الجدّ الحديدية، والتي كانت تتوسط السور الحجري الذي يحيط بالبيت، كان ارتفاع السور شاهقًا وقد تدلّت من فوقه أغصان الأشجار وكأنّها تراقب الطريق. بعض الفروع بدت مخيفةً وكأنّها تهدد من ينظر إليها. كان السائق يحدّق في التواءات حديد البوّابة باندهاش، رفع حاجبيه وهو يلتقط النقود من يد الجدّ الذي رمقه بصرامة وهو ينصت إليه وهو يقول:

- بوابة رائعةٌ وبيت أنيق.

انطلق السائق مبتعدًا ومتبوعًا بنظرة تبرّم من الجدّ، وكأنّ السائق قد طالع للتوّ إحدى نسائه المختبئة في خدرها! حمل "أنس" حقيبته الجلدية على ظهره، ورفع الأخرى بيده عن الأرض ثُمّ دلف مع جدّه من البوابة وسارا معًا



فوق ممر ضيق مرصوف بالحجارة بين صفّين من الأشجار القصيرة على الجانبين. وقفا أخيرًا أمام باب البيت المصنوع من خشب الزّان العتيق، أخرج الجدّ مفتاح الباب من جيبه ليفتح الباب بينما كان "أنس" يتفحص النقوش الغريبة التي كانت تتوسط الباب والمطعّمة بقطع دقيقةٍ من النّحاس. انعكس الضوء عليها فتلاعب بريقها الذهبيّ بعيني "أنس" الذي قال باندهاش:

- تلك النقوش بديعة حقًا، لا أدري لماذا لم أنتبه لها من قبل!

رمقه الجدّ بطرف خفيّ ولم يعلّق، ثُمّ دفع باب البيت بحــرص فأصـــدر

أزيزًا مزعجًا ليس غريبًا عن"أنس" بل ربما يشتاق إليه، أسرع "أنس" بخطى واثبة وألقى بحقيبته بجوار الحائط ووقف في وسط ردهة الاستقبال وفتح ذراعيه ودار حول نفسه وكأنّه يحتضن أجواء البيت ثُمّ قال بمرح:

- كم أُحبّ هذا البيت ....أُحبّه كثيرًا.

ابتسم الجدّ وقال بودّ:

- هو بيتك يا حبيبي، وبيتكم جميعًا.

فاجأهما صوت ارتطام قوي، سقط شيء ما على الأرض. أسرع الجد إلى غرفة المعيشة وتبعه "أنس"، كان هناك كتاب على الأرض وحوله تبعثر حطام جزء من تمثال رائع من خشب الأبنوس الأسود لشجرة عجيبة، انحنى الجدّ وأمسك بالجزء المحطم، كان فرعًا من فروع الشجرة، بدت على وجهه علامات القلق وجال بعينيه في الغرفة وكأنّه يبحث عن شيء ما، انحنى "أنس" والتقط الكتاب، تأمّل غلافه الجلدي الباهت بتعجب، كان لونه يشبه لون التراب المبتل بماء المطر، شابته لفحات من لون يشبه لون قشر البرتقال الجاف، أمّا الأوراق فقد بدت صفراء عتيقة.

وقرأ عنوانه بصوت مسموع:

- "أبادول"...ماذا تعني تلك الكلمة يا جدي؟

كاد "أنس" يفتح الكتاب ليقرأ اسم مؤلفه، لكنّ جـده خطفه مــن بين

يديه بطريقة لم يعهدها منه من قبل! وأعاده إلى الرف ثُمّ أسرع نحو النافذة غير مكترث برد فعل أنس وأزاح الستار ونظر إلى الحديقة نظرة فاحصة ثمّ التفت وعقد حاجبيه قائلًا:

- "أبادول" كلمة نوبية، تعني الجدّ (أبا) بمعنى (أبى) و(دوول) بمعنى (كبير).

ابتسم "أنس" ومازح جدّه قائلًا:

- حسنًا يا أبادول...من كسر الشجرة، ولماذا ألقى الكتاب على الأرض؟

- ربّما "صفية"

- ولكن أين هي "صفية"!

- أو زوجها..ربما!

- لا أرى العمّ "راغب" هنا كذلك! هل لديك قطّة يا جدّي؟

رفع الجدّ حاجبيه وكأنّه وجد ضالته وقال:

- ربما، أحيانًا تقفز القطط من نافذة الحديقة، سأُخبر "راغب" ليبحث عنها.

- جدي..هل أنت بخير؟ يدك ترتجف!

أدرك الجدّ أن "أنس" قد لاحظ ارتباكه فرسم سريعًا على وجهه ابتسامة واسعة وأمسك بذراع حفيده وسار معه وهو يقول:

- لم أفطر حتى الآن، يبدو أن معدّل السّكر قد انخفض في دمي.

ثُمّ قال وهو يحثّه على السير:

- هيّا هيّا، بدّل ملابسك لنتناول الفطير الشهي معًا، فقد أعدته "صفيّة" خصيصًا لك، فهي تستعد منذ أيّام لوصولك.

- اشتقت للحديث معها، ولقصصها عن جدّتي.

- نعم، كانت جدّتك تُحبّها جدًا.

سار "أنس" مع جدّه الذي كان حريصًا على إخفاء الكتاب عن عين حفيده



قبل أن يخرج من غرفة المعيشة، في تلك اللحظات كانت تتعالى الهمسات في غرفة الأشباح بالطابق العلوي، هناك صوت أُنثوي رفيق يصدر من تلك الغرفة الغريبة و ينادي على "أنس"...بينما هو يمضغ قطعة من الفطير الساخن بجوار جدّه وينصت لحكايات "صفيّة" عن جدته التي توفيت قبل أن يولد.

وقف "أنس" ليراقب اهتزاز الأغصان من نافذة المطبخ، لم يغادره مذ أنهى طعامه هو وجدّه، كان المطبخ دافئًا وكانت أحاديث "صفية" و زوجها- واللّذان يعملان في هذا البيت منذ عمر طويل- عن الماضي لطيفة وحميمية، وضع "أنس" كوب الشاي على طرف المائدة برفق وهمس لجده وهو يمدّ يده:

- أعطني مفتاح المكتبة يا جدّي.

التفت الجد متوترًا قال:

- دعك من القراءة الآن واجلس معي فالإجازة طويلة.

- إذن فلنذهب معًا.

تردد الجدّ للحظات، وأطرق قليلًا ثُمّ أخرج المفتاح من جيبه وأعطاه لحفيده وقال له:

- هذه المرّة لا بدّ أن تذهب وحدك.

ابتسم "أنس" فقد تعجّب من كلام جدّه، فهو يعلم حرصه الشديد على كتبه ولم يتركه أبدًا يذهب إلى المكتبة وحده! أسرع بالتقاط المفتاح من يد جدّه وهرول إلى المكتبة، بينما وقف الثلاثة - الجد وصفية و زوجها راغب- يراقبونه من خلف زجاج نافذة المطبخ المطلة على الحديقة، لو التفت إليهم لأفزعته عيونهم الشاخصة تجاهه! لكنّه لم يلتفت.

دلف "أنس" إلى الغرفة بعد أن فتح بابها بصعوبة، يبدو أن المفتاح القديم قد صدئ.

كانت الغرفة باردة جدًا على عكس أجواء الحديقة التي دفّأتها أشعة الشمس، وكانت تعبق برائحة الورق العتيق الممتزج برائحة الرطوبة، التفت بعد أن قام بإضاءة المصابيح وراقب الرفوف بتمعّن. في كلّ مرّة يقرر أن يقرأ

العديد من الكتب لكنّه في النهاية يستقر على كتاب واحد. ويرفض الجدّ أن يعيره أيًّا منها أبدًا، فتلك الكتب غالية عليه وكأنّها قطع من ماضيه وذكرياته تستقر على الرفوف. كان "أنس" يعود حزينًا ويظلّ على شوقه حتى يعود في إجازة أخرى ليقرأها.

من عادته أن يقرأ اسم الكتاب أولًا، ثُمّ يطالع شكل الغلاف، ثُمّ يقرأ اسم المؤلف، وأخيرًا يطالع الفهرس بسرعة. لمح على أحد الرفوف العلوية مجموعة من الكتب تشبه ذاك الكتاب الذي رآه اليوم في غرفة المعيشة حيث كان ملقى على أرض الغرفة. نفس الغلاف الجلدي الباهت، نفس اللون القريب من لون التراب المبتلّ بماء المطر، وقد شابته لفحات من لون آخر يشبه لون قشر البرتقال الجاف، ونفس الأوراق الصفراء العتيقة. استدار ليحمل السلّم المسنود على الجدار وقرّبه من الرّف، ثمّ تسلقه بحذرٍ ليسحب كتابًا من تلك المجموعة، اهتز السلّم الخشبي فأسرع يهبط خوفًا من السقوط.

تناهى إلى سمعه صوت غريب، وكأنّه صوت صرصور يعبث بالورق.

تجاهل الصوت وكاد يسحب كتابًا من رفّ آخر ليفاجأ بالكتب العتيقة التي كانت تستقر على الرف العلوي تطير في الهواء. حلّقت فوقه وكأنّ هناك يدًا خفيّة تحرّكها، كانت صفحاتها تتقلّب بسرعة رهيبة، تصاعد صوت أنين وكأنّ هناك شخصًا يُعذَّب، تلاه صراخ رهيب أفزع "أنس". حاول أن يهرب لكنّ ساقيه تسمرتا بأرض الغرفة، كان يحدّق في الكتب وهي تدور حوله في دوّامة، توقفت الكتب فجأة وظلّت معلّقة في الهواء للحظات ثم هوت على أرض الغرفة بانتظام في حلقة حوله ودوَّى صوتها بقوّة انخلع لها قلبه، تصاعد الغبار الذي كان متراكمًا على أرض الغرفة فشكّل هالة من الدخان الخفيف حوله، عادت صفحات الكتب تتقلّب بسرعة كطواحين الهواء، انتشرت رائحة غريبة تشبه رائحة الصدأ، ثمّ انغلقت الأغلفة فجأة إلّا كتابًا واحدًا ظلّ مفتوحًا أمام "أنس" الذي كان يشعر بنبضات قلبه في عنقه، كانت الأوردة نافرة توشك على الانفجار، شفتاه وعضلات وجهه ترتجف في فزع، وقد احتقن وجهه ، رفع يده التي كانت ترتجف ومسح وجهه، ثمّ بصعوبة حرّك قدميه تجاه الكتاب وانحنى ينظر إليه، كانت صورة وجهه تظهر تدريجيًا على الصفحة الأولى وكأنّ هناك شبحًا يرسمها بينما هو ينظر! ازدرد ريقه بصعوبة وحدّق مرّة أخرى فيها وكأنّه لا يصدق، ثم مدّ يده بوجلٍ وأغلق



الكتاب ليقرأ عنوانه، كانت هناك كلمة واحدة مكتوبة بخط واضح "**إيكادولي**"، قلب الكتاب باحثًا عن اسم الكاتب فلم يجده، لكنّه فزع عندما رأى العلامة التي رآها في الكابوس ليلة أمس على سطح ماء النهر الذي كاد يسقط فيه قبل أن يستيقظ، كانت العلامة مكتوبة باللون الأحمر الكرزي على الغلاف من الخلف، بيد أنّ كلّ صفحات الكتاب كانت خالية من الكلام! التقط "أنس" الكتاب وركض إلى داخل البيت.



(٢)

"غرفة الأشباح"

كان الجد في غرفة المعيشة عندما اقتحم "أنس" الباب وركض نحوه، ثمّ جلس بجواره وبين يديه الكتاب، أنفاسه المتسارعة والتي كان يلتقطها من فمه تسببت في جفاف حلقه ولسانه، صاح بفزع :

- الجن..تلك الغرفة مسكونة لا ريب... الأرواح... الأشباح.

- اهدأ يا "أنس".

- الكتب تطير... و.. و.. الأوراق تتحرك بسرعة.. هناك صوت يصدر من بين الكتب.

حدجه الجدّ بنظرة ثاقبة وقال بجديّة:

- هل رأيت الرمز؟

انقطعت أنفاس "أنس" فجأة، لم يتوقع هذا السؤال! ازدرد ريقه وقال بخفوت:

- أيّ رمز!

أمسك الجدّ بعلبة السكر التي أحضرتها "صفية" قبل دخول "أنس" بلحظات مع كوب آخر من الشاي الساخن وسكبها على سطح الطاولة ثم حرك إصبعه ورسم الرمز الذي رآه "أنس" في الكابوس وعلى ظهر الكتاب، كان الرمز يشبه حرف "تي" باللغة الإنجليزية ..

—

T



وفوقه خط أفقي يوازي قمّة الحرف، حملق في وجه جدّه ثمّ سأله:

- أخبرني يا جدّي أرجوك، ماذا يعني هذا الرمز؟

- الرقم ثلاثة باللغة النوبية .. تويكو toycko .. لقد اختارك الكتاب يا "أنس".

- ماذا؟

وقف الجدّ واتجه إلى رفوف خشبية معلّقة على جدار الغرفة وسحب الكتاب الذي كان بالغرفة عندما وصلا من محطّة القطار، ووجده كلاهما ملقى على الأرض، أمسكه الجدّ أمام صدره وقال بجديّة:

- لقد اختارني من قبل كتاب "أبادول" ومعناها الجدّ كما أخبرتك، وكان رمزي الرقم واحد ويرا wera .. أما والدك فاختاره كتاب "أمباب تود" ومعناه ابن أبيه وكان رمزه الرقم اثنان.. أويووو oywwo .. كلا الكتابين يحكي قصة، صراع بين الخير والشر، النهار والليل، الأبيض والأسود، وكان لا بدّ من التدخل!

- لا أُصدّق، هذا هراء، الكتاب جماد! لا بدّ أن هناك أرواح تعبث به أو جنّ يسكنه!

أمسك الجدّ بذراع حفيده وسحبه، سارا معًا تجاه غرفة "أنس"، قال وهو يسير بخطوات سريعة:

- تلك الكتب حيّة يا ولدي، إنّها تتنفس، تعيش، وتشعر بنا.

هزّ "أنس" رأسه باستنكار وقال:

- مستحيل!

- ما حدث معك حدث مع أبيك ومعي أيضًا.

- ماذا تعني؟

- لا أدري عن أي شيء سيحكي كتابك، فالكلمات لن تظهر إلّا لك.

- لا أفهم.

فتح الجدّ باب غرفة "أنس" وأمسك حقيبة حفيده الجلدية وأخرج منها الحاسوب النقّال ثم قلبها على الفراش ليفرغ كلّ ما بها، ثُم قال وهو يتجاهل نظرات "أنس" الذي بدا عليه الضيق لأشيائه المبعثرة:

- بعد أن تبدأ رحلتك ستظهر الكلمات على السطور، صفحة بعد صفحة.

- لماذا أفرغت حقيبتي بتلك الطريقة يا جدّي!

- لن تحتاج لتلك الأشياء، سأزوّدك ببعض الأشياء الأهمّ، لا بد أن تستعد، ولتحمد الله أن هناك من يدلك فقد كنت أمضي في رحلتي قبلك لأوّل مرّة وحيدًا بلا دليل..هيا تعال معي.

- إلى أين؟

- غرفتي...هيّا بسرعة الوقت ضيّق.

- ما زلت لا أفهم.

دلف الجد لغرفته وفتح خزانته وأخرج صندوقًا خشبيًا بديع الشكل عليه نقوش أزهار عجيبة وبارزة مطعّمة باللون الذهبي، له قفل نحاسي لامع وبراق ثُمّ قال:

- يبدأ الأمر عندما يختارك الكتاب، لتدافع عنه، ربّما عن تاريخ، وربّما عن قيمة عظمى، سطرها أحد أُمراء النوبة المعروفين قديمًا وهو الأمير "أواوا" على أوراق البردي من خلال قصص ألّفها بنفسه، كان شابًا نبيلًا، وأميرًا طيّب الخلق أحبّه الشعب، لكنّ الملك لم يُحبه.

أخرج الجدّ قلادة عجيبة ألبسها لأنس فور أن سحبها من الصندوق، و زجاجة صغيرة زرقاء تحتوي على سائل أسودٌ لزج محفوظة في علبة مبطنة بالقطيفة الحمراء، وقال بجدية:

- ستحتاجه، لم يتبق لديّ إلّا القليل فحافظ عليه.

- ما هذا؟



لم يُجبه الجدّ لكنّه سحب خنجرًا عجيبًا له مقبض ذهبي نقوشه بديعة الشّكل، ودسّهما في الحقيبة الجلدية الخاصة بأنس، قال "أنس" بتوتّر:

- خنجرٌ ولم سأحتاج خنجرًا!

- ليس مجرّد خنجر عادي يا "أنس".... ستقطع به مسافات طويلة

- كيف!.. وإلى أين سأذهب!!

- سأخبرك بالتفصيل بعد أن أمدّك بما أملكه وربّما سيفيدك.

خرج "الجدّ" من الغرفة وهو يشير له ليتبعه.

سأله "أنس" بتعجّب وهو يتحسس القلادة ويتأمّل النقوش التي عليها:

- هل كان ذاك الملك يكره ابنه "أواوا"؟

- بل عمّه... الملك "كاشتا" الذي لم يُنجب أبدًا، وكان قلبه ممتلئًا بالحقد تجاه أخيه الملك "ألارا"، كان يغار منه فقتله ليفوز بالعرش.

- والأمير؟ ماذا حدث له؟

أسرع الجدّ إلى صالة الاستقبال حيث كانت تتدلى من السقف ثريا بديعة ووقف يتفحّصها بتمعّن وكأنّه يبحث عن شيء ما، وقال على مهل وعيناه معلقتين بالثريا التي تتدلّى من السقف:

- ألقى حرّاس الملك القبض على الأمير النبيل"أواوا"، وحُبس في سرداب تحت الأرض مع زوجته وأبنائه، كانوا يطعمونهم كالكلاب، يلقون إليهم بالطعام من فتحة ضيّقة، حتى الأطفال لم يرحموهم من هذا القهر، حتى رقّ إلى حالهم أحد الجنود فكان يحمل إليهم المزيد من الطعام في الخفاء، وطلب منه الأمير"أواوا" بعضًا من الأوراق ليبدأ بالكتابة والتدوين، وعكف على كتابتها لتكون مرجعًا لأبنائه ، ليتعلموا منها.. نفدت الأوراق فانتقل ينحت على الجدران، لم يتمكن من التوقف عن التدوين، كان يكتب طوال الوقت، ثمّ امتلأت الجدران فجلس يحكي بقيّتها لزوجته، وظلّ يكررها عليها حتى لا تنساها... ولكن...

- ما الذي حدث؟

كان الجدّ متوترًا ومرتبكًا بينما "أنس" يتبعه كظله وهو يتحرّك بالبيت. ما يسمعه كان أكبر مما يستوعبه عقله، لكنّه كان ينصت لجدّه بتركيز شديد:

- مرض الأمير "أواوا" مرضًا شديدًا، ظنّت زوجته أنّه سيموت، أوصاها وصيته الأخيرة ثُمّ اختفى فجأة، فقد فوجىء الحرّاس بزوجته وأبنائه وحدهم داخل السرداب! كما اختفى معه الحارس الذي كان يساعده، استيقظت زوجته ولم تجده! في هذا الوقت لم يكن ابنه قد أتمّ العاشرة من عمره بعد، فخرجت زوجة الأمير ومعها ابنها وابنتها ، وحملت معها كتابات زوجها، وخلّفت وراءها ما على الجدران رغمًا عنها، لو ملكت أن تنزع الجدران لفعلت، اكتفت بما تحمله من أوراق وما تحفظه من حكايا، هربت بابنها وابنتها واختفت لفترة طويلة، ولم تعد إلّا بعد أن علمت بوفاة الملك الظالم، خلال فترة اختفائها كانت تقرأ ما دوّنه زوجها على ابنها الأكبر كلّ يوم، وكانت شقيقته ما زالت صغيرة جدًا على استيعاب مثل تلك الأمور.

توقف الجدّ عن سرد الحكاية على "أنس" ثُمّ مدّ يده إلى قطع الكريستال البديعة التي كانت تتدلى من الثريا وبدأ يجذبها، أشار لأنس وقال وكأنّه يستعجله:

- اقترب فأنت أكثر مني طولًا، اخلع القطع الزرقاء التي تبرق فقط، ستحتاجها هناك، لقد أخفيتها هنا منذ سنوات.

رفع "أنس" عينيه تجاه الثريا وأخذ يحملق في قطع الكريستال، كانت جميعها متشابهة، لامعة وتبرق! لا اختلاف بينها، لكنّه بعد لحظات بدأ يميّز التي تبرق بشكل غريب عن غيرها، كانت تومض وميضًا خفيفًا وكأنها تضاء من الداخل، بدأ يخلعها واحدة تلو الأخرى، كان يشعر بحرارة في كفّه كلّما التقط واحدة منها، أعطاها لجدّه الذي وضعها في كيس جلدي حتى ملأه ودسّها في حقيبة أنس. سأله أنس وما زال القلق يستبد به:

- وماذا حدث لهم؟

- عندما كبر الابن واشتد عوده وخرج للحياة، صدم بالواقع، وبحث حوله



عمّا قرأه في كتابات والده فلم يجد شيئًا من تلك المبادئ! فغضب غضبة شديدة، وتعملق الشرّ في نفسه إثر الظلم الذي وقع على والده وعليهم، ورأى من منظوره الضيق أن تلك المبادئ لا تصلح للحياة، وأن التمسّك بها ضعف، وأنّ من أراد الحياة لا بدّ أن يكون حرًا لا يخضع لحدود ولا تحكمه قيم، وأن هذا هو الأبقى والأصلح للحياة الأهنأ والأرغد، عاث في الأرض فسادًا، وأقبل على كتابات أبيه ليحرقها لكنّه تراجع عندما غضب الكثيرون منه وبدأوا يدونونها بأنفسهم في أماكن متفرقة ليحفظوها مرّة أخرى، فقد انتشرت بشكل كبير واشتهر أبوه بها، بعد فترة تخللتها الكثير من الأحداث استعان بكهلٍ لئيمٍ بارعٍ في الكتابة، فساعده في تغيير محتوى الكتابات والقصص التي كتبها والده الأمير "أواوا" قبل وفاته وكأنّه ينتقم منها، كره ما فيها وألقى عليها اللوم وكأنها السبب، زُيّفت العبارات وحتى القصص قلبت نهاياتها وأصبح البقاء للأكثر سوداوية وخبثًا.

مرت الأيام والشهور وكبرت شقيقته وقرأت ما بالكتب، وآل أمر حكم البلاد إليهما، فتنازعا أمر الحكم فيما بينهما، وأصبح الابن الأكبر يحارب شقيقته الصغرى التي ظلّت على نقائها وفطرتها ولم تنس أبدًا ما روته أمّها عن أبيها من فضائل، وأنكرت ما فعله، انقلب عليها ثُمّ حبسها في نفس المكان الذي حُبس فيه من قبل.. و....

قاطعه " أنس" قائلًا:

- ولكن تلك الكتب رغم اصفرار أوراقها ولونها المختنق هي حديثة عهد بالطباعة مقارنة لما تحكيه لي، ليست تلك أوراق برديّ!

تعصّب الجدّ وقال بحدّة:

- لا تقاطعني فالوقت يمر، دعني أُكمل لك الحكاية حتى لا يداهموننا فجأة وأنت غير مستعد.

- من هم؟

أغمض الجدّ عينيه وتجاهل السؤال الأخير وبدا وكأنّه يصر على إكمال ما يسرده على حفيده أولًا حتى لا ينسى شيئًا وقال:

- عثر علماء الآثار على اسم الأمير "أواوا" المختفي منحوتًا على أجزاء من تمثال فخاري مهشم لأسير مقيد. يبدو أن عمه "كاشتا" قد طلب صنعه عندما فشل في العثور عليه، وهشموه عن قصد. كانوا يعتقدون أنه في حالة صنع مجسد للعدو، وكتابة اسمه عليه، ومن ثم تهشيمه، فإن ذلك سيلحق به الأذى أو يقتله عن طريق السحر. فقد رغبوا في إيذائه - عن طريق السحر- طالما أنهم كانوا عاجزين عن إلحاق الأذى به، هكذا كان اعتقادهم. كما عثر علماء الآثار أثناء الحفر على الأوراق المزيفة بجوار التمثال، وكانت مهترئة تفوح منها رائحة الصدأ، ولم يتمكن أحد من قراءة ما فيها نظرًا لحالتها السيئة، كانت تتمزق وتتفتت بين أصابعهم، بقيت صفحات قليلة منها وتم إهمالها ورأى الباحثون أنّها ليست ذات قيمة، تركوها مهملة حتى يقرروا هل سيعرضونها في متحف على حالتها أم ماذا، سرقها أحدهم وجمعها بحرصٍ شديد في أغلفة مخصصة، وعاد إلى الفيّوم، وحملها لبيته ظانًا أنها من الممكن أن تباع ويحصل على ثروة إن أفلح في تهريبها وبيعها، وبات ليلته يُفكّر في الرموز القليلة التي بقيت على الأجزاء السليمة منها، في اليوم التالي استيقظ على صوت عجيب وكأنّ أحدهم يعبث في الأوراق، وفوجىء بها وقد تجددت، والكلمات والرموز وقد اتضحت، فعكف يترجمها للغة العربية واحدة تلو الأخرى، رتب أموره وقام بدفع رشوة إلى العمال الذين يقومون بالحفر في المكان الأثري الذي كانوا يبحثون فيه، وزعم أنه قد عثر على كتابات جديدة في بقعة آخرى، أحدث اكتشافه هذا - كما زعم - ضجّة كبيرة فقد كانت تضمّ بعضًا من الحكم والقصص النوبية القديمة، وتم طباعتها بإشراف هذا الباحث بعد ذلك. ومرت سنون ابتلعت فيها صفحات الكتب التي طُبعت كلّ الكلمات، تشربت الأحبار المطبوعة، رفضت الكتب أن تعكس الأكاذيب التي تسبب ابن الأمير أواوا في نشرها حين طمس حِكم ومبادئ وقصص أبيه، وحان وقت استعادة الحقيقة ولك دور في هذا!

- وكيف عرفت كلّ هذا؟

- لأنني ذهبت إلى هناك بنفسي.

- إلى أين؟



- مملكة غريبة.

- أيّ مملكة!

- "مملكة البلاغة".

- أنت تمزح معي يا جدّي...أليس كذلك!

زفر الجدّ بحنقٍ ثُمّ قال وهو يثقبه بنظراته:

- "أنس"، الأمر أكبر مما تظنه، هي بالفعل مملكة غريبة.

هرول "أنس خلف جدّه وسأله:

- أريد أن أفهم، ما تفعله يا جدّي غريب ويوترني، هل سأسافر الآن؟

- نعم

- إلى أين...النوبة؟

- لا..لا... تلك ليست بلاد النوبة! كما أخبرتك سترحل إلى "مملكة البلاغة".

ضحك "أنس" بتهكم، كان متوترًا وكاد يفقد عقله، سأل جدّه بعصبية لم يفلح في إخفائها:

- أيّ مملكة تلك!

- أرض غريبة، المناخ فيها دائمًا يشبه ذاك الذي نراه في نهار الشتاء، الشمس باهتة، لن تكون واثقًا أنّها أشرقت، وفي ذات الوقت لا تستطيع أن تنفي أنّها هناك! ستشعر دائمًا بالبرودة، الطيور هناك يغطيها ريشٌ غريب الشكل واللون، ستجدها أكبر حجمًا مما هي عليه هنا، الماء أخضر اللون، الضباب يلف كلّ شيء، الأشخاص غريبوا الأطوار والهيئة والملابس، وكأنّ كلّ مجموعة منهم أتوا من حقبة زمنية مختلفة، وبيئة مختلفة، وكأنّ هناك من جمعهم فجأة من أزمنتهم أو استدعاهم لمهمة ما، كما ستنتقل أنت إلى هناك.

ثمّ التفت جدّه إليه وطالعه بنظرة جادة وقال:

- لقد تم استدعاؤك اليوم.

- ومن قال أنني سأذهب!

- بل ستذهب إن شاء الله.

قالها الجدّ بنَبرة واثقة وهو يركز في عيني "أنس" الذي رفع كتفيه باستنكار وقال:

- لن أذهب

- بل ستذهب!

- أخبرني بربّك ما الدليل على وجود تلك المملكة؟ لا بدّ من دليل مادي قوي قبل أن أصدق كلامًا كهذًا، ما عدت ذاك الغلام الذي يحب القصص الخيالية يا جدّي..أرجوك توقف عن معاملتي بتلك الطريقة أنت وأبي...لقد كبرت.

- لأننا نخشى عليك، لن تفهمنا الآن يا "أنس"، ربّما عندما تعود من رحلتك ستجد لنا العذر.

عاد الجدّ إلى غرفة المعيشة باحثًا عن الكتاب الذي اختار حفيده والذي كان عنوانه كلمة لم يسمع بها "أنس" من قبل... "إيكادولي" وقام بوضعه في الحقيبة، ثُمّ التقط هاتفه الجوّال، والتفت لحفيده قائلًا:

- هل تثق بي؟

- طبعًا.

- أتظنني أكذب عليك؟

- ربما أنت تمزح معي يا جدّي!

- أخبرني يا بنيّ كيف ظهرت فجأة شجرة الأبانوس تلك في بيتي وتيبست كالصنم بعد عودتي منذ سنوات؟

ثُمّ رفع رأسه ناظرًا لسقف الغرفة المزيّن بالنقوش وأردف قائلًا:



- وكيف ظهرت النقوش الغريبة المطعّمة بالنحاس الموجودة على أسقف البيت كلّه هنا فجأة بعد عودة أبيك من رحلته هناك؟

- وبم تفسّر هذا يا جدّي؟

- إنّها هدايا "الحراس" لنا على ما قدّمناه.

- أي حراس؟

- حرّاس المكتبة

- أيّ مكتبة؟

رفع الجدّ الهاتف على أُذنه بعد أن قام بالاتصال بابنه "كمال" وقال بصوت حاد:

- لا تتأخر يا "كمال"...لقد اختاره الكتاب، لا بدّ أنّهم على وصول!

- .....

- حسنًا نحن في انتظارك يا ولدي.

تسارعت دقّات قلب "أنس"، كان يشعر بها في أعلى عنقه، وصوتها المتسارع كان يطغى على مسامعه، يبدو أن أباه في الطريق بالفعل، قال بصوت متحشرج:

- هل حقًا زار أبي أيضًا تلك المملكة!

- نعم.

- كيف سافر؟..أو انتقل كما تقول؟ وأنت أيضًا؟

- صقر كبير.

- ماذا؟

تذكر "أنس" الطائر الذي يراه في الكابوس، ومخالبه الكبيرة وهي تقبض على كتفيه، فسرت قشعريرة في جسده كلّه كالنار، قال وقد زاغت نظراته:

- يحملكم من أكتافكم ويلقي بكم هناك.. أليس كذلك؟

- ليس هذا ما يحدث بالضبط فالأمر صعب التفسير ولكن.. بلى سيحملك الصقر إلى هناك.

- وأين هذا الصقر؟

- يظهر في الغرفة الموجودة بالطابق العلوي.

- غرفة الأشباح!

رفع الجدّ يده وهزّ سبابته بعصبية وقال:

- أما زلت مصرًا على تسميتها بهذا الاسم؟ لا توجد أشباح.

- بل توجد وها أنت تحكي عنها.

- هي حقائق... ستصدّقها عندما تراها بنفسك.

- ولماذا لا يظهر هذا الصقر في الحديقة أو المكتبة!

رمقه الجدّ بنظرة توحي بأنّه سيخبره بأمر مهم وقال:

- السبب هو البعد الجغرافي يا ولدي... فوق تلك البقعة تحديدًا وفوق أرض غرفة الأشباح - كما تسميها أنت - عكف عالم الآثار الذي أخبرتك عنه والذي كان يعيش هنا على ترجمة الرموز والحروف وإعادة كتابة تلك القصص باللغة العربية واحدة تلو الأخرى، مشوهة كما زيفوها قديمًا، فغضبت الكلمات، واستيقظت الحروف، وكأنّ الروح قد دبّت فيها، واجتمعت الكتب وقررت أن تختار من يدافع عن القيم والمعاني السامية. فأرسلت الصقور في كلّ مكان لتبحث عن المحاربين، الذين يؤمنون بالمبادئ السامية، ليدافعوا عنها ويستردوا الحقيقة.

- إذن هناك صلة بين الحكام هناك والكتب؟

- بل بين حروف الكتابة وحرّاس المكتبة... ستعرف عندما تصل إلى هناك.

- ولكن ما الذي يجبرني على تصديق هذا الكلام؟ ولماذا سأسلّم نفسي لصقر! كل هذا يدفعني إلى الجنون يا جدّي.



- لا بدّ أن ترحل.

- لماذا؟

- لأن امتناعك عن إجابة نداء الكتب سيعرضك للخطر هنا، فهناك من يترصدونك، كما أنّك ستلتقي بأعداء هناك ولديهم عيون.

- ماذا تعني بالعيون؟

- الرمز كما يظهر لك يظهر لأحد أعدائك، سيتربصون بك ويرسلون لك صيّادًا تلو الآخر، ليأسرك أو يقتلك قبل أن تصل إلى الحقيقة هناك. كما أن هذا سيؤدي إلى محو القيمة السامية التي في كتاب "إيكادولي" إلى الأبد .. ستقرأ الأجيال القادمة ما سيكتب وسيصدقونه.

صمت الجدّ هنيهة ثُمّ سأله:

- والآن، ما هي الكلمة التي ترددت في النداء؟

- أيّ نداء!

- ذاك الصوت الذي سمعته يناديك في الحلم.

- وكيف عرفت أنني سمعت نداءً في الحلم؟

- أخبرني أبوك، فقد هاتفني فور خروجه من محطة القطار، رأى ما رسمته على الزجاج...الرمز!

فغر "أنس" فاه ولم ينبس ببنت شفة، الآن فقط انتبه، لقد كانت الكلمة التي تتردد هي "إيكادولي ... إيكادولي"، كانت الفتاة التي تقولها تطيل الحرف الأخير وكأنّها تصيح به، صوت عذب جميل تشوبه مسحة ألم وأنين كنوح الحمام. ارتفع زامور سيّارة أجرة، لقد وصل للتو، ترك "كمال" باب السيّارة مفتوحًا وركض نحو البيت بعد نقّد السائق الأجرة، اقترب "كمال" وطالع ولده بإشفاقٍ ثُم مدّ يده وأظهر سلسلة كان يرتديها في عنقه يتدلّى منها مفتاح قديم نحاسي اللون وأمسك بيد "أنس" ووضع المفتاح فيها وأطبقها على المفتاح بحنان ثُمّ ضغط بقوّة وكأنّه يؤكد على أهميته، سأله "أنس" وما زال القلق قابعًا في عينيه:

- ما هذا المفتاح؟

- ستحتاجه، علّقه مع القلادة، منذ أن بدأ الكابوس يتكرر عليك يوميًا وأنا أحمله لكي أعطيه لك في الوقت المناسب.

نظر "أنس" لوجه أبيه القلق وهو يربت على كتفه بحنان، ثُمّ قال:

- لا أودّ أن أرحل يا أبي...لماذا أنا؟

مسح الأب بحنان على خدّ ابنه وقال بإشفاق:

- أين الفضول؟ وأين حسّ المغامرة؟ ألم تخبرني أنك مللت من حياتك الرتيبة وأنّك تشتاق لتغيير ما في حياتك، ظننتك تودّ أن تلتقي بشبح! أليس كذلك؟

- وهل تلك أشباح؟

- لا يا بنيّ... الأمر مختلف!

- إذن لكلّ منا كتاب خاصّ يختاره. كتاب جدي معناه الجد الأكبر، وكتابك يا أبي معناه ابن أبيه و عنوان كتابي "إيكادولي" وهي تعني الحفيد إذن؟

- لا!!

- إذن ماذا تعني يا أبي؟

- أحبك

- وأنا أيضا يا أبي أحبك... فأخبرني الآن أرجوك ما معنى تلك الكلمة.

التفت الجدّ إليهما وهما يتعانقان وقال بنَبرة ساخرة:

- أيها الساذج!... "إيكادولي" تعني "أحبّك".

في تلك اللحظة هبّت ريح قويّة اهتزّت لها جدران البيت، سقطت أوراق أشجار الحديقة بكثافةٍ وكأنّ فصل الخريف حلّ فجأة، طارت الأوراق ثُمّ



رشقت النوافذ فصدر صوت مخيف مزعج، أظلمت السماء، وامتلأت بالغربان السود، تدافعت الطيور نحو النوافذ كأنّها تحاول اختراقها، صاح الجدّ موجهًا

كلامه لحفيده والذي كان فاغرًا فاه وقد اتسعت عيناه:

- "أنس" أسرع إلى الغرفة، فهي آمن مكان لك الآن.

صاح "كمال" وهو يدفع ابنه أمامه على الدرج:

- لن ترحل تلك الطيور إلّا بعد أن يحلّق فوق البيت.

قال "أنس" وهو يصعد الدرج بخطوات متردده:

- من؟

- الرمادي"

- وما هو "الرمادي"؟

- الصقر الذي سيحملك إلى هناك.

- أهذا هو اسمه؟

- نعم...

- أنا خائف يا أبي.

عانق "كمال" ابنه، وضمّه إلى صدره بقوة، ثُمّ قبّل رأسه وقال بحنان:

- "أنس" كن صادقًا وثابتًا مهما كان الثّمن، ولا تخف من "الرماديّ" فلن يؤذيك.

كاد "أنس" يقول شيئًا لوالده وهو يساعده في رفع الحقيبة على ظهره، لولا صوت تحطم الزجاج الذي دوى في بهو البيت، لقد استطاعت الغربان أن تحطّم النوافذ، كانت تتجه مباشرة نحو الطابق العلوي، نحـــو "أنـــس"، إنها

تريده... تستهدفه... تطير تجاهه.

أدرك "كمال" أنّها تقترب فدفع "أنس" إلى داخل الغرفة فأسقطه على الأرض وصاح بصوت يمزقه القلق:

- أستودعك الله يا ولدي... في حفظ الله..

وأغلق الباب بسرعة، ثُمّ بعد لحظات عمّ سكون مهيب على المكان... اختفت كلّ الأصوات عدا صوت خفق جناحيه في الهواء، لقد بدأ الرماديّ يحلّق فوق البيت فأضاءت السماء فجأة!





(٣)

"الرمادي"

كان "أنس" مستلقيًا على أرض الغرفة عندما انفتحت النافذة فجأة، أضاءت السماء بنور قوي ناصع، حملق في تلك البقعة السوداء التي تظهر وسط الضوء أمامه، كانت البقعة تكبر وتزداد اتساعًا، وتزيد، وتزيد، ظهر طائرٌ يبسط جناحيه على الجانبين ويخفق بهما، رأى ظلّه يتعملق أمامه حتى اندفع فجأة من النافذة ثُمّ ظلّ يحلّق في سقف الغرفة المرتفع في دائرة فوق رأس "أنس" الذي زحف بصعوبة تجاه باب الغرفة يحاول فتحه لكنّه فشل. كان الصقر ذا ظهر أزرق ضارب إلى الرمادي الأردوازي، والجسد أسود يخرج منه جناحان مبرقشان، وذيل طويل ضيّق مستدير عند نهايته، ذو طرف أسود وعلامة بيضاء على أقصاه. ويظهر أعلى رأسه على الجانبين لون أزرق بديع، ويمتد على الوجنتين كخطّ كما الشارب يتباين بشكل حاد مع جانبيّ العنق الباهتين. بدا الصقر متينًا مهيب الطلعة.

هبط الصقر فجأة وانزوى في ركن الغرف وطأطأ رأسه ثُمّ ضمّ جناحيه وألصقهما بجسده، حدّق في "أنس" بعينيه المخيفتين، ثُمّ غطّس رأسه في جسده. مرّت لحظات طويلة على "أنس" استيقظت فيها كلّ حواسه، كان يرهف السمع بشدّة لعله يسمع أيّ صوت يؤنسه، بالتحديد كان يتمنى أن يناديه أبوه أو جدّه من خلف الباب، حاول أن يفتحه مرّة أخرى لكنّه فشل، كان صلبًا كالصخر الأصمّ وكأنه جزء من الجدار. سار ببطء محاولًا الاقتراب من النّافذة، غمغم الصقر وكأنّه يحاول أن يمنعه من الاقتراب منها فتسمّرت ساقا أنس والتصقتا بالأرض، ثُمّ رمى الصقر بطرفٍ خفي وهمس محدّثًا نفسه:

- ظننتك أكبر حجمًا أيها " ا..ل..ر..م..ا..د..ي" كصقور الأساطير العملاقة.

حرّك قدمه ببطء شديد ليخطو خطوة أخرى فتحرّك الصقر موازيًا لخطواته فتوقف "أنس" مرّة أخرى وقال بسخرية:

- تترصّدني إذًا أيّها الصغير!

- لست صغيرًا يا صديقي.... أنا شيخ كبير!

شعر "أنس"وكأن ألف إبرة رشقت جسده، تكورت جذوع الشعر على جلده فاستحال جلد إوزة، الصقر يتكلّم! ابتلع ريقه بصعوبة وكأن كتلة من الأشواك تحتل حلقه، بسمل وحوقل وبدأ يقرأ آية الكرسي لعلّه يختفي من أمامه، أغمض عينيه لعلّه يستيقظ من ذاك الكابوس..لكنّه لم يكن حلمًا أبدًا! لم يتمكن من تحريك جسده مرّة أخرى، باغته الصقر وهبّ فجأة محلّقا بضربة جناح واحدة ووقف على كتفه الأيسر، ثُمّ همس في أُذنه:

- لا تخف منّي يا "أنس".

كانت قطرات العرق تنسال على ظهر "أنس" متتابعة، وكاد يفقد الوعي، لكنّه تماسك. كان يخشّب رقبته محدّقًا بطرف عينيه بتربص نحو موضع الصقر وراءه، وكأنّه يخشى انقضاضه عليه فجأة، ظنّ أنّه سينقره في رقبته أو أُذنه لكنّ الصقر كان هادئًا جدًا وساكنًا. مرت دقيقة وهما على ذاك الحال وكأنهما تمثالان من الشمع. أخيرًا نطق الصقر مرّة أخرى وقال بلطف:

- هل هدأت الآن؟ لا أُحبّ أن نبدأ رحلتنا وأنت ترتجف هكذا.

حرّك "أنس" عينيه تجاه كتفه وأدار رأسه ببطء وكذلك فعل الصقر فتقاربت عيناهما تمامًا وحدّق كلّ منهما في الآخر للحظات، ازدرد "أنس" ريقه بصعوبة وقال بصوت مرتعش:

- لا أُصدّق أنّك ستحملني؟

زفر الصقر فلامست أنفاسه بشرة "أنس" فانتصبت شعيرات ذقنه الخفيفة، ثُمّ قال له وهو يتسلّق رأسه:

- لا تسير الأمور بتلك الطريقة يا صديقي، سأحملك حتما ولكن بطريقتي الخاصة.



استوى الصقر على رأس "أنس" الذي رفع مقلتيه لأعلى بينما بسط الصقر جناحيه في الهواء، ثُمّ احتضن وجه أنس بهما ببطء وبهدوءٍ شديد، حيث غطى وجهه كلّه بريش جناحيه ريشة فوق ريشةٍ بانتظام، جبهته وعينيه وأذنيه وخديه، لم يترك إلا أنفه وفمه ليتمكن من التنفس والكلام. شعر "أنس" بجسده يخدّر، وسرى في نفسه شعور غريب، شيئًا فشيئًا خفّ جسده وكأنّه ريشة في جناح الصّقر! حاول فتح عينيه..كان يظنّ أن ريش جناح الصقر ما زال يغطيهما، لكنّه فوجئ بنفسه يطير وقد غمر الضباب كلّ شيء حوله، لفحته الرياح الباردة، وشعر برذاذ خفيف يبلل جبينه وكفيه، رائحة المطر الخفيف داعبت أنفه، عطس فجأة فإذا بصوت الصقر يصدر من أعلاه:

- يرحمك الله يا صديقي.

رفع رأسه ففوجئ بالصقر وقد ازداد حجمه أضعاف حجمه الحقيقي الذي رآه منذ قليل في الغرفة، كانت مخالبه تقبض على كتفي "أنس" حيث يحلّق به فوق "مملكة البلاغة"، ردّ بعد أن اضطرب قليلًا وتأرجح بجسده من المفاجأة قائلًا:

- يالله!... يا له من شعور غريب!

- لا تخف من السقوط

- لا أصدق!

- بل صدّق واستعد لما هو أكثر مفاجأة لك

- هل وصلنا؟

- اقتربنا، حاول أن تستمتع بالطيران.

بدأ الشعور بالخوف يغادر صدر "أنس" وحلّ مكانه تدريجيًا الشعور بالفضول وبدأ حسّ المغامرة يدغدغ نفسه، كانت حياته راكدة لفترة طويلة، وها هي الأمور تتغير فجأة! سأل "الرمادي" مستأنسًا بحواره معه:

- هل تعرف جدّي؟

- بالتأكيد.

- أخبرني أبي أنّك صديق.

- أتمنى أن أحوز لديك نفس المكانة التي حزتها عند أبيك.

- كيف تتحدّث كالبشر؟

- لا تسأل.

- لا بدّ أن أسأل!

- إذن ستقضي وقتك كلّه في الأسئلة، والوقت يمرّ، حاول أن تتقبل بعض الأشياء كما هي، لا تسأل إلّا عمّا يفيدك، أمّا ما لا يعنيك ولا يفيدك فلا تضيع وقتك بالركض خلفه.

قال "أنس" متلعثمًا:

- إنّه... فضول أنيس.

قال الصقر وهو يخفف من سرعة طيرانه استعدادًا للهبوط:

- بعض الفضول قد يفيد، وبعضه قد يؤذيك، فاحذر يا صديقي.

سرت طمأنينة في نفس "أنس"عندما تذكّر والده وهو ينصحه بنفس النصيحة، بنفس الكلمات عندما كان يجلس بجواره في محطة القطار بالإسكندرية، لكن تلك الطمأنينة تلاشت سريعًا عندما بدأ "الرماديّ" يقترب به من مصبّ النهر الأخضر. تسارعت دقّات قلبه أكثر فأكثر، كاد يقفز من بين ضلوعه، كان البرد يزداد كلما اقتربا من سطح الماء، بينما كان لون الماء الأخضر الزمرّدي يزداد بهاء ووضوحًا.

هبّت رياح خفيفة فمسحت وجه الماء مخلفة وراءها تموجات متوازية بديعة، من بعيد وعلى شاطئ النهر كانت أوراق الأشجار المتساقطة تدور مع الرياح، وكأنّ هناك أياد خفيّة تتلاعب بها، كادت ساقا "أنس" تلمس الماء، لكنّ "الرماديّ" وبعد أن حلّق به برشاقة فوق سطح الماء تركه على ضفّة النهر وارتفع محلّقا لدورة كاملة قبل أن يعود ليقف أمامه من جديد ويحني رأسه



وكأنّه يحييه، من جديد ضمّ جناحيه وألصقهما بجسده فبدا وكأنّه أمير يتلحّف برداء أنيق. كان "أنس" ما زال يتطوّح، للحظات قليلة كان قد فَقد اتزانه، لكنّه تمالك نفسه وقال بعفوية:

- أنت سريعٌ جدًا.

ران عليهما صمت خفيف قبل أن يحرّك الصقر جناحيه ويقول:

- والآن اسمح لي أن أنصرف، انتهت مهمتي.

- ولكن! ماذا سأفعل أنا!

- سيستقبلك "المغاتير" ويصحبونك للقاء "الحوراء".

- ومن هم "المغاتير"؟

- قوم صالحون يخفون وجوههم فلا تهبهم.

- ولم يخفون وجوههم!

- لا ينتظرون الشكر، ولا يبتغون الأجر، استغنوا عن الناس فأغناهم الله عن الناس وصار الجميع يحتاجون إليهم، ودائمًا هم في الطليعة. انتظرهم هنا على أطراف الغابة خارج حدودها ولا تتحرك من مكانك فهم لن يدخلوها أبدًا.

رفع "أنس" حاجبيه وكاد يسأله لماذا لولا أنّ "الرمادي" باغته قائلًا:

- سأمرّ عليك في وقت لاحق.

ثُمّ بسط جناحيه وارتقى يحلّق في الفضاء مبتعدًا عن "أنس" ومتجهًا

صوب جبل مهيب أحاطت قمّته هالة حمراء قاتمة، برزت من وسطها تلك القمّة بشموخ وقد كساها الجليد الأبيض، شعر "أنس" بقشعريرة تجتاح جسده عندما رأى الجليد، كان الجوّ باردًا جدًا. صاح وهو يركض موازيًا لطيران الصقر على الأرض:

- أرجوك لا تتركني الآن، أُريد أن أسألك عن أشياء كثيرة.

أجابه "الرمادي" وهو يبتعد:

- ستجيبك عنها جلالة الملكة.

توقف "أنس" عن الركض حيث انتهى الطريق ووقف على حافة وادٍ كبير، أوشك أن يسقط فيه لولا أنّه انتبه ثُمّ أرخى ذراعيه بيأسٍ وهو يراقب "الرمادي" وقال:

- وداعًا.

عاد "الرمادي" للتحليق فوقه وقال بنَبرة حميمية:

- لا تقل وداعًا يا صديقي، بل قل إلى اللقاء.

- حسنًا..إلى اللقاء.

اختفى "الرمادي" مخلفًا وراءه "أنس" وهو يتلفّت حوله يتأمّل الأشجار التي بدت وكأنّها تطالعه بفضول، سار بضع خطوات نحو ممر ضيّق بينها، أجفل عندما تناهى إلى سمعه حفيف الأشجار وشقشقة العصافير،

تحسس القلادة التي ألبسها له جدّه وطالع النقوش التي عليها مرّة أخرى، طال سيره فأحسّ بالإرهاق، تفحص ساعة يده فإذا بعقاربها لا تتحرك! لقد توقفت عند الواحدة ظهرًا، نفس التوقيت الذي غادر فيه بيت جده!

تذكّر شعوره وهو يحلّق في الهواء، مزيج من الخوف والحماس بدأ يعتمل في صدره، استعاد رباطة جأشه على نحوٍ سريع! ما عاد فزعًا كما كان لحظة ظهور الصقر لأوّل مرّة، بل خفّ ذاك الشعور، وما عاد خائفًا كما كان والكتب تدور حوله في غرفة المكتبة، لكنه بالطبع قلق. استغرقته المشاهد وهو يجترّ ما مرّ به خلال الساعات الماضية في شرود بينما ينتظر ظهور "المغاتير"[١].



١ - المغاتير لقب يطلق على نوع من الإبل البيضاء النفيسة جميلة المظهر وغزيرة الوبر، يقول عنها أهل البادية: المغاتير نور القلب.



لمح "أنس" طيفًا يمرّ قريبًا منه قد افترش ظلّه على الأرض وقبل أن يلتفت نحوه فوجئ بخبطة على كتفه فالتفت متأهّبًا وأمسك بذراع هذا الذي باغته فجأة من الخلف وسحبه ثم انقلب به على الأرض واضعًا ركبته فوق صدره وقابضًا بأصابعه العشرة على رقبته، ابتسم الشاب بسخرية وقد فتح كفّيه مظهرًا استسلامه الكامل لـ"أنس" وقال بصعوبة من أثر قوة قبضة "أنس" على أنفاسه:

- مهلًا يا رجل، وددت فقط أن أُرحّب بك.

خفف "أنس" من قبضته وتركه وتراجع إلى الخلف، تحسس الشاب رقبته وقال بنظرة ماكرة:

- يبدو أنّك تمارس الرياضة، أليس كذلك؟

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أين تعلّمت تلك المهارات؟ هيّا أخبرني؟

حدّجه "أنس" بنظراته، بدا وجه الشاب يحمل مسحة من الوسامة بشعره البنيّ، وبشرته الباهتة وفكّه العريض، وتلك النظرة الساخرة التي تُطلّ من عينيه الضيقتين، لكن تلك الملامح جعلت "أنس" يرتاب منه. كان يظنّ أنه سيلتقي بأناس سمر البشرة وبملامح نوبية، كتلك التي قرأ عنها ورآها من قبل. سأله متجاهلًا سؤاله الأخير قائلًا:

- ما اسمك؟

- أنا "شهاب" وأنت؟

- "أنس".

بدأ "شهاب" يدور حول "أنس" ويتأمّله بتمعّن ناقلًا عينيه من أخمص قدميه وحتى قمّة رأسه، ثُمّ قال باستخفاف:

- تبدو غريبًا عن المكان، ألك صديق هنا؟

أجابه "أنس" بتحفّز:

- الرّمادي.

- ذاك الكهل الأحمق.

شعر "أنس" بالإهانة وكأنّ السبّة وجهت له، فأخفى غضبه وسأله:

- وهل تعرفه؟

- أنا أعرف الجميع هنا...حتى ذاك الكهل البغيض.

بدأ كلاهما يدور حول الآخر، سأله "أنس" بترقّب:

- هل...أنت مثلي!

خرجت من "شهاب" قهقهات عالية، استغرقته للحظاتٍ قبل أن يقترب منه حدّ ملامسته وقد شَخَصَ فيه بسحنة متوّعدة:

- لستُ مثلك!

ثُمّ تغيرت ملامحه الضاحكة فجأة وصارت صارمة، وقال وهو يتراجع إلى الخلف:

- أنا لست مثل أحد...أنا مختلف! أنا مميّز.

التفت "أنس" تجاه الطريق الممتد أمامه بين الأشجار ورماه بنظرة خاطفةٍ ثُمّ قال بهدوء محاكيا طريقة "شهاب" في الكلام:

- كيف تعالج الأمور هنا؟

- أيّ أمور؟

طاف "أنس" بنظراته في كلّ اتجاه ثُمّ قال:

- كلّ شيء...أود أن أعرف ما دوري.

- ليس لديك دور هنا، أنت مجرد شاهد.

- على ماذا؟



- على ما ستراه هنا من أحداث.

- لا أظنّ.

- ومن أنت حتى تظن أو حتى تفكّر!

تجاهل "أنس" نَبرة الاستخفاف التي شابت الكلمات، وتخطاها قائلًا:

- لكلّ منا دور في حياته وحياة الآخرين، كل كلمة ننطق بها وكل فعل نفعله.

- لكن الأمور هنا ستسير رغم أنفك على طريقة لن تحددها أنت.

- صحيح، وهكذا الحياة كلّها، لكن لا تخبرني أننا هنا لنراقب في صمت كالجمادات.

ران عليهما الصمت للحظة، بدا فيها "شهاب" وكأنّه يجترّ بعض الذكريات قبل أن يقول بنَبرة تشوبها المرارة:

- أتدري، ربما أنت على صواب.. كلمة (مسئول) قد تقلب حياة شاب، كلمة (خبيثة) قد تفرق بين اثنين، وإشاحة بنظرة قد تعني (أكرهك).

رمقه "أنس" وقرأ على وجهه الألم فتحرك تجاهه وقال:

- والتفاتة قد تعني الحب، مجرّد الحضور في موقف ما قد يعني الكثير لآخرين دون أن ندرك هذا، لكنهم يدركون، حتى الصمت أحيانا إن كان في موضعه الصحيح فله دور.

- حتى إساءتنا للآخرين؟

- نعم.. حتى إساءتنا للآخرين وإساءتهم لنا، أنت مثلًا قد تعزم على إزاحة جبل لكي تثبت لمن آذاك وأساء إليك أنه على خطأ، نحن نتعلم في مدرسة الحياة وما زال أمامنا الكثير من الدروس.

ابتسم "شهاب" وقال وهو يهزّ رأسه إعجابًا:

- تبدو حكيما يا فتى، بدأت أحبك.

ثُمّ عاد يتفحّص وجه "أنس" قبل أن يقول وهو يحكّ أنفه:

- كم عمرك؟

- ثلاثة وعشرون عامًا، وأنت؟

- خمسة وثلاثون عامًا.

ثم سكت هنيهة وقال لـ"أنس":

- هل..تحبّ أن تأتي معي؟

- إلى أين؟

- حيث أقيم.

- لكنني لا بدّ أن ألتقي الملكة أوّلًا.

- الحوراء؟

- نعم هي "الحوراء"

ما كادا ينهيان الكلام حتى تناهى إلى سمعهما صوت حوافر الخيـول وهي

تضرب الأرض ، أفزع صهيلها "شهاب" الذي تلفت في اضطراب ثُمّ شهق وقد كست وجهه علامات الرهبة وركض سريعًا وشق الطريق بين الأشجار وكأنّ الموت يطارده! تبعه "أنس" وهو يتساءل عن سبب فزعه، أصابته عدوى الفزع لمجرد رؤية نظرات "شهاب" الشاخصة ثم شهقته التي جعلت "أنس" يرتبك بشدّة، كان "أنس" يركض وعينه على رأس شهاب.

في تلك اللحظة، ارتفع صهيل الخيول ثُمّ علت أصوات حوافرها وأصدرت شرارة وهي تقدح الأرض التي انتقلت إليها للتو بعد أن غادرت البستان المجاور للغابة، كانت تلك الأرض تبدو كشريط عريض يفصل بين البستان والغابة التي ركض فيها "أنس" خلف "شهاب"، لم تتحرك الخيول خطوة واحدة، وقفت صفًا واحدًا على ذاك الشريط الحجري الفاصل بين الجهتين، وهي تنظر تجاه "أنس"، صاح "الزاجل الأزرق" بصوته الجهوري:

- يا إلهي.. تأخرنا!



ثمّ قال بتوجس:

- بدأت رحلته دون أن يسمع منّا!!

❑❑❑

مالت الشمس فانزاح النقاب عن وجهها بحياءٍ فأضاءت شرفات القصر، جلست"الحوراء" في ديوانها بوقار، حيث كانت ترتدي برنسًا مرصعًا بالجواهر تتدلّى منه سلسلة ذهبية مطعّمة بالأحجار الكريمة، ثيابها البيضاء الواسعة تشعر من يراها بمهابةٍ وسكينةٍ كانت تلف رأسها بوشاح أبيض وقد انسدل من فوق رأسها شالٌ طويلٌ غطى كتفيها وقد لفّته باحتشام على صدرها. عجوز كانت .. لكنّها جميلة!

استأذن أحد رجال الديوان وقال بعد أن حيّاها بإجلال:

- مولاتي شغب بعضُ الجند في المنطقة الشرقية... ماذا سنفعل؟

أشارت "الحوراء" للكاتب الذي كان جالسًا بالقرب منها وعلى يمينه الدواة والقلم وأمامه الأوراق متأهّبًا ليكتب ما ستقوله وقالت:

- لا يُلبُّوا على الشغب، ولا يُحوَجون فيما بعد إلى الطلب.

هزّ رجال الديوان رءوسهم وهمهموا موافقين، مرّت لحظات ناقشوا فيها كيف يكفون حاجة الجُند حتى يتفرغوا لما هو أهم، وهو حماية "مملكة البلاغة" من الأعداء، ثمّ قال أحدهم:

- إن أهل المنطقة الشمالية رفعوا مظلمة يشكون فيها عاملًا هناك.

أشارت "الحوراء" مرّة أخرى للكاتب ليدوّن خلفها وقال:

- أرسل لهم..."عيني تراكم، وقلبي يرعاكم"

وأمرت "الحوراء" بإرسال من يتحقق من الأمر ويعود إليها، ثم التفتت إلى أحد رجال القضاء الذي قال وهو يرنو لرجل يقف بعيدًا يراهم ولا يكاد يسمعهم:

- مولاتي لقد قمت باستدعاء والي المنطقة الغربية كما أمرتِ وهو يستأذن بالدخول.

- أذنت "الحوراء" له بالدخول وبعد أن ألقى عليها السلام

قالت بحزم:

- أخربت البلاد، وأهلكت العباد؟

فقال الوالي مرتبكًا:

- يا مولاتي، ما تحبّين أن يفعل الله بكِ إذا وقفتِ بين يديه، وقد قرعتك ذنوبك؟

فقالت "الحوراء:

- العفو والصفح.

قال الوالي بلهجة يشوبها الإحساس بالذنب:

- فافعلي بغيرك ما تختارين أن يُفعل بك.

صمتت "الحوراء" لوهلة ثمّ قالت:

- قد فعلت، ارجع إلى عملك فوالٍ مستعطف خير من والٍ مستأنف.

أسرع الوالي بالانصراف وشيّعه رجال الديوان بأعينهم ثم قال أحدهم فور أن انصرف:

- حقًا يا مولاتي إنّك من أفضل حكّام المملكة حلمًا.

قالت"الحوراء":

- وأنا والله أستلذ العفو حتى أخاف ألا أؤجر عليه.



فرغ الرجال من باقي مراسيمهم، وانتهى وقت الديوان وعادت "الحوراء" لقصرها واتجهت إلى صالة واسعة حيث كان الجميع يستعدّون للاحتفال بمناسبة هامّة[١].

❒❒❒

شد "الزاجل الأزرق" سرج فرسه الذي صهل بعنفوانٍ قبل أن يقفز صاحبه به في الهواء قفزة رشيقة عابرًا نهرًا رفيعًا يفصل المكان الذي كانوا فيه عن وادٍ فسيح بين جبلين يحتضن قصرًا مهيب الطلعة، كان القصر بارزًا وكأنه نُحت داخل بلورة عملاقة، كلّ جزء منه كان رائعًا في حدّ ذاته، تحفة فنية لا تشبه ما يجاورها، شرفاته كانت وكأنّها محار مفتوح تطل منه لؤلؤات بديعة، بواباته عليها نقوش والتواءات تشبه فروع الأشجار، وكأنّ الأزهار المنحوته تضجّ بالحياة من روعتها. وقف "المغاتير" أخيرًا وكانت قوائم خيولهم مصطفّة على التوازي بشكل أنيق أمام البوابات، رفع "الزاجل الأزرق" يده ولوّح لحراس القصر ففتحت البوابات، فدلف ومعه رفاقه للقاء الملكة.

بخطوات منتظمة سار "المغاتير" في زمرةٍ مهيبة تجاه جناح الملكة، توقفوا جميعًا فجأة عندما بدأت الأرض ترتفع قليلًا في مستواها عما خلفهم، تقدّم "الزاجل الأزرق" حيث استقبله خدام القصر بوجوه باسمة، وكأنّهم كانوا يترقبون وصوله!

كان الصمت يخيّم على المكان، أشعة الشمس الحانية كانت تتسلل من النوافذ لتلقي على الأرض أمامه انعكاسات ذهبية خلابة، كانت تتراقص أمام خطواته وكأنّها ترحّب به، بدت النقوش والزخارف بديعة على الحوائط وهي تحتضن وتتكاتف، وارتصّت أوعية من الفخار على الرفوف تطالع أهل القصر من أعلى بشموخ. دلف حيث كانت الملكة تجلس بوقار وعلى الجانبين عدد كبير من الرجال يجلسون على الأرض في صفّين منتظمين وأمام كلّ منهم طاولة صغيرة عليها كتاب والكلّ مشغولٌ بالتدوين، كان للملكة وجه به بقايا جمال متعب، بدت عجوزًا تخطّت السبعين لكنّها كانت جميلة الروح، تلك التجاعيد

١ - بعض العبارات في حوار ديوان الملكة مقتبسة من حوار الخليفة المأمون في ديوانه.

التي حول عينيها من الطرفين بدت وكأنّها تحتضن نظراتها بحنان، كان بؤبؤاها شديدي السواد يسبحان في بياض عينيها الشاهق بحياء، سقط حاجباها لكنّ جبينها كان شامخًا بعزّة، هشّت فور أن رأت "الزاجل الأزرق"، أشارت له ليجلس مكانه ففعل بهدوء، كانت تقف أمامها فتاة احتشمت برداء أرجواني اللون فضفاض واسع، له قلنسوة مذهّبة الأطراف بشكلٍ بديع، أكمام ردائها الواسعة كانت تصطف على حروفها فصوص من الياقوت الأحمر دقيقة جدًا كانت الفتاة تقرأ بتأثّرٍ من كتابٍ بين يديها وبصوت تشوبه بقايا بكاء:

"نكس الفارس سيفه وأجهش بالبكاء، كان قلبه يخفق بحرارة طغت على حرارة النار التي أحرقت قدميه، كان الحزن مذاقه اليوم مختلفًا، ليس قصيدة حزينة تترف في أذنيه، وليس خبرًا مفزعًا يستقبله بالنحيب، الحزن مرّ لأنّ صديقه الذي كان يثق به قد خان العهد. عاد الفارس إلى الديار بعد أن طاب جرحه ليبحث عنها، وأخيرًا وقف أمامها يرجو المغفرة، ما عادت الحياة تطيب بعيدًا عنها. وكانت "هيلا" تتوسّد الصبر حتى يعود. لم تذق عيناها الجميلتان طعم النوم والراحة حيث ضاق بها المكان خلال غيابه، زُفّت إليه على عجلٍ في ليلة ملأت فيها كفّه بالدموع وتفجّر في صدريهما ينبوع الحب، وأخيرًا رقص جريد النخل، وتعانقت حبّات المطر، وبات الصدق يجول في الأنحاء، في الديار، على التلال، شامخًا فوق الجبال، كما يجول الهواء في صدور الأنقياء الأصفياء"

أغلقت الفتاة الكتاب بين يديها، وفي نفس اللحظة أغلق كلّ الرّجال الكتب أمامهم في آن واحد وكأنهم قد اتفقوا على التوقيت، وتقدّمت الفتاة بخطوات ثابتة نحو "الحوراء" تسلّمه لها، وضج المكان بأصواتهم وكأنّهم يحتفلون بحدث عظيم. كانوا يحتفلون بـ "هيلا" وهو اسم لأميرة نبيلة وهو أيضًا عنوان قصة يحكي عنها هذا الكتاب.

في تلك اللحظة استدارت الفتاة التي كانت تقف أمام "الحوراء" وتقرأ، ورفعت الكتاب الذي كان مكتوبًا عليه بخط واضح "هيلا"، فهلل الجميع، كانت الفتاة مشرقة ولها وجه طفولي بريء، لون عينيها كان يتأرجح بين اللون الرمادي والأزرق الشاحب، كانت تطالعهم وعلى وجهها ابتسامة فخر، فور أن رأت "الزاجل الأزرق" الذي لا تعرف من ملامحه سوى عينيه الواسعتين فهو يتلثم دائمًا كعادة المغاتير، شخصت بعينيها تجاهه وانتفضت فجأة وتغيّرت



ملامحها، فهي تريد الرحيل فورًا والعودة إلى بيتها وعالمها فقد أدت مهمتها على أكمل وجه، وتخشى أن يتحقق ما أخبرها به الحكيم "سامي كول"!!

❒❒❒

تقدّم "الزاجل الأزرق" ووجه تحيّته للملكة وقال بعد أن لاحظت علامات التوتر التي تطلّ من عينيه:

- مولاتي، لقد وصل المحارب، وصل "أنس".

- وأين هو؟

- للأسف ركض في الغابة ولم نتمكن من الحديث معه.

- يا للمصيبة! كيف حدث هذا! أين الرمادي؟ وأين كنتم أنتم؟

- تأخرنا للحظات فقط... مجرد لحظات.

رفعت صوتها وقالت وهي توقع كلّ كلمة بنَبرة صوتها المميزة:

- *أن تصل مبكرًا وتنتظر خير لك من أن تصل بعد فوات الأوان.*

- أعلم مولاتي، وأعتذر.. لن تتكرر.

- والآن كيف سنتواصل معه؟

من بعيد، ومن خلف الستار، كانت "مَرام" تراقب الحوار وقد كتمت أنفاسها عندما سمعت اسم "أنس"، ذاك الشاب الذي يتحدثون عنه تعرفه، فقد أخبرها "سامي كول"، ذاك العجوز ذو اللحية أنّها ستلتقي بهذا الشاب، وربما تضطر للبقاء، وهي تود الرجوع إلى أهلها في الحال. ركضت خارجة من القصر في فزع والتف حولها العديد من الفتيات والجواري، اتجهت إلى الوادي القريب من القصر تنتظر أنثى الصقر التي ستحملها لتعود إلى بيتها، كانت ترتجف، غابت فرحتها فجأة، أرادت أن تتخذ القرار، تريد العودة لكنّ ضميرها يؤنبها هل تخبر "الحوراء" بما قاله لها "سامي كول" أم لا؟ كانت خائفة.

اقتربت "الحوراء" في موكبها وحولها الحرّاس، من خلفها كان يسير "الزاجل الأزرق" وهو يقلّب ما حدث في رأسه، ماذا لو وصل "أنس" إلى الجنوب؟

في تلك اللحظة قالت "الحوراء" موجهة كلامها لـ "مَرام" التي بدت على ملامحها علامات الارتباك:

- شكرًا لك يا "مَرام"، حان وقت الرحيل.

ودَّعوها ووقف الجميع رافعين رءوسهم ينتظرون "قطرة الدمع" لتحملها وتعيدها إلى موطنها، لكنّ "قطرة الدمع" ابتعدت فجأة عندما صاح منادٍ قائلًا:

- مولاي الحكيم "سامي كول"

التفت الجميع نحو باب القصر، واقتربوا حيث كان يقف الكهل فكلهم يعظمونه ويقدرونه لأنه ذو شأن عظيم في المملكة، كان يشير وهو مغمض العينين! رفع ذراعه تجاه أنثى الصقر التي كانت تحلّق في السماء والتي يطلقون عليها "قطرة الدمع" لتبتعد... كان الجميع يتساءلون:

(لماذا جاء ذاك الحكيم الذي لا يغادر بيته إلّا للضرورة في هذا الوقت من النهار؟)

رفعت "مَرام" رأسها تجاه "قطرة الدمع" التي كانت تحلق فوق رءوسهم في السماء، تابعتها بنظراتها وهي تبتعد بدون أن تحملها معها كما كانت ترجو، ثُمّ ترجرجت الدموع في مقلتيها، بدت حائرة ويائسة وقالت بخفوت وهي تسير بجوار الملكة:

- لماذا يبعد الحكيم "سامي كول" "قطرة الدمع"! ألن تحملني لدياري؟ ألن أرحل الآن؟

- يبدو أنّ هناك خبرًا جديدًا، انظري لوجه أبي!

تمتمت "مَرام" قائلة وهي ترنو إليه:

- بالفعل...هناك شيء ما!

- ما هو يا عزيزتي؟



زفرت بوهن وقالت:

- ذاك الشاب الذي كنتم تتحدثون عنه منذ قليل..

- ما به؟

- رأيت اسمه في منتصف كتاب "هيلا"، ظهر لي بشكلٍ واضح، وأخبرني العظيم "سامي كول" أن أبلغه إن ظهر مرّة أخرى على صفحات كتابي، وأنه من الأفضل أن أبقى لو وصل قبل رحيلي.

- وهل ظهر اسمه مرّة أخرى؟

- نعم.. أكثر من مرّة، وكأنّ الكتاب يريد أن يخبرني عنه شيئًا ما.

- وهل قُمتِ بإخبارِ أبي؟

- بصراحة... لا!

التفتت "الحوراء" ورمقت "الزاجل الأزرق" بنظرة ذات معنى، همهم "الزاجل الأزرق" وغضن حاجبيه قبل أن يقول وهو يقترب منها:

- هل كان هناك رمز؟

قالت "مَرام" متلعثمة:

- لا أذكر..فكما تعلمون كنت مشوشة في الفترة الأخيرة حتى أن إكمال مهمتي كان صعبًا جدًا.

دلف الجميع إلى القصر يتقدمهم رجلٌ قويّ البنية بارز العضلات، يرتدي سروالًا فضفاضًا وقميصًا أبيض ودَرّاعةً من الكتّان، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء، ثمّ صاح بصوت جهوري ليعلم كلّ من بالقصر:

- مولاي الحكيم "سامي كول".

ارتبك كل من بالقصر، وأسرعت الحوراء نحو الديوان تعدّل من مكان جلوس أبيها، ثُمّ أمسكت بزجاجة مرصعة بالأحجار الكريمة ونثرت بعض قطرات العطر منها على الكرسي بجوارها وكأنّها تهيؤه لاستقباله.

جلس "سامي كول" تجلله الهيبة وابتسامته العذبة تضوي على ثغره، كانت لديه لحية بيضاء طويلة ناعمة، بدا عجوزًا جدًا كشجرة بلوط قديمة، انحنت قامته ووهن عظمه ولكنّه بدا صلبًا متماسكًا، وأنيقًا أيضًا! كان يرتدي قَبَاءً بنفسجية اللون مفتوحة عند الرقبة، أكمامها محلّاة بخيوط ذهبيّة، تغطّي رأسه قلنسوة زاهية اللون ومطرزة، وعلى كتفيه وضع طيلسانًا أخضرَ.

حيّاهم بحبور وشرد بفكره قليلًا، كانت له عينان شفافتان كالبلور! بدت على وجهه علامات القلق فأسرعت ابنته بسؤاله وكانت ذكية اللبِ حاذقة الفهم تقرأ حال أبيها على وجهه فقالت:

- هل أنت بخير يا أبي؟

قال بألم وهو يمسح وجهه بكفيه :

- مات صديقي الحبيب.

- رحمه الله يا أبي، لا تحزن.

قالت "الحوراء" الجملة الأخيرة وهي تمسح على كتفه مخففة عنه ما ألم به من حزن على فراق صديقه العزيز والحبيب.

دمعت عيناه وجلس شاخصًا بعينيه حزينًا وجلست "الحوراء" تواسيه ثُمّ قالت بعد أن هدأت نفسه:

- أنهت "مَرام" مهمتها، لكنّها رأت اسم "أنس" يتكرر في كتابها، وتقول أنّك أخبرتها أن من الضروري أن تخبرك إن تكرر ظهوره.

- وهل تكرر؟

- نعم

- وهل وصل "أنس"؟

- نعم وصل.

- وأين هو؟



- للأسف، بدأت رحلته قبل أن يلتقي بنا وتوغل في الغابة وحده.

التفت العجوز فجأة تجاه "مَرام"، ثُمّ قال لها وهو يحرّك سبابته في الهواء محذّرًا:

- لا ترحلي، وأسرعي خلفه فأنت تستطيعين دخول الغابة أما نحن فلا... هيا.

اقترب"الزاجل الأزرق" من الشيخ وسأله بإجلال:

- هلّا أخبرتنا أيّها الحكيم عن سبب ظهور اسم "أنس" في كتاب "هيلا" الخاص بـ"مَرام"؟

- كان لا بدّ من هذا، وربّما ستظهر صورتها في كتابه!

- لماذا؟

سحب "سامي كول" نفسًا عميقًا ثُم صمت حتى أنّهم ظنوا أنّه لن يتكلّم، ثمّ قال أخيرًا:

- ستخبرنا "مَرام" بنفسها يومًا ما.

كانت "الحوراء" تدرك شعور "مَرام"وشوقها للعودة لبيتها، سألت والدها وهي ترنو إليها بحنان:

- هل عليها البقاء وقد أدّت مهمتها؟ أظنها اشتاقت لأمها.
رفع الحكيم حاجبيه وقال:

- على الأقل تحاول اللحاق به وتعيده، لن يستغرق الأمر منها وقتًا طويلًا، ربّما ساعة أو ساعتين!

نهض "سامي كول" فجأة، قرر العودة لداره، يأبى البقاء في القصر، ويرفض الإقامة مع ابنته، حتى والمطر يهطل بغزارة صمم على الرحيل!

- لكنّك لم تخبرنا بأيّ شيء جديد! ما سبب ظهور اسمه في كتابي؟ ألست حكيم المملكة يا سيدي؟

قالتها "مَرام" بضيق، ودت لو وضّح العجوز شيئًا ما، فهي تود العودة إلى بيتها في الحال.

التفت الكهل بعينيه البلوريتين ثم قال موجها كلامه لـ"مَرام":

- سيكون طوق نجاة لكِ، وستكونين طوق نجاة له يومًا ما.

ثُمّ سألها:

- هل تدركين معنى كلامي يا "مَرام"؟

ابتلعت "مَرام" ريقها بصعوبة، ثُمّ قالت بصوت مهتزّ:

- في الحقيقة...لا!

لاح على شفتيه شبح ابتسامة، استدار وتركها وعلامات الخوف تتمشّى في وجهها.

التفتت "الحوراء" تجاه "مَرام" التي كانت تطالعها باهتمام شديد ممزوج بالتوتر، كانت تعصر كفيها وتتنفّس بصعوبة، رمقتها الملكة بنظرة تشي بالكثير وقالت لها:

- "مَرام" أعلم أن مهمتك قد انتهت، لكننا في الحقيقة نحتاج لوجودك معنا في المملكة لفترة وجيزة لمساعدتنا في هذا الأمر، فأنتِ تعلمين أننا لا نستطيع دخول الغابة، أمّا أنت فتستطيعين لأنّك محاربة.

زفرت "مَرام" بيأسٍ وقالت وهي تهزّ رأسها:

- وهل لي أن أقرر أو أختار؟ قد كان اليوم احتفالًا بانتهاء مهمتي وكنت على قيد أنملة من عودتي لداري!

رمشت الملكة بعينيها وقالت:

- للأسف...لن نستطيع السماح لك بالرحيل الآن.

مرّت "مَرام" بلحظة عصيبة قبل أن تقول:

- لكن لي طلب واحد.



- وما هو؟

- عند انتهاء الأمر ربّما أطلب منك شيئًا ما، وأريد منك أن تعديني بأن تحققيه لي.

- وما هو؟

- ليس الآن...

- أعدك يا ابنتي طالما الأمر في استطاعتي.

- حسنًا، والآن...ما المطلوب مني؟

اقترب منها "الزاجل الأزرق" وقال بنَبرة جادة:

- الأمر هام، وصل "أنس" وها هي رحلته على أرض مملكتنا قد بدأت دون أن يلتقي بنا، أخشى أن تختلط عليه الأمور ولا يميز بين النقيضين، وقد تخدعه المظاهر ويثق بأحدهم فيقع أسيره ويختل ميزان الحكم لديه فيسلب منه حق استرداد كتابه، ودورك أن تتبعيه في الغابة، وكما تعلمين لأنّك محاربة فأنتِ في أمان فيها أمّا نحن فلا، وعندما تلتقين به عودي معه إلى هنا بسرعة.

- حسنًا...ولكن!

- ولكن ماذا؟

- كيف سأعرفه؟ هلا وصفته لي.

- الحقيقة أنني....لا أعرف شكله...لقد رأيته من الخلف فقط، كل ما لاحظته أنّه طويل القامة وقوي البنية، ذراعاه مفتولا العضلات، كما أن لديه شعرًا فحميًّا قصيرًا، ويحمل على ظهره حقيبة جلدية، ويرتدي سروالًا سماوي اللون، لكنني لم أشاهد وجهه.

زفرت "الحوراء" بحنق وقالت:

- لحظة واحدة كانت فارقة.

نكّس "الزاجل الأزرق" رأسه وقال بخجل:

- أعتذر مرّة أخرى يا مولاتي.

أمسكت "الحوراء" بذراع "مَرام" وقالت:

- هيا يا "مَرام" إلى الغابة، لن نضيع الوقت.

في الحال، هرول "الزاجل الأزرق" تجاه فرسه وامتطاه بقفزة واحدة، صهل الفرس بقوّةٍ فأجابته الخيول بصهيل جماعي وكأنهم يستجيبون لأمره، انطلق المغاتير يصحبون "مَرام" نحو الغابة، حيث ستدخلها وحدها باحثة عن "أنس".





(٤)

"ناردين"

هنيئًا لهؤلاء الذين ينسون سريعًا، الذين لا تنطبع على نفوسهم بصمات الآخرين، ما زالت "ناردين" تشقى بقلب لين كالصلصال؛ كلّما لامسته روح أحدهم في موضع غاصت فيه احترق من حرارة تعلّقها بتلك الروح وجفّ ليحفظ تلك الذكريات، أصبح فؤادها كالقالب، ذكرى ذكرى منقوشة فيه، ندبة ندبة تتحسسها فتوجعها، نقوش تحكيهم، هؤلاء الذين عبروا من بين ضلوعها، ولن تفنى أبدًا تلك العلامات إلا بموتها، ليتها تنام طويلًا وتنسى كلّ شيء في الصباح.

نشأت "ناردين" في أسرة صغيرة من الفلاحين البسطاء، كانوا يعيشون في السهل الكبير الذي يتوسط قرى مملكة الجنوب التي تناثرت حولها تلك القرى وكأنّها حفنة من النجوم حول القمر، كانت القرى صغيرة وسكانها متشابهون لكنّهم متفرقون، لو استطاعوا ملء الفراغات بين القرى ببناء عدّة بيوت لاتصلت وأصبحت كيانًا واحدًا عظيمًا، أو حتى يحولونها إلى ممرات ويرصفون أرضها بالحجارة ويتنقلون بين القرى بالعربات، لكن لكل قرية معتقداتها ولسكانها طباعهم الخاصة، يقولون إنّ البعض حاول أن ينتقل من قرية لأخرى لكنّه لم يتمكن، أخبرها أبوها بأن هناك من لفظ أنفاسه الأخيرة على حدود قريته! وكأنّ روحه تأبى الخروج من الحدود، تستطيع أن تخرج وتعود للتجارة أو غيرها، أمّا أن تعقد العزم على هجران أرض القرية وتبيع دارك ثُمّ تحمل متاعك للرحيل فأنت هالك لا محالة، وكأنّها لعنة أصابت سكان المملكة جميعًا.

كانت صغيرة عندما استمعت لأنين الأشجار لأوّل مرّة في حياتها، في الخامسة ربما أو السادسة من عمرها، كان هذا عندما صحبها أبوها للغابة

ليجمع بعض أوراق النباتات العطرية التي يستخدمها في صناعة الأدوية والوصفات التي يبيعها في دكان العطارة الخاصّ به، أحبت "ناردين" جمع أوراق الريحان فقد كانت رائحته تعلق بملابسها وكفيها الصغيرين، كما كانت تفضل جمع إكليل الجبل نظرًا لأهميته الشديدة بالنسبة لأبيها، فقد أخبرها أنّ أوراقه تنشّط القلب، وشرابه الساخن يزيل الصداع ويعالج غازات البطن، كما أن زيته يفيد الأطراف المرهقة لو دلّكت به، أحبت رائحته التي تشبه رائحة الصنوبر، كانت أمّها تغلّف اللحم به أحيانًا قبل أن تقوم بشيّه، كان يضفي نكهة لطيفة للحم وكانت هي تحبّه كثيرًا، حتى أنّها دهنت بشرتها بزيته..كم كانت أمّها جميلة! لا تدري لماذا لا تشبهها. كانت تجمع الأوراق لأبيها وتحتفظ بالأغصان فقد أوصتها أمها أن تجمع بعضها لتحرقها في أركان البيت فلها رائحة عطرية جميلة، وبينما كنت تضع الأغصان في جراب من القماش كانت تلفه فوق خصرها سمعت هذا الأنين، انتفضت حينها وصرخت، ألقت الأغصان ووقفت تحملق فيها وهي تئن، استمر أنينها فأدركت أن الصوت صادر منها بالتأكيد، حملتها مرّة أخرى ومسحت عليها بحنانٍ كطفل رضيع فسكنت، وكأن بينهما وشيجة ما تربطهما! تفهم همهماتها وتفهمها.

دستها في جرابها وسارت بين أشجار الغابة فإذا بفروع الأشجار تنحني وتقترب منها، تلامس بشرتها بلطف وكأنّها تحييها ثم تعود لهيأتها، وعندما يقترب أبوها أو أحد رفاقه تسكن وكأنّ شيئًا لم يكن. أخبرت أباها لكنّه لم يصدقها، وأخبرت أمها فوصفتها بالمجنونة، تكرر الأمر وكانت تخبرهم فيسخرون منها فتوقفت عن إخبارهم بما تراه وتسمعه وتشعر به، وأصبحت تعشق السير في الغابة وحدها، حتى أنها أحضرت نبتة صغيرة من تلك الغابة ووضعتها في أصيص بدارها وصارت تحدثها كثيرًا وتخبرها بأسرارها، مرّت السنون ومات أبوها فجأة وبعده مرضت أمّها مرضًا شديدًا ثُمّ لحقت به، وتزوجت "ناردين" من شاب كان يعمل مع أبيها في دكان عطارته، أخبرته بأمر النباتات التي تحدثها فغضب وظنها مريضة وتهلوس بسبب الحمل، فبدأ يسقيها منقوع الزعتر والزنجبيل وداواها بخلطة مميزة قام بصنعها خصيصًا لها لكي تبرأ من الهلوسة فتوقفت عن الحديث معه عن أمر النباتات فعاد لحنانه وحبّه لها ونسي الأمر، أنجبت بعدها ولدها الوحيد وقتل زوجها في شجار عنيف وكانت لا تزال ترضع وليدها، انفطر فؤادها ولم تفلح في مداواة



جرح قلبها بالعطارة، لكنّها داوته بالحبّ والرضا، حب ابنها وقرّة عينها وشبيه أبيه فصبرت عليه طويلا طويلا.

مرت السنون ووهن العظم منها واشتعل رأسها شيبًا، وانحنى ظهرها وكبر ولدها وصارهو عكازها الذي تتوكأ عليه. ما زالت تذكر كلّ شيء، نظراتها إليها عندما أيقظتها صباح ذاك اليوم، نَبرة صوتها وهي تخبرها ببهجة مزيفة أن تستعد لأنهم سيخرجون لنزهة في البساتين المحيطة بالقرية كعادتهم معًا ويأكلون الحلوى التي تتقن صنعها بعد أن يتناولوا لحم الخراف المشوي المتبّل بإكليل الجبل كما تحبه، ضحكاتها المصطنعة وهي تضع سلّة التفاح في العربة الخشبية، حتى الحصانين المبرقشين كانا يحرّكان رأسيهما ويتلفتان إليها وهما على الطريق وكأنّها اتفقت معهما على الخطة، أخبرتها أن ولدها ينتظرها على أطراف البستان فصدقتها، وكيف تكذب زوجة ولدها عليها؟! وظلّت طوال الطريق تطالع مجاميع الأشجار الباسقة من نافذة العربة بتعجب، أي بستان ذاك الذي ارتفعت أشجاره والتفّت بتلك الطريقة!

لم يلحق بهم ولدها ولا أحفادها، لم يكن إلّا هي وزوجة ابنها تلك وسائق العربة السكير الذي كانت تفوح منه رائحة الخمر والقذارة، لا بدّ أنه قبض الثمن غاليًا، كان قرص الشمس يتوسّط السماء عندما وصلوا إلى ذاك الكوخ، كانت تسير ببطء وتتأبط ذراع زوجة ابنها بعدما ترجلا من العربة بينما كانت تهمس الأخيرة في أذنها بصوت يشبه الفحيح:

- أسرعي فأنا على عجل أيتها العجوز الشمطاء!

تخشّب لسانها في فمها فقد كانت تلك المرّة الأولى التي تخاطبها فيها بتلك الطريقة، حتى أنّها كانت تدللها وتناديها بأحبّ الأسماء أمام ولدها الحبيب!!

جلست على باب الكوخ تلتقط أنفاسها، أدبرت زوجة ابنها وهي تهرول تجاه العربة بعد أن ألقت السلّة أمامها وألقى السائق بجوارها خرقة من القماش جمعوا فيها ثيابها على عجل عندما كانوا بالبيت ولم تنتبه لهم، تركوها ورحلوا وبدأت تصرخ حتى احترق حلقها، سقطت الشمس والتقمها الأفق وبدأت ترتجف، أوت إلى الكوخ وهي خائفة، فانحنت الأشجار واحتضنت جدران كوخها وأظلتها بظلالها الوارفة والتفت الوشائج حوله من كل جانب، هدأت بعد أن أرهقها البكاء، وربط الله على قلبها بعد أن استعصمت به وصبرت.

ومرّت الأيام تتوالى عليها، صباحٌ يشرقُ على ليلٍ بهيم، وليلٌ يمهّد لإشراق عظيم.

ومنذ تلك الليلة وهي هناك، يمرّ الناس بعضهم يراها وبعضهم وكأنّه لا يراها، ما عادت تخاف، لكنّه الشوق! اشتاقت لرائحة ولدها، رائحة عنقه، رائحة عرقه، اشتاقت لأحفادها.

حاولت أن تعود وسارت طويلًا بين أشجار الغابة، حاولت أن تتذكر الطريق، مرّ وقت طويل منذ صغرها، كانت تنجح في الوصول لأطراف الغابة، ولكن في كلّ مرّة تصل فيها إلى الخط الحجري الفاصل بين أرض الغابة والأرض خارجها كانت وشائج الأشجار تتمدد وتطول وتلتف حول جسدها وتتلقفها قبل أن تخطو بقدمها خارج حدود الغابة، وكانت تحملها بلطف وتعيدها مرّة أخرى لذاك الكوخ، ترفض رحيلها! تعبت من تكرار المحاولة وما عادت تقوى على المسير.

هطلت أشجار الياسمين بزهراتها على رأسها وكأنّها تهاتفها ألّا تحزني، حتى العصافير كانت تحلّق أمامها على مقربة وكأنّها تؤنسها برفيف أجنحتها حتى تعود. كانت تفرك يديها بأوراق الريحان من آن لآخر وتشمها فتتعطّر روحها، حمدًا لله على تلك الروائح الزكية التي تخفف عنها..

" حسنًا حسنًا...لن أرحل يا أحبائي لكنني ما زلت أشتاق، وما أقوى هذا الشوق، أشتاق لرائحة ولدي الأزكى من رائحة الريحان"

همست بصوتها الحنون ووقفت تتأمل، مضى نصف اليوم حيث كنت تقف قريبًا من الكوخ تراقب انعكاس صورة وجهها على صفحة جدول الماء القريب، أصبحت صلعاء! صلعاء منذ فترة طويلة، رأسها لا يحمل شعرة واحدة، حتى حاجبيها تلاشيا، تساقطت رموشها! ظنّت أنها تخيف الناس بهيأتها تلك، كانت لا تعلم أنها جميلة حتى وإن أرهقتها السنون، عادت تهمس محدّثة نفسها:

"حمدًا لله أنني هنا فالأشجار ترعاني وتحبني وهذا يكفيني، أسمع أنينها وتسمع أنيني، أربت على جذوعها وتملّس أوراقها على وجهي".

هزّت رأسها وكأنّها شخص آخر ينصت إليها ويوافقها على كلامها، قد يبدو



حديث النفس بصوت مسموع نوعًا من الجنون، لكنّ "ناردين" كانت تتسلى بهذا من آن لآخر، تحدّث نفسها وتحدّث الأشجار، وتنصت إلى الرياح وما تحمله من حكايا... وربما تهمس لها ببعضها!!

اهتزّ سطح الماء فجأة فقد مرّ بجواره ذاك الشاب المشاغب الذي يدعى "شهاب" كان يركض كعادته بسرعة كالبرق، حيرها ذاك الفتى بحواراته من آن لآخر معها، يبدو معجبًا بنفسه للغاية، أحيانًا تراه مجنونًا وأحيانًا مشاكسًا وكثيرًا ما يبدو مغرورًا بنفسه. لم تنتبه لمن كان يلحق به إلّا بعد أن صدمها دون قصد منه فسقطتْ على الأرض وندّت منها صرخة مكتومة اهتزّت لها وشائج الأشجار وكادت تفتك به لولا أنّه توقف وانحنى يحملها وينفض الغبار عن ثوبها البالي وقال بحنان كانت تشتاق إليه:

- هل أنتِ بخير يا أمي؟

- أمي!!

خرجت الكلمة من فمه فوقعت من فؤادها موقعًا بليغًا، لم تسمعها منذ سنوات، اشتاقت لكونها أم، اشتاقت للهفة الأبناء عليها، اشتاقت لتلك اللذة التي كانت تقع في نفسها كلّما ناداها ولدها بها. رفعت رأسها تجاه وجهه وتفحّصته بتمعّن، كان من ذاك النوع الذي يأسرك فلا أنت تملك أن تصرف نظرك عنه ولا تملك أن تطيل النظر إليه، ليس شديد الوسامة لكنّه ساحر وجذّاب، قالت وهي تحاول استعادة اتزانها إثر السقوط بينما تتكئ على الغصن الغليظ الذي صار يلازمها:

- بخير يا ولدي.

- آسف، كنت أحاول اللحاق بـ....

- "شهاب".. اسمه "شهاب" ولن تستطيع يا ولدي اللحاق به فهو سريع جدًا.

- أتعرفينه يا أمي؟ أخبريني أين يسكن؟

كانت تستعذب منه كلمة "أمي"، أجابته وهي تتفحص ثيابه وتستغربها:

- يمرّ عليّ من آن لآخر، لكنني لا أعرف أين يسكن ذاك المغرور.

- أستأذنك فربما لو أسرعت الآن سأستطيع اللحاق به.

كاد ينصرف لكنّه استدار عندما قالت له:

- سيعود إليك حتمًا فأنت محارب.

غضن حاجبيه وقال بتعجب:

- هل قلتِ عني...مُحارب!

- نعم

- ولكنني لست محاربًا!

- بل أنت محارب بالفعل.

- ولم تقولين هذا؟

- ملابسك وحقيبتك وحذاؤك، هكذا تكون هيأتكم عندما تصلون إلى هنا، مرّ بعضكم عليّ من قبل، أنت محارب يا فتى.

- لا أدري من أخبركِ بهذا، لكنني.. لست إلّا مجرّد شابٍ عادي، ربّما أجيد بعض الفنون القتالية كالكاراتية، لكنني لست محاربًا!

ابتسمت له وسارت ببطء نحو درج حجري صغير غطاه العشب من الجانبين كان يفصل بين الأرض المجاورة لجدول الماء التي كانوا يقفون عليها والتلّة البسيطة التي يعلوها الكوخ الذي تسكن فيه وجلست عليه ثُمّ قالت له:

- متواضعٌ أنت يا فتى.

ثُمّ أومأت بيدها وأردفت:

- على العموم، ستكتشف نفسك هنا، على هذه الأرض ستعرف ما لا تعرفه عنها، ليس شرطًا أن تحارب بسيف أو سلاح، بعض المحاربين قوّتهم في ثباتهم على الحقّ وليس في أجسادهم القويّة.

- ماذا تعنين؟



- قوّة الروح، العزيمة يا بني، أرأيت كيف يقوى الكهل على صيام الهواجر ولا يقوى الشاب الفتي أحيانًا! هكذا تكون قوّة بعض المحاربين، قوة الإيمان، قوّة النفس يا بنيّ.

ثُمّ رمته بنظرة سريعة وتفحّصته من قمّة رأسه لأخمص قدميه ثم غاصت في عينيه وقالت له:

- لكنني أظنّك تملك القوّتين، قوّة الجسد، وقوّة الثبات على الحق إن شاء الله.

أغمضت عينيها للحظة لتقتنص فكرة ثُمّ أردفت قائلةً:

- انتبه لكتابك، ستظهر أوّل سطوره عندما تلتقي بأبطال قصّتك.

- وما أدراك بأمر الكتاب؟

- هكذا أخبروني هؤلاء الذين مروا من هنا.

وأشارت لصدرها وتحسست ضلوعها بكفها الضعيف وكأنها تمسح أوجاعًا التصقت به.

اقترب الشاب منها وأنزل حقيبته عن ظهره وأخرج الكتاب وفتحه باحثًا عن أي جملة ربّما تكون قد ظهرت على صفحاته الخالية، أغلقه ورفعه على صدره أمام عينيها فقرأت العجوز عنوان كتابه بصوت مسموع:

- إيكادولي..!! انتبه إذن وحافظ عليه وفور أن تلتقي بهما عليك أن تراقبهما، فهما في حاجة لمساعدتك.

- هما!!...ومن هما؟

- لا بدّ أنهما اثنان ولا ريب، فقصّتك تحمل عنوانًا لعبارة لا تقال إلّا بين اثنين، "إيكادولي"، وهي تعني أنا أحبك باللغة النوبية.

- قصة حبٍ إذن!

- بالتأكيد.

- وماذا بعد؟

- ستراقبهما.

- لماذا؟

- لأنّهما سيحتاجانك، ادعمهما حتى لا يقعا في الخطأ، فكل قصة وكل كتاب تعتبر دعامة للخير أو الشر هنا، ونجاحك نجاح لها يا.... أخبرني ما اسمك؟

- "أنس"

- يا له من اسم جميل، وأنا "ناردين"

- وما معناه!

- هو اسم نبات طيب الرائحة، بديع الشكل، لا ينبت هنا بل ينبت في أرض بعيدة، هكذا أخبرني أبي فقد كان عطارًا بارعًا وكان يسافر كثيرًا.

ابتسم بلطف ثمّ قال بعد أن تصفح كتابه مرّة أخرى:

- عفوا...هل سأقوم بكتابة شيء ما على تلك الصفحات؟ في الحقيقة أنا لا أُجيد كتابة القصص والروايات!

وضعت يدها على فمها لتخفيه فما عادت تملك أسنانًا تزين ابتسامتها، ثمّ قامت فقام "أنس" احترامًا وإجلالًا لها، وسار بجوارها فقالت له:

- لن تكتب أنت، لكنّ ما تراه بعينك وتعيشه سيظهر على السطور، فالكتاب لن يُطلق سراح كلماته لتستقرّ على السطور إلّا عندما يشعر أنّك تثق به، ثق في كتابك يا "أنس"، "إيكادولي" يثق بك وقد اختارك لأنّه يحتاجك، الكتاب يعاني صراعًا شديدًا فأعنه على ما يلاقيه من صعاب، لا تظهره لأحد، ولا تخبر أي شخص باسم الكتاب، كن حاذقًا واعلم أنّك ستعتمد على حصافتك وقوّة شخصيتك أحيانًا، ولو ادلهمّت الأمور ابحث عمّن يعينك.

- ومن أين عرفتِ كلّ هذا؟

- مرت سنون يا ولدي تعلّمت فيها الكثير والتقيت فيها بالعديد من البشـــر،



لابدّ أن يمرّ المحاربون من هنا.

وأشارت لضلوعها مرّة أخرى....

هزّ "أنس" رأسه ومسح جبهته وضغط بكفّيه على عينيه، وقال:

- ما زلت لا أستوعب الأمر، الأحداث تتسارع وتتوالى عليّ بسرعة، ترى هل من الممكن أن تدليني على قصر الملكة "الحوراء"؟

- ليتني أستطيع الخروج من الغابة!

- ولم لا؟

جاست بعينيها في المكان وقالت:

- الحقيقة أنا لا أعرف أين قصرها، ولم أرها من قبل.

- هل يمرّ المغاتير من هنا؟

صمتت برهة ثمّ ركزت عينيها في عينيه وقالت:

- أولم تلتقِ بأي شخص غير "شهاب" قبل أن تلتقي بي يا بنيّ؟

- لا...كنتِ أنت أوّل من رأيته بعد "شهاب"

ثُمّ سألها بقلق:

- بعد استعادة الكلمات في هذا الكتاب، هل سأعود؟

- بالتأكيد.

شعرت بانقباضة في صدرها، خافت عليه وكأنه قطعة منها فقالت تحذره:

- احذر "المجاهيم".

- ومن هم "المجاهيم"؟

قالت بعد أن أمسكت بذراعه:

- قوم وجوههم كالحة، يسلبون الناس أنفسهم وأنفاسهم.

رفع "أنس" حقيبته على ظهره مرّة أخرى، ونظر إلى السماء ثُمّ قال:

- ذاك الصقر "الرمادي".. أين هو الآن؟

كادت تجيبه لكنها اكتفت بتأمل ملامحه، عيناه مألوفتان! وكأنها تعرف تلك المقلتين البندقيتين ورأتهما من قبل!. كان حديثها معه قد أضاء الكثير من الدهاليز المظلمة، سار شاردًا بجوارها نحو كوخها، قررت أن تمده بملابس أخرى غير تلك التي كان يرتديها حتى يتسنّى له التجوال في المملكة وكأنّه واحدٌ من أهلها.

ترك "أنس" حذاءه الغريب كما وصفته "ناردين" وارتدى حذاءً رآه هو غريبًا! لكنّه مجبر على ارتدائه، وبَدَّلَ بنطاله السماوي وارتدى سروالًا وقميصًا من الكتّان الأزرق،كانت الملابس تناسبه تمامًا وكأنها قد خيطت خصيصًا له، لم يجد أزرارًا لقميصه فلفّ خصره بحزام عريض من القماش وأخرج خنجره ذا المقبض الذهبي ودسّه في حزام بنطاله من جهة الظهر وأسدل عليه القميص حتى لا يلاحظه أحد، لم تشعر "ناردين" بالخوف منه عندما لاحظت الخنجر ومقبضه المذهّب! أعطته حقيبة من القماش كانت تعلّقها بكتفها وهي تجمع أوراق الأشجار والنباتات العطرية ليحمل فيها متاعه، ومنحته حفنة من الريحان وبعضًا من إكليل الجبل، كان ممتنًا وكأنها أعطته كنزًا، ودت لو بقي "أنس" قليلًا لكنه كان متعجلًا. صاحت وهي تراقبه وهو ينساب بين أشجار الغابة:

- تجول في القرية وتأمّل كل ركن من المملكة، وافتح كتابك من آن لآخر، إن ظهرت أوّل الكلمات فاعلم أنّك التقيت بأبطال القصة، فالأحداث تتم هنا بمشيئة الله، وما زلنا لا نعرف النهاية!

استدار وأومأ برأسه وحيّاها بابتسامة عذبة ثم لوح لها مودعًا، رفعت العجوز يدها وأغمضت عينيها وتنفّست بعمق ثُمّ طرقت الأرض بالغصن الذي تتكئ عليه فانتفضت الأشجار، وارتجّ السهل وما حوله، وصدر من الأرض دوي مكتوم أفزع الطيور فحلّقت بعيدًا عن الأشجار.

سار "أنس" على نحو بطيء وسط الغابة، فهو لم يعتد انتعال حذاء مصنوع بتلك الطريقة من قبل، كان يشعر أنّ للأشجار عيونًا، وكأنّها تراقبه!



كان يراقب السماء من آن لآخر يخشى أن يهبط عليه الليل وهو وحيد في تلك الغابة، قرر أن يحاول الركض لعلّه يصل سريعًا إلى أطراف الغابة، بدأ يركض وبينما تنطوي الأرض تحت قدميه شعر وكأنّها تحوّلت إلى بساط وبدأت تدور وتتكور تحت ساقيه ثُمّ انشقت فجأة فتعثّر وسقط على ركبتيه ليظهر أمامه زمرة من الرجال طوال القامة لا ملامح لهم! كان يتقدمهم واحدٌ منهم وعليه برنس أسود تتدلى منه ثلاث جماجم صغيرة، تراجع "أنس" بينما كان ذاك الشبح يتقدم تجاهه، نعم.. كان يشبه الأشباح، هذا ما وقع في نفس "أنس" وهو يحملق في تلك الظلمة التي تحتلّ وجهه، وكأنّ الظلام ارتدى برنسًا ووقف أمامه!

رفع الشبح يده إلى السماء فشعر "أنس" وكأنّ صدره يصعّد في السماء، خرجت أنفاسه واصطبغ وجهه بالزرقة وما عاد قادرًا على سحب شهيق يتشبث به في الحياة، ارتفع جسده في الهواء وانثنى وكأنّ هناك من يحمله، كاد الشبح يقتله بعد أن أداره في الهواء وجعل وجهه مقابلًا للأرض لولا القلادة التي تدلّت من عنق "أنس" فجعلته يخفض يده فجأة ويسقط "أنس" على الأرض وهو يسعل ويشهق شهقات متتابعة، دار ذاك الكائن حول "أنس" وانتظر حتى هدأ سعاله ثمّ خرج منه صوت غليظ رنان وكأنّه خرج من مقبرة وسأله:

- أنت محارب؟

ردّ "أنس" بصعوبة وقال:

- نعم... أنا محارب.

- من أين لك بتلك القلادة؟

- أعطاها لي جدّي

قال الشبح بصوت فيه إجلال:

- "أبادول"؟

عندما سمع البقية زعيمهم ينطق باسم "أبادول" وضعوا جميعًا أيديهم على صدورهم وأحنوا رءوسهم وهم واقفون احترامًا له! يبدو أنّهم جميعًا

يعرفونه، لاحظ "أنس" ما حدث فتحامل وتجلّد وقام يستند على جذع الشجرة التي كانت بجواره، وسأله وهو يتحسس القلادة على صدره:

- أوتعرف جدي؟

- كلّنا نعرفه، وله فضل كبير على استرداد مكانتنا بين باقي الشعوب.

ثُمّ أشار إليه بإصبع وسأله:

- ما اسمك؟

- "أنس".

- ما اسم "كتابك"؟

تذكّر "أنس" وصية العجوز "ناردين" له ألا يخبر أحدًا باسم كتابه، فرد محاولًا أن يتجاوز السؤال:

- لماذا لا أرى ملامحكم؟

- ليس الآن، ستراها يومًا كما رآها جدّك "أبادول".

عندما كرر الزعيم اسم "أبادول" كرر كل من معه ما فعلوه أوّل مرّة بإجلال وتقدير، وفعل هو كما فعلوا وضمّ يده إلى صدره وأحناها في هيبة وكأن الجدّ يقف أمامه، قال بعد أن رفع رأسه تجاه "أنس" الذي كان يحملق في تلك الظلمة التي تتحدث إليه ولا يعرف كنهها:

- امض يا "أنس" فأنت في أمان حتى تخرج من الغابة، واحتفظ بالقلادة، وكلّما مررت من هنا أظهرها وأنت تسير حتى يعرفك "المجاهيم"[١].
همس "أنس" برهبةٍ وقد كانت دقّات قلبه تتواثب في أسفل عنقه:

- المجاهيم! ومن أنتم أيها المجاهيم؟

١ - رجل جهم الوجه أي كالح الوجه، ومعنى جهمه جهمًا أي استقبله بوجه كريه، ولقب المجاهيم يطلق على بعض أنواع الإبل النجدية السوداء ، كبيرة الحجم وضخمة العظام، تتحمل الظروف القاسية بكل تضاريسها وتحولاتها المختلفة



التفت إليه زعيمهم وقال قبل أن تبتلعه الأرض:

- اسأل جدّك فهو من أطلق علينا ذاك اللقب بعد أن ألبسناه تلك القلادة.

اختفى "المجاهيم" تمامًا، وعادت الأرض تتكوّر تحت قدمي "أنس" فانطلق يكمل ركضه حتى حدود الغابة آملًا أن يخرجِ منها قبل حلول الظلام ويصل إلى القرية التي أخبرته العجوز "ناردين" عنها، فهو لا يعرف تحديدًا كم تبلغ المسافة.



(٥)

"كلودة"

خرج "أنس" من الغابة يبحث عن "شهاب"، من بعيد بدأت تطلّ أمام عينيه القرية التي حدّثته عنها العجوز "ناردين"، دلف القرية يفتّش بين الوجوه عن وجه "شهاب"، مرّ بحانوت بدا وكأنّه لبيع الأغراض القديمة، بعض الأوعية النحاسية، وأخرى فخارية، والكثير من الملابس، لكنّ ما جذب انتباهه ركن تكدّست فيه الكتب العتيقة فوق بعضها البعض بإهمال، الكثير من الكتب كانت بلا أغلفة، مهترئة الأوراق وملتفة الأطراف، ولكنّ القليل منها كان بحالة جيّدة. أوراق صفراء وأغلفة باهتة من الجلد المدبوغ والكثير من العناوين الغريبة. كان هناك شاب نحيل جدًا، أقنى الأنف، له حاجبان مقوسان كأنهما هلالين، تبدو عليه أمارات الذكاء، نابه العينين، يجمع خصلات شعره الفحمي خلف رأسه برباط بلون أحمر فاقع، كانت أصابعه مصبوغة بنفس اللون فخمّن "أنس" أنّه ربّما يعمل في صباغة الأقمشة، وقف الشاب ينظم الكتب ويرتبها ويتفحصها بعناية ثُمّ يرفعها وينفخ عنها الغبار ويمسحها بطرف كمّه بحرص شديد، كان صاحب الحانوت يقف ببطنٍ عملاقٍ رجراجٍ ويطالعه بازدراء حيث قال:

- لولا أنّك تنظّم الكتب وترتبها في كلّ مرّة تزورني ما تركتك تدلف للحانوت بحذائك المهترئ أيها البائس.

التفت إليه الشاب وقال في حرج:

- اهدأ يا رجل، أتيتك هذه المرة ببعض المال، سأشتري كتابًا

- يا للهول! ومن أين لك المال أيها الحثالة؟

- من كدّي ومن عرق جبيني!



تركه صاحب الحانوت بعد أن تسببت كلماته في التفات جميع من بالحانوت لحذاء الشاب المهترئ، بعضهم قام بالهمز واللمز وتعالت بعض الهمهمات من هنا وهناك، لماذا يهتم هذا البائس بالكتب!

حرّك صاحب الحانوت يديه بلا مبالاة وعاد ليجلس على الباب يحكّ رأسه وقد تدلى أمامه بطنه الكبير، واختنقت أنفاسه بسبب سمنته المفرطة فتصاعد من صدره أزيز مزعج كلّما تنحنح أو بذل مجهودًا بسيطًا، وبدأ يراقب النساء في السوق وهن يقلّبن أكوام الملابس المتكدّسة والتي تبعثرت هنا وهناك.

اقترب "أنس" من الشاب وحيّاه بصوت خفيض، فردّ الشاب تحيته باقتضاب بعد أن استقرت عيناه على وجه "أنس" للحظات وكأنّه يحاول التعرّف إليه، عاد الشاب يقلب الكتب وينفض عنها الغبار ويمسحها بطرف كمه، التقط "أنس" كتابًا له غلافه جوزي اللون مشبوح بلفحات خضراء وقال وهو يتصفحه:

- لا يدرك هذا الرجل قيمة تلك الكتب..أليس كذلك؟.

مرّ الشاب على وجهه بسرعة بعينيه الكليلتين ثم عاد لصنيعه بالكتب ولم ينبس ببنت شفة، قرأ "أنس" عنوان الكتاب الذي بين يديه بصوت مسموع قائلًا:

- الإكثير

- نعم..الإكثير!

- أعتقد أنني أعرف معناها، ربّما قرأت عنها من قبل!

رفع الشاب حاجبية وقال باهتمام:

- تعني الذهب الخالص، وهو كتاب رائع.

- يبدو أنّك تحبّ القراءة.

لاحت على وجهه ابتسامة وقال وقد ضوى بريق في عينيه:

- أنا أتنفس الكتب!

- اسمي "أنس"

حرّك الشاب رأسه تجاه "أنس" الذي مدّ يده إليه ليصافحه وطالعه بانتباه وقد اتسعت حدقتاه، سريعًا ما كست وجهه علامات البشر، مدّ يده المحمرّة من أثر الصباغة وصافحه بودّ، شعر بانتعاش لمجرّد اهتمام أحد ما به، تهلل وجهه وابتسم فكشفت ابتسامته اللثام عن أسنان ناصعة البياض وروح عذبة، يبدو أنّه يعاني من تجاهل الجميع له، قال بصوت مرتجف:

- وأنا " كلودة" أنت غريب عن المملكة، أليس كذلك؟

- بلى

- لهذا إذا تعاملني بودّ!

- وما العيب في ذلك؟

- لو عرفت قصّتي ما صافحتني كما صافحتني منذ قليل

- ولم لا!

هز الشاب رأسه وابتسم ساخرًا ثمّ التقط كتابًا ومد يده في جيب بنطاله وأخرج حفنة من النقود ودسّها في كفّ صاحب الحانوت وخرج مسرعًا، شيّعه صاحب الحانوت السمين بصوته الأجشّ بالمزيد من السخرية من حذائه ويديه الحمراوين، وبالمزيد من الألفاظ البذيئة.

تبعه "أنس" وصاح مناديًا عليه:

- "كلودة" انتظر

التفت "كلودة" إليه وقال متعجبًا:

- ماذا تريد أيّها الغريب!

- هوّن عليك يا فتى، كنت أبحث عن صحبة، فأنا أشعر بالغربة هنا.

- أين أهلك؟



- أنا وحدي هنا، أحاول الوصول إلى صديق التقيت به أمس، فهلا ساعدتني في البحث عنه؟

استدار "كلودة" وسار عدّة خطوات بتؤدة وقد أحنى رأسه وكأنّه يفكّر، ثُمّ التفت لأنس وأشار إليه فلحق به وسارا معًا لفترة وجيزة قبل أن ينحني بهما الطريق إلى ساحة واسعة، يتوسّطها مجموعة من التجار وقفوا يعرضون بضاعتهم استعراضًا أمام الجميع، بسط أحدهم ثوبًا من القطيفة الحمراء على ذراعه وكتفه ووقف ينادي واحتشدت حوله النساء كلّ منهن تتحسس طرف الرداء بكفّها وتحملق فيه ثمّ تسأل عن الثمن، لم يملّ من تكرار الرد، بدت النساء مسحورات كلّ منهن تشتهي أن يكون الرداء لها وزاغت أعينهن وهن يتخيلن أنفسهن أميرات يرتدينه. وجلس آخر على الأرض وقد صفّ أمامه أباريق من الزجاج الملون بديعة الشكل انعكست عليها أشعة الشمس الحانية فزادتها تألقًا وجمالًا، أما الثالث فكان يبيع العطور في زجاجات صغيرة مزيّنة بالنقوش، بدا وكأنّ هذا السوق للأثرياء فقط. أشار "كلودة" إلى الجهة الأخرى من الميدان الفسيح لينتقلا إليها وقال لأنس:

- ما اسم صديقك؟

- في الحقيقة.. كنت أتبع شابًا يدعى "شهاب"

- "شهاب"!.. إذن أنت محارب.

- يبدو أن الأمر مألوف لديكم.

- بالتأكيد.

- إذن، هلّا ساعدتني، أودّ أن أصل إلى قصر الملكة "الحوراء"

- لا أعرف الطريق إليه!

- هل سمعت عن "المغاتير"؟

- سمعت لكنني لم ألتقِ بهم من قبل!

- لكنّك تعرف "شهابًا" أليس كذلك؟

- ومن منا لا يعرفه!

سارا معًا كتفًا بكتف، ثُمّ قال "كلودة" بعد فترة وجيزة:

- سنمرّ أولًا على الطبيب، سأشتري دواءً فأنا مريض.

- شفاك الله.

حرّك "كلودة" رأسه ممتنًا واخترقا معا ذاك الحشد الكبير وبخطى سريعة وصلا إلى عدّة بيوت متلاصقة ذات أسقف منخفضة، طرق "كلودة" باب بيت منهم ففتح له رجل أربعيني تكسو وجهه ابتسامة واسعة سريعًا ما رحب بهما ودعاهما للدخول، على أريكة من الخشب جلسا يراقبان حركته البطيئة بردائه الطويل والواسع الأكمام وقد انتشرت حوله على الطاولات والرفوف زجاجات الدواء، قال الطبيب بصوت متحشرج بسبب صمته الطويل قبل أن يدخلا إلى بيته المتواضع:

- أعددت لك الدواء منذ أسبوع لكنّك تأخرت.

- عفوًا سيّدي لم أتمكن من الحضور لسبب خاصّ.

- أخبرتك أكثر من مرّة أنك تحتاجه لتتحسن حالتك المزاجية والذهنية، أما زلت مشتتًا وترى تلك الكوابيس؟

- نعم..أراها كلّ ليلة.. ولكن.. سيدي، ألن أشفى من مرضي هذا؟ هل سأظل هكذا؟

- للأسف يا "كلودة" لم أسمع عن حالة مماثلة عادت لما كانت عليه، كلّ من أعرفهم يستمرون على هذا الحال حتى...

وقف "كلودة" واثبًا وكأن هناك من وخزه بإبرة بعد أن نقّد الطبيب قيمة الدواء وخرج من باب البيت كطلقة المدفع، تبعه "أنس" بخطوات واثبة، بدا جليًّا أن "كلودة" حزين وغاضب، وكان هذا ما وقع في نفسه منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها، روح متعبة لشاب بسيط تفتش بين الكتب عمّا يسلي الفكر ويجبر خاطر النفس المكسورة كحال الكثيرين، يهرب بالقراءة من واقع مؤلم فيعيش بين الكتب ويتنفس الكلمات، تردد "أنس" بين أن يتركه لحاله ويعود



فهو في حالة لا تسمح له بمجاراته في أحاديثه الودية، وبين أن يتحمّله قليلًا ويسير معه على الأقل حتى بيته ليعرفه، لكنه قرر أخيرًا أن يفارقه وسيسأل غيره، التفت عائدًا من حيث أتى، فإذا بـ"كلودة" ينادي عليه ثُمّ يقول:

- عفوًا سامحني، سأسير معك لأخرجك من القرية.

- لماذا؟

- ألم تسأل عن "شهاب"؟ هو يقيم بالغابة، لا بدّ أن تعود، ظننتك لا تعرف الطريق إلى الحدود المقابلة للغابة، هيّا وسأسير معك.

سار "كلودة" مهمومًا بجوار "أنس"، كان "كلودة" يحب ابنة عمّه "أشريا" حبًا جمّا، لكنّه لم يملك سمات الشخصية التي تتمناها وتحلم بها، كان يعشق اسمها، وملامحها، ودارها، والدار التي بجوار دارها، والطريق إليها، والجدران التي تستند عليها، والهواء الذي تتنفّسه، طلبها للزواج مرارًا وتكرارًا وكانت تأبى، لم ييأس وكان يعود فيطلبها مرّة أخرى من أبيها، ومرّت الأيام تشدّ بعضها بعضًا ومات أبوها وما زال قلبه على العهد.

كان عندما يستبد به ألم جرح قلبه يخرج للبساتين القريبة من بيته والممتلئة بأشجار البلوط العملاقة، فيجمع أوراق النباتات العطرية ويردد الأذكار وأحيانًا يدندن بالأشعار، ويتصبّر بخلوته مع الطبيعة الخلاقة، تغيّرت أخيرًا وصارت تضع له الشروط واحدًا تلو الآخر، لو بنيت بيتًا كهذا ربّما أوافق، لو توقفت عن فعل كذا ربّما أوافق، لو..لو..

وكانت تمتنع عن الكلام معه وتكلّف أمّها بالرد عليه. كان ذاك الهوان الذي يصيبه بسبب حبّه لها يظهره ضعيف الشخصية أمامها، وكانت هي تطمح إلى الزواج بشاب قوي الشكيمة تعتمد عليه. لم يكن هناك من يوجهه أو ينصحه ليتجمّل ويتصنع ويتخلّى عن تلك العفوية التي يعاملها وأمها بها فقد أساءت فهمه، فهو وحيد بلا أب أو أم، وليس له شقيق يشد عضده، بينما يسيران ويتبادلان أطراف الحديث سأله "كلودة" بفضول:

- هل عرفت الحب يومًا؟

- لا...لم يطرق الحبّ قلبي بعد، لم ألتق بمن تخطف روحي حتى الآن.

رد "كلودة" بتأثّر:

- أمّا أنا فلقيتها.. وليتها ما خطفت روحي!

وصلًا أخيرًا إلى الحدود، حيث كان هناك فاصل حجري يحيط بالغابة، تخطّاه "أنس" والتفت تجاه "كلودة" متسائلًا عن سبب وقوفه واجمًا كما كان يفعل:

- ما بك يا "كلودة؟

- لم أدخل الغابة من قبل! يقولون أن من يدخلها يختفي للأبد ولا يعود.

استدار "أنس" وطالع مجاميع الأشجار أمامه وقال:

- أوتظن هذا فعلًا؟

بقي السؤال معلّقًا في الهواء حتى التفت إليه "أنس" ومدّ يده ليصافحه، فمال "كلودة" وكأنّه يخشى أن يتعثّر فتمسّ قدمه الخط الفاصل، اهتزّت الأرض فجأة وتأرجح كلاهما فوجد "أنس" نفسه يجذب ذراع "كلودة" دون قصد منه فدخل الأخير الغابة، ابتسم "أنس" بتوتّر وقال له:

- أرأيت، ها أنت هنا ولم يحدث لك شيء!.

شعر "كلودة" برهبة تجتاح جسده، كان يترقب أن يحدث شيء ما! لكنّ الأمر بدا آمنًا كما يبدو!! سار مع "أنس" وانطلق معه يتوغلان في الغابة، وعيناه تطفحان فضولًا. مرّا بجدول ماء فانحنى "كلودة" وغسل كفّه ثُمّ شرب منه...

"سبحانك سبحانك، ما أعذب الماء. ماذا لو لم يكن هناك ماء! كيف كنا سنرتوي، كيف كنا سنبلل ألسنتنا لنسبحك! حمدا لك يا ودود."

هكذا همس "كلودة" وهو يسير، كاد يسأل "أنس" كيف أتى إلى هنا ليسمع منه بالتفصيل، لولا الضربة التي باغتته فجأة وهو يمشي معه والتي

صاح على إثرها متضرعًا إلى الله وهو يتوجع:

"سبحانك سبحانك، اكفنا شرهم واجعل كيدهم في نحرهم"



بينما كان "أنس" يصارع رجلا ضخم الجثّة له وجه قبيح، لاحقه الآخر بعصاة غليظة وصوت أجش ووجه مقبّح، استسلم "كلودة" حتى يتوقف عن ضربه لكنّه لم يتوقف، ضربة على كتفه، والأخرى على ذراعه، والكثير على ظهره حتى شعر أن جسده تخدّر من الألم، قيّده ذاك الفحل المقبّح بالحبال بسرعة، ما زال "أنس" يصارع القبيح، كان يوجه ضرباته لأماكن متفرقة مواجهًا القبيح بجسارة وكأنّه لا يخافه، لم تند منه صرخة ألم، لكنه كان يصيح بقوّة، تارة بيديه وتارة بقدميه، ود "كلودة" لو كان مثله، وصلت حفنة من "البغضاء" وأمسكوا بـ "أنس"، فالكثرة تغلب الشجاعة، ضربوا "كلودة" على رأسه بشدّة ففقد وعيه، قيدوهما بعد أن سلبوهما متاعهما، كان كل منهما يملك كتابًا، "أنس" بكتابه "إيكادولي" في حقيبته، و"كلودة" بكتابه الذي اشتراه من الحانوت قبل أن يدخلا الغابة، بصق القبيح على وجه "أنس" وكاد يقتله لولا المقبّح الذي صاح وهو يمسك بكتاب "أنس" بعد أن أخرجه من الحقيبة القماشية التي أعطتها له السيّدة "ناردين":

- انظروا، كتاب غريب وخالٍ من الكلام!

تمشت علامات الرهبة على وجوههم الكالحة، التفوا حول المقبّح وتصفحوا الكتاب وقرأوا عنوانه، عادوا ينظرون لـ"أنس" بارتياب وقال أحدهم هامسًا حتى لا يسمعه "أنس":

- يبدو أنّه محارب جديد، فلنأخذه لقصر الملك "كِمشاق"

رد آخر:

- نطلب المال أولّا قبل تسليم المحارب والكتاب.

قال القبيح:

- فلنقتله، ما حاجتنا إليه!

رد المقبّح وهو يحك شعر رأسه:

- ربما كان له ثمن فنحن لا نعلم كيف تسير الأمور، سمعت أنهم يعلقونه من قدميه ويثقبون قلبه وعندما تسيل الدماء يجمعونها في قوارير ويكتب الكاهن القصة في الكتاب وتنتهي أحداثها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

كان "أنس" يراقبهم ويبحث بين أياديهم عن كتاب "كلودة"، أين اختفى!! اقترب أحدهم من "أنس" برأسه ونظر في عينه وقال بتوعّد رافعًا صوته الأجش:

- سنقتلك أيها المحارب.

رائحة أنفاسه الكريهة التي فاحت من بين أسنانه النخرة والمسوسة كادت تخنق "أنس" لولا نسمة هواء باردة مرّت فحملتها بعيدًا عن أنفه، قال بصوت حاول أن تكون نبرته قويّة:

- وما أدراكما أنّني المحارب!

همهم البغضاء وقال أحدهم:

- هل رأيتم الرمز؟

- وما ذاك الرمز؟

- سمعتهم يقولون أن للمحاربين رموزًا! فلنبحث عن الرمز!

أطبق "أنس" فمه وجلس يراقبهم وهم يفتشون حقيبته وملابسه، زمجر القبيح غضبًا وأمسك بالخنجر ذي المقبض المذهّب وكان قد أخرجه من ثيابه وكاد يذبح به رقبته، حملق في وجهه بسحنة متوعدة ثُمّ عاد خطوة للخلف، ران عليهم صمت مهيب وتنقلوا بأعينهم بين الشابين، خلصوا نجيًا وابتعدوا وبدأوا يتحدثون همسًا حتى لا يسمعهم، كان "كلودة" لا يزال فاقدًا لوعيه، عادوا واقتربوا منهما ثُمّ لطمه ذو الأنفاس الكريهة على وجهه وقال بعد أن جذبه من شعر رأسه:

- سنقتلكما معًا بعد أن نقبض الثّمن.

رحل بعضهم وبقي ثلاثة يحرسونهما، ومرّت لحظات ثقيلة، لم يسمع "أنس" حديثهم عن الملك "كِمشاق"، لم يدرك أنه يسير تجاهه دون أن يشعر.

❒❒❒

(٦)

"نَبرة"

أسدل الليل عباءته السوداء على المملكة فغرقت في ظلام حالك. كان القمر يتحرّك ببطء كالشبح في السماء، وكانت الغربان تقف على شرفات القصر المكون من عدة طوابق، بدا البناء ضخمًا مهيبًا يشبه الجبل، أعلاه ضيّق، وأمّا الطابق السفلي فكان عريضًا وواسعًا جدًا. وثبت الأميرة "نَبرة" من فراشها ودفعت النافذة بعنف ثُمّ طالعت السماء بنظرةٍ خاطفةٍ، كانت تتمتع بخفّة العصفور، وكبرياء الطاووس، لعينيها الكحيلتين بريق عجيب يشبه بريق عيني القطط في الظلام! من يراها بجملة النظر من بعيد يصور له وكأنّ عينيها جوهرتان! كانت "نَبرة" تدرك أنها جميلة، لكنّها كانت دائمًا كالقدر الذي يغلي فيه الماء بجنون. التفتت صارخة في وجه خادمتها بحنق شديد لكي تجهّز لها ملابسها وتعينها في زينتها. قالت بتسلّط:

- هيا، أمامك عملٌ طويل، أُريد أن أخطف الأنظار الليلة.

غمزت الوصيفة بمكرٍ واقتربت منها ثُمّ قالت:

- أنتِ لا تحتاجين لزينة يا مولاتي.

ألبستها الوصيفة رداءً أحمر اللون يُظهر أكثر مما يستر، فتحت "نَبرة" صندوق زينتها وتخيّرت ما يناسبها من جواهر، ودهنت شفتيها بصبغ أحمر قانٍ يناسب بشرتها السمراء، ثمّ استرخت في مقعدها وأسلمت رأسها للوصيفة التي بدأت تمشّط شعرها بحرصٍ شديد، بعد لحظات كانت تهبط على الدرج وكأنّها القمر ينحدر على سحب السماء.

بخطى سريعة كانت تدق الأرض وكأنّها على وشك دخول حرب مع شخص ما، اتجهت إلى غرفة أخيها الذي كان متكئًا على أريكة وثيرة وبجواره صديقه

"حليم" الذي كان يرفل في ثياب فخمة تليق بمنصبه، والذي مرّت عيناها عليه وكأنّه كتاب ممل لا تودّ قراءته، هي لا تحبّه، لم يفلح في الدق على أوتار قلبها رغم عشقه الشديد لها، أمّا هو فأقبل عليها بنظراته وكأنّه يودّ التهامها بعينيه، وجّهت نظراتها نحو أخيها قائلة:

- رأيت الرمز مرة أخرى، هناك محارب على أرض المملكة.

- أين هو بالتحديد.

- لا أعرف المكان للأسف.

ابتسم "حليم" وقال بلطف وهو يطلب ودّها:

- سأرسل رجالنا ليبحثوا عنه فلا تجهدي عقلك الجميل بالبحث عن مكانه، أرى أنّه من المتوقع أن يكون في مملكة الشمال الآن.

على عكس مراده.. استفزتها كلماته فكزّت على أسنانها واستدارت مقتربة من المدفأة ورفعت كفيها نحوها تستمدّ منها الدفء ثُم قالت بتنمّر:

- أرى..أرى..!! ومن أنت حتى ترى!، ما شأنك أنت؟ أنت مجرّد ضيف ثقيل!

اهتزّ القدح الذي كان بين يدي "حليم"، سقط الشراب على ملابسه فوثب من مكانه ثُمّ وضعه على المائدة والتفت غاضبًا نحو أخيها "كِمشاق" الذي رمقه بنظرة واثقة وقال له:

- دعك منها يا "حليم"، إنّها مجنونة.

كانت "نَبرة" دائمًا غاضبة، لديها لسان كحية قرمزية داعرة تنفث سمومها في وجوه الناس، أدارت رأسها بعصبية ورمقته بمكر ثُمّ قالت:

- أُشبهك كثيرًا يا أخي.

رفع كفّه مشيرًا للوصيفات ليخرجن من الغرفة، واقترب منها وسألها بغلظة:

- أين أختك "أُونتي"؟

قالت بسماجة:



- الحمقاء، نامت مبكرًا كعادتها.

اقترب "حليم" وقال:

- لا أدري لماذا تختلف "أُونتي" عنكما!

ثم أضاف:

- حتى أنها لا تعرف أي شيء عن الأخطار التي تتهددنا!، تتبسّط مع الجميع وكأنّها ليست أميرة! ربّما لقلّة نضجها وعمرها فهي تصغرك بسنوات يا "نَبرة"

ثُمّ ارتبك "حليم" فقد شعر أنه بآخر كلماته قد استفزّ الأميرة "نَبرة" التي هزّت كتفيها وقالت:

- لأنّها حمقاء... مثلك.

أصبح جو الغرفة متوترًا، وأراد "كِمشاق" أن يلطف من الأجواء فقال بهدوء:

- فلنهدأ قليلًا يا رفاق، ليس هذا وقت المشاكسة.

كان "حليم" في الثامنة والعشرين من عُمره، كانت صداقته للملك سببًا في تغيير مسار حياته، فهو فارس مقدام شجاع وشاب ذكي وحاذق، ولمّا رأى الملك منه هذا كشف الأوراق أمامه وعقد معه صفقة، فطرح "حليم" فيها شروطًا لم يتحصّل عليها كاملة بعد مقابل ولائه الكامل له، لم تكن "نَبرة" من ضمن الصفقة! لكنّها صارت هدفه الذي يسعى وراءه فهو يتمنّى رضاها، يحبّها بشغف وجنون، يرغب بها، وهي تتمنع وترفض. وكان "كِمشاق" يعلم عشقه الشديد لها ويستغلّ هذا لمصلحته، فصار "حليم" عونًا له على الحكم وعلى اصطياد المحاربين ومحاولة السيطرة عليهم لخدمة أفكاره السوداء، كان "كِمشاق" يعربد بلا حساب، أطلق العنان لشهواته، خمرٌ ونساءٌ ولهو، غارق في الشهوات حتى أذنيه، أمّا "حليم" فحبس نفسه عليها، ولم تنجح أنثى في اختراق شغاف قلبه، وبقيت "نَبرة" الفاكهة المحرمة التي لا يجرؤ على مساسها حتى الآن.

جلست "نَبرة" أمام أخيها "كِمشاق" ووضعت ساقًا على ساقٍ وقالت بمرارة:

- لا بدّ أن نقضي على هذا المحارب بسرعة.

اقترب منها "كِمشاق" وقال بتوتّر:

- هل رأيتِ وجهه؟

- لا...ليس بعد.

- هل فقدتِ مهاراتك؟

قالت بعصبية:

- لا...اختفت فقط بومتي العزيزة؟ لم أرها الليلة! كلّما حاولت أن أرى شيئًا لا أرى إلا الظلام!

كانت "نَبرة" تفخر دومًا بتلك الموهبة التي حباها الله بها، لكنّها لم تشكر الله عليها أبدًا! من آن لآخر كانت ترى بعينيها كلّ ليلة ما تراه تلك البومة البيضاء التي يعرف الجميع ارتباطها بها منذ الصغر، كانوا يخشون منها لأنّها ستنقل الخبر للأميرة "نَبرة"، كما أنّها كانت شاهدًا على الكثير من الأشياء التي قلبت الموازين وهزّت البعض حيث أصبح أمرهم مفضوحًا لديها، في الحقيقة موهبتها تلك جعلت حربتها قوية، فلا يجرؤ أحد أن يقف أمامها في المملكة كلها.

صفّقت "نَبرة" فأسرعت جارية بملء كأسها بالخمر وجلست تتجرّعه و"حليم" يراقبها.



غربت الشمس وكان "كلودة" قد بدأ يستعيد وعيه بصعوبة، فتح عينيه على طقطقات النار التي أشعلها اللصوص في المكان الذي قاموا بالتخييم فيه، وكان "أنس"و "كلودة" بلا قميصيهما فقد خلعهما اللصوص عنّهما وبحثوا في أجسادهما عن علامة ما تدل على كون من يحملها محاربًا، الأغبياء لا يعرفون عن رمز المحارب الذي يظهر في الرؤى لبعضهم، ظنوا عندما أخبرهم "أنس" أن



الرمز يظهر كعلامة على الجسد. اعتدل "كلودة" في جلسته، كان مصابًا بصداع قوي:

"سبحانك سبحانك، نجنا من مكر الماكرين."

قالها وهو يئن من الألم، مرّ الوقت ثقيلًا، لم يغمض لهما جفن، أما الثلاثة فكان شخيرهم يزعج كلّ شيء حتى الطيور في أعشاشها، إلّا تلك البومة البيضاء التي اقتربت منهما قبل طلوع الفجر بساعة، كانت تقف بكبرياء على غصن شجرة البلوط الكبيرة التي كانا يستندان عليها، جميلة وأنيقة كملكة تقف وتتلحف بردائها المتألّق، وقف "أنس" واقترب منها ويداه ما زالتا معقودتين خلف ظهره، قفز بساقيه المقيدتين واقترب منها وطالعها بعينيه عن قرب ثُمّ قال بحنان:

- كم أنتِ جميلة، أنت فاتنة! ترى هل تتحدثين؟ هيّا أسمعيني صوتك، تحدثت إلى الصقور من قبل، لا بدّ أنّك تتحدثين كالرمادي.

عاد يتأملها عن قرب وكانت تطالعه بفضول بعينيها الواسعتين، ابتسم عندما حملق قليلًا في عينيها وقال بعذوبة:

- أنت جميلة، ما أروعك! ما أبدع لونك! تبارك الله!

صاح "كلودة" من خلفه وكانت يداه تؤلمانه بشدّة:

"سبحانك سبحانك! يا خالق الجمال سبحانك!"

استيقظ أحد الرجال وصرخ في "أنس" بصوته الأجش فطارت البومة وحلّقت فوقهما وبسطت جناحيها الأبيضين وظل "أنس" يتابعها حتى اختفت بعيدًا وعاد يجلس بجوار"كلودة":

"سبحانك سبحانك، الكون كلّه يسبحك، أفلا نسبحك!"

همس بها كلودة وهو يئن من الألم وبدأ يسبّح لعلّ الله يجعل لهما مخرجا.

في مكان آخر وتحت سقف بديع وعلى فراش فاخر، كانت "نَبرة" تستعد للنوم بعد أن سهرت لساعات طويلة مع رفيقاتها وجواريها عندما شخصت فجأة بعينيها! لقد راودتها رؤى بعيني بومتها البيضاء، لقد نظرت للتوّ في عيني

شابٍ مليح الوجه، له عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، ووجه وضّاء مستدير تظلله لحية خفيفة يتحدّث هامسًا بصوت بديع، حرّكت بومتها مقلتيها وتأملته بتمعّن، كانت "نَبرة" تحملق وكأنّها أمامه، وكان يتحدّث بعفوية إلى البومة وكأنّها تفهمه.

حلّقت البومة وأدرات رأسها فرأت "نَبرة" القيد حول ساقي "أنس"، تأكدت الآن أنّه المحارب، فقد قال في كلامه أنّه تحدّث لصقر! خيل إليها للحظات أنه يغازلها هي وليس بومتها البيضاء، سقطت جذوة الفتنة فوق قلبها ولن تنطفىء أبدًا، الآن تعرف وجهه، ولكن.. هل سترغب في قتله الآن وقد... أعجبها!



(٧)

"مَرام"

هدأ الهواء وجمع ضحاياه من الأغصان المتناثرة في أكوام تحت الأشجار، انتزعت "مَرام" نفسها من أفكارها وبدأت تسير في الغابة، لا بدّ أن تسرع حتى تتمكن من الوصول لـ"أنس" قبل أن يحلّ الظلام، وتعود به إلى قصر "الحوراء"، كانت رائحة زهور الياسمين تفوح باردة وتفرش مخمل عبيرها لأقدام "مَرام" وهي تسير بلطف فوق الحشائش، لم تكن تلك المرّة الأولى التي تسير فيها بتلك الغابة، باتت تعرف الطريق إلى بيت "ناردين" فقد التقت بها من قبل، لكنّها بالطبع لم تُحط بكلّ أسرار الغابة. حذروها دومًا من اللصوص في الجهة الغربية من النهر، لكنها لم تسلكها يومًا ولم تعبر النهر، كانت تعقد ذراعيها أمام صدرها وتضع كفها الأيمن تحت إبطها الأيسر والعكس بالعكس، فالبرد شديد وحاد هذا اليوم، وصلت سريعًا لذاك الكوخ الذي تسكنه "ناردين" منذ سنوات، كم تشفق على تلك العجوز فهي تذكرها بجدّتها، كان الكوخ هادئًا هدوء المقابر عندما وقفت أمامه وأخرجت يدها من تحت إبطها لتخفق الباب خفقًا ضعيفًا، فتحت "ناردين" باب الكوخ ونظرت محدّقة في عينيها بذهول قبل أن تقول:

- "مَرام"!! أما زلت هنا؟!

- كيف حالك يا جدّة

- تعالي يا حبيبتي فالرياح باردة.

دلفت "مَرام" وهي ترتجف، دثّرتها العجوز بثوب مرقّع من الصوف كانت تتخذه شالًا تدفئ به كتفيها. كان من المناسب لـ"مَرام" الآن أن تجد شخصًا متعاطفًا تبثّه أساها، وكانت تعلم أن العجوز ستحنّ عليها كعادتها وستسمع

لها وتحتويها كما فعلت من قبل، قالت بعد أن رشفت من القدح الذي سكبت لها العجوز فيه بعضًا من الحساء الساخن:

- أحتاجه بشدّه فالبرد ينخر عظامي.

وضعت العجوز يدها على كتف "مَرام" وسألتها بصوت خفيض:

- لماذا لم تعودي للديار يا "مَرام"؟ من الخطر أن تبقي هنا، فقد انتهت مهمّتك وصرت الآن أكثر ضعفًا عمّا قبل، ستكونين صيدًا سهلًا يا ابنتي!

- ليس بيدي...إنّها مهمّة أخرى كلفتني بها "الحوراء".

- مهمّة أخرى!... وما هي؟

- شاب جديد وصل اليوم ودلف إلى الغابة قبل أن يلتقي بالمغاتير وكما تعلمين لا يستطيع أحد من أهل مملكة الشمال الدخول إلى هنا، طلبت مني الملكة اللحاق به لأنبهه.

- أتقصدين "أنس"؟

- بلى ... هل مرّ بك اليوم؟

- رحل منذ ساعة، لقد كان مشغولًا بأمر "شهاب"، كان يركض خلفه.

- لماذا لم تنبهيه أنه لا بدّ أن يلتقي بالملكة والمغاتير أولًا؟

أشاحت العجوز بنظرها بعيدًا عن وجه "مَرام" وتنهّدت بعمق ثُمّ أغمضت عينيها وقالت بهدوء شديد:

- لقد ركض خلف حدسه، هو ليس من ذاك النوع الذي ينتظر أن يملي عليه أحدهم ما يفعله، لن يستطيع التراجع وليس له أن يخطو خطوة واحدة إلى الخلف!

ثُمّ صمتت قليلًا وكأنّها تقتنص فكرة وأضافت:

- لا تقلقي فقد أخبرته بالقليل عمّا سيفعله، وسيكفيه ليؤدي مهمته.

زفرت "مَرام" بأسى وقالت:



- وددت أن أعود للديار، أخشى مما أخبرني به الحكيم "سامي كول"

- وبماذا أخبرك الحكيم؟

- سأحكي لك كلّ شيء...

بدأت "مَرام" تصف للعجوز "ناردين" كيف كان يتكرر ظهور اسم "أنس" في كتاب "هيلا" من آن لآخر، طقطقت النار تحت القدر وتصاعد الدخان من تلك الفتحة التي تعلوه فانبثقت من سقف الكوخ سحب الدخّان مشكلة جبلًا مقلوبًا من تموجات في السماء، مالت الأشجار تنصت للحكاية، وكأنّها تهتم لأمر "مَرام" وذاك المحارب الذي بدأ رحلته منقادًا وراء حدسه ومتبعًا لشخص لا يعرفه، مرّ الوقت سريعًا وكان لا بدّ من المضي في الطريق حتى لا يداهمها الليل وهي وحيدة في الغابة، ودّعت العجوز في تلك اللحظة التي اقتربت منها "قطرة الدمع" وبدأت تحلّق قريبًا منها لتؤنسها، كانت تلك هي أنثى الصقر التي حملتها إلى ذاك العالم الغريب هنا.

قاومت "مَرام" شعورها بالحنين لبيتها واحتياجها الشديد لأمّها وانطلقت تتحسس جذوع الأشجار وهي تسير وكأنّها تسلّم عليها واحدة تلو الأخرى، عبرت جسرًا صغيرًا وهي شاردة ولم تنتبه لدخولها للجهة الغربية من الغابة، لمّا أدركت عادت سريعًا لتعدّل مسارها، تناهى إلى سمعها صوت صهيل فاستدارت تجاه الصوت، على حين غفلة منها وثب رجل ضخم الجثّة له وجه مثقوب بعينين ضيقتين تحتهما أنف عريض مفلطح وفم متكوّر كفوّهة بركان ينفث غضبًا، كمم فمها بكفه الغليظ وأحاط جذعها بذراعه الأيسر وحملها وهي تقاوم وتصارع، انقضّت" قطرة الدمع" على الرجل وبدأت تنبش رأسه بمخلبيها بينما تفلتت "مَرام" من بين ذراعيه وهربت، انزلقت وهي تركض فأسرها رجل آخر وعاملها بصلف وقسوة، لطمها أولًا ثمّ ضربها على رأسها ففقدت الوعي، كان مقيتا له سحنة شخص خارج من قبره للتو، عاد الرجل الضخم ورأسه تقطر دما وركلها بقدمه في غيظ ثُمّ حملها على حصانه وانطلق الاثنان خارجين من الغابة ومتجهين نحو القرية، لقد وقعت "مَرام" في أسر تاجر للرقيق، عادت "قطرة الدمع" لتخبر الملكة بما حدث، وبقيت "مَرام" ملقاة على أرض في غرفة مكتظة بالفتيات. أفاقت بصعوبة وأمسكت برأسها، همهمت ببضع كلمات غير مفهومة وسرحت نظراتها للحظات وهي تحسّ

بانقباض لا تدري مصدره، وأخيرًا استوعبت ما حدث لها فندّت منها صرخة قصيرة جعلت كل من بالغرفة ينظر إليها.

❐ ❐ ❐

الكثير من القدور الكبيرة الممتلئة بالماء الساخن، بعض المناشف ملقاة هنا وهناك، المكان يعبق برائحة عطور مختلطة، وامرأة شقراء تجلس في ركن تزين وجه فتاة بالأصباغ. هنا يعدّون الفتيات قبل أن يعرضوهن في السوق للبيع، أحيانًا في بعض القرى ينتهي الأمر بموت من يسرقونهم من العبيد على حدود قريتهم وبالتحديد عند الحاجز الحجري المحيط بها، وهم لا يعرفون السبب! هذا ما يتناقلونه من قديم الزمان، ولهذا كان اللصوص يسرقون الفتيات من الغابة والبساتين حول القرى، لأنهن خرجن بأنفسهن وتخطين ذاك الحاجز الحجري بأمان للتسكع أو للقاء حبيب ربّما وسيعدن في وقت لاحق، وكانت "مَرام" صيدًا سهلًا في الغابة.

بوجه ممتلئ مستدير، وبعينين مكحولتين بإتقان، وشفتين أغرقهما الصبغ الأحمر وكأنّها التهمت فريستها للتو وقفت امرأة ممتلئة القوام تتأرجح في مشيتها أمام "مَرام" تتفحصها وكأنّها تتفحص طيرًا قبل أن تشتريه من السوق، لكزتها بقسوة ثُمّ جذبتها من ذراعها وقالت بغيظ:

- هيّا أيتها الحمقاء اخلعي ملابسك.

حدّقت "مَرام" فيها بعدم استيعاب وقالت بخوف:

- لن أخلع ملابسي... اتركيني.

جذبتها المرأة من شعر رأسها وقالت وهي تزمجر:

- كفي عن الكلام واخلعي ملابسك لتستحمي وإلّا مزقتها أمام الجميع، يبدو أنّك من قرية "الرباب" فأنت تشبهينهم.

صاحت إحداهن بصوت رقيع:

- لا شكّ أنّك كنت تلتقين بعشيقك في الغابة، أيتها الخبيثة!



تلفتت "مَرام" حولها وهي تضع كفيها فوق بعضهما على صدرها، كانت ترتجف، في حركة عصبية سريعة أمسكت مَرام بإبريق نحاسي قريب منها وسكبت الماء على رأسها وبدأت تستحم بملابسها، رفعت المرأة حاجبيها وقالت في تهكم تشوبه مرارة وهي تكزّ على أسنانها:

- يبدو أنّك حمقاء... حمقاء

مطّت المرأة كلماتها وهي تسبّها ورفعت صوتها بينما استمرت "مَرام" في سكب الماء على رأسها بيد مرتعشة، كانت في هلع وخوف من أن يلقوا بها في أحضان رجل حقير يفترسها، أطرقت للحظة تفكّر أين المغاتير وأين الصقور وأين هؤلاء الذين كانوا حولها خلال الأيام الماضية، وكيف لا يعرفها أحد هنا، كادت تصرخ وتقول أنا محاربة، لكنّ...أي محاربة هي الآن!!

علت ضحكات البعض وهم يراقبون "مَرام" وهي تتحمم بملابسها، ألقت بالإبريق عليهن، وبدأت تصرخ عليهن، تشابكت مع بعضهن بالأيدي تارة، وبساقيها كانت تركلهن تارة، لكنها كانت تنال منهن ما لا تطيقه، بعض الصفعات والركلات والقرصات، عضّتها إحداهن في ذراعها، وضربتها أخرى على ظهرها بقسوة بالغة، جذبوا غطاء رأسها فانساب شعرها على كتفيها، وقفت المرأة أمامها تغلي كالقدر، كادت تلطمها لولا تلك المرأة طويلة القامة بملابسها السافرة وشعرها الأحمر التي اقتربت منهن وهزّت رأسها بثقة وهي تطالع عيني المرأة البدينة وقالت بصوت شابته رنّة دلال مصطنعة:

- اتركيها لي، لن تفلح تلك الطريقة معها فلديها بعض الكبرياء، سأجهزها بنفسي.

استدارت المرأة وغادرت المكان في تبرّم بعد أن نالت "مَرام" حظّها من نظراتها البغيضة، وقالت ولسانها يقطر حقدًا:

- فلتكسري ذاك الكبرياء.

وتركتها بين يدي تلك المرأة التي أحاطتها بمنشفة كبيرة وهمست في أذنها بحنان:

- تعالي يا صغيرتي، تعالي معي.



كانت الغرفة تسبح في هدوء غريب، الكثير من الملابس المزركشة معلّقة هنا وهناك وكأنّه معرض كبير، بخطوات واثقة تحرّكت المرأة بقامتها الطويلة وسحبت رداء شفافًا واقتربت من "مَرام" وقالت بصوت متهدّج:

- خذي هذا الثوب وارتديه سيزيد جمالك، فلونه يناسب لون بشرتك.

رفعت "مَرام" عينيها في انزعاج وقالت:

- لن أرتدي هذا الثوب المهين، سأظل بملابسي.

ضحكت المرأة بخلاعة وقالت لها وهي تربت على طرف الفراش:

- اجلسي يا فتاتي واخبريني بقصّتك، من أين أنتِ؟

جلست مَرام بتحفّظ على طرف الفراش وقالت بثقة:

- أنا محاربة!

ران عليهما الصمت لوهلة قبل أن تنخرط المرأة في موجه ضحك هستيري بطريقة مبتذلة، ظلّت "مَرام" على حالها تقبض على طرف المنشفة فوق ملابسها المبتلّة وتراقبها في توتر، بعد حين خرجت المرأة وعادت بكوبين من الفخّار تتصاعد منهما الأبخرة، مدّت أحدهما لـ"مَرام" وقالت بصوت أكثر هدوءًا مما كانت تتحدث به سابقًا وبدت جادة ومنضبطة وهي تقول:

- كلهن حمقاوات، لا يعلمن قدرك، تناولي هذا يا حبيبتي سيدفئك، وسأحضر لك الملابس التي تليق بك، يبدو أنّك فتاة نبيلة.

كانت "مَرام" ترتجف لا تدري خوفًا أم بردًا، أمسكت بالكوب واحتضنته بكفّيها وأغمضت عينيها لتسمح بالأبخرة المتصاعدة منه بالمرور على صفحة وجهها البريء، رشفت ببطء وقد بدأ الدفء يدبّ في أوصالها، شعرت بحرقة خفيفة في معدتها وشيئًا فشيئًا بدأت الأصوات تختلط عليها، ضحكات متواصلة وأيدي تتلقفها، تلك المرأة الطويلة تمسك بذقنها وتنظر إلى وجهها، بدت ملامحها غريبة وهي تتحدث بلؤم وترفع حاجبها الأيسر وتسألها إن كانت تحبّ أن تصبغ لها شعرها هي الأخرى باللون الأحمر، أرادت "مَرام" أن تردّ لكنّ صوتها كان محبوسًا بطريقة ما!



رائحة غريبة لا تدري أهي لعطر أم نوع من البخور بدأت تتسرب إلى خيشومها، طعم غريب لشيء لزج على شفتيها، دهان من مسحوق ناعم على كفيها، حليّ تصدر صوتًا تلفها إحداهن حول عنقها، كان الشراب يحتوي على مسحوق نوع من المخدر جعلها في حالة من عدم الاتزان مما سمح للنساء بتهيئتها بما رغبوا في إظهارها به، تستحق بعض النفقة والزينة فحسن عرضها سيجعلها تُباع بسعر عالٍ وسيعود عليهم هذا بالكثير. وأخيرًا نقلوها في عربة مع باقي الفتيات وهي تترنح، استقرت أخيرًا وسط السوق بجوار الأخريات على أبسطة مزركشة وتحتهن الوسائد الحريرية، وحولهن الحراس يصدون عنهن الأعين الحقيرة والأنفس الجائعة، إن أردتها فادفع الثمن أولًا! وقف زعيم تلك العصابة ينادي لبيعهن، بدأت تستعيد وعيها تدريجيًا، وتحسست جسدها المتكشف وأرادت أن تصرخ، أن تبكي لكنّ أثر المخدر ما زال يسري في دمها...



(٨)

"أشريا"

هس.. هسس.. همست بها فتاة صبيحة الوجه من خلف الأشجار، كان "كلودة" يغفو فتسقط رأسه تارة يمينًا، وتارة يسارًا، ما زال القيد يؤلمه. لم ينتبه إليها إلا عندما تحرّكت وسارت على أطراف أصابعها وتقوقعت خلف ظهره ثم بدأت تلكزه بيدها حتى ينتبه لوجودها، قال متفاجئًا:

- "أشريا"!! ما الذي أتى بك إلى هنا! هل أنتِ مجنونة؟ كيف تدخلين الغابة!!

كانت الفتاة ذات نظرة متقدة كلّها ذكاء، همست قائلة:

- تأخّرت يا "كلودة" ، كان من المفترض أن تكون بالبيت منذ ساعات.

- كيف وصلتِ إلى هنا؟

- أتيت وحدي، كُنت أتبعك أمس وأنت في حانوت الكتب، ورأيتك مع ذاك الشّاب وأنتما تدخلان الغابة. فجلست مع النساء في قافلة تجار خرجت من قريتنا حتى أطمئن أنّك عدت، تابعوا سيرهم فسرت معهم حتى حدود الغابة، ودلفت أفتش عنكما، أنتما بالكاد على أطرافها، عثرت عليكما سريعًا ورأيت القيد على يديك وكنت قد أتيت بذلك المسحوق لأحمي نفسي إن هاجمتني تلك الذئاب فألقيه على أعينها.

رفعته ليشمّه فغضن حاجبيه وهمس ينهرها قائلًا:

- ابعديه عن يديك، إنّه حارق يا "أشريا"، قد يؤذيك يا مجنونة!

لم يلُمها على إلصاق المسحوق الحارق بأنفه، فهو يخشى عليها أكثر مما يخشى على نفسه، سكنت الفتاة للحظات خلف ظهر "كلودة" ورمقت "أنس" بعينيها النابهتين، وعندما تأكّدت أن الحراس غارقين في النوم فتحت كيسًا من



الجلد كانت تضع المسحوق فيها، كان المسحوق لنوع من الأحجار التي يجمعها "كلودة" من الكهوف التي تملأ الجبال، ويسحقها ويضعها في قارورة كبيرة ويغلقها بإحكام، طالما حذرها منها، أخبرها ألا تقرب منه الماء لأنه يفور وربما يأكل بشرتها لو لامسته بأصابعها. نثرت الفتاة بعض المسحوق على الحبال التي قيّدوا "كلودة بها، ثم أخرجت قربة ماء صغيرة كانت تحملها، سحبت بعض الماء بفمها وعادت فلفظته ببطء من بين شفتيها فوق المسحوق المنثور على الحبال، تراجعت قليلًا وجلست بوجه ما زال رغم أنوثتها الظاهرة يحتفظ باستدارة الطفولة وتعبيراتها البريئة تراقب ذاك الفوران الذي يحدث ثمّ تفتت الحبال وذابت أمام عينيها، سحب "كلودة" يديه سريعًا ووقف يتفحصهما، ظنّ أن الفتاة ستؤذيه بقلّة خبرتها، لكنها كانت ذكية وأجادت تقليد ما رأته يومًا يفعله، فهي تراقبه دومًا وتتعلم منه، همس وهو يحدّق في وجهها:

- حمدا لله أنّك جئت يا "أشريا".

ثم همس مسبّحًا:

- سبحانك سبحانك يا من تدبر الأمر من السماء إلى الأرض!

أسرع "كلودة" يفك قيد قدميه، وساعد "أنس" على فك قيده، هرول الثلاثة مبتعدين بعد أن سحب "أنس" حقيبته وما فيها عدا الكتاب الذي سرقوه ولم يكن موجودًا، كانت القلادة لا تزال حول عنقه، وكان قد وضع المفتاح مع قطع الكريستال في الكيس الجلدي الصغير، فتحه ليتأكّد من وجودها فلا ريب أن اللصوص طمعوا فيها وأغراهم بريقها لكنّه فوجيء بتحولها إلى قطع من الفحم الأسود!

ساروا لمسافة غير بعيدة عندما تذكّر "أنس" خنجره المذهّب، كيف سيكمل رحلته بدونه وقد أوصاه جدّه أن ينتبه لكل شيء أمدّه به لأنّه سيحتاجه، للحظة تردد لكنّه قرر في النهاية أن يعود لإحضاره رغم اعتراض "كلودة" و"أشريا"، على مقربة من المكان بحيث يتسنى لهم الهرب سريعًا في أي لحظة وقفا يراقبانه خلف الأشجار، كان "أنس" يسير بحذر شديد وهو يكتم أنفاسه، نجح في سحب الخنجر من حزام أحدهم وتحرّك ببطء حتى لا يوقظه، لكنه تعثّر بساق الآخر وسقط فوقه، صرخ الأخير فزعًا وكاد يمسك بـ

"أنس" الذي وثب واقفًا وباغته بضربة على صدره ثُمّ لف جذعه بذراعيه وقلبه على الأرض فصرخ فاستيقظ البقيّة فزعين وأمسك اثنان منهم بـ"أنس"، لكن "كلودة" قفز بخفّة من بين الأشجار ونثر باقي المسحوق الذي أحضرته "أشريا" على عين أحدهما فذاب في ماء عينيه وبدأ يحرقه فترك ذراع "أنس" وبدأ يصرخ ألمًا ويقفز هنا وهناك وهو يفركها بيديه، وركل "أنس" الآخر في ساقه بكلّ ما أوتي من قوّة وانطلق الثلاثة هاربين يتبعهم اللصوص.

ركضوا بين الأشجار ثُمّ عبروا فوق جسر صغير حيث كان ماء النهر الأخضر يجري تحتهم، فور أن عبروه للجهة المقابلة وقفت "أشريا" وندّت منها صرخة مكتومة! كانت هناك طفلة رضيعة ملفوفة بخرقة ومعلقة في غصن شجرة أمام أعينهم، تركل بقدميها الدقيقتين في الهواء، وتحرّك كفيها كما الفراشة فتهزّ الغصن.

صاح "أنس":

- معقول! أي أم تلك التي تفعل هذا!

غرقت "أشريا" في موجة بكاء عنيف واستمرت تبكي بنشيج مسموع بينما كان "أنس" يحلّ عقدة الخرقة ويساعده "كلودة" الذي التقط الرضيعة بعينين تهميان بالدموع وقال بصوت مزّقه الحزن:

- وأيّ أب!

كانت رائحة العسل تفوح منها، على نحوٍ سريعٍ تلفتوا يمينًا ويسارًا باحثين عن أي أثر لمخلوق حولهم، ولمّا لم يعثروا على أحدٍ! انطلقوا راكضين بأقصى سرعة وكانت "أشريا" تحمل الصغيرة في حضنها، كادوا يخرجون لولا أنّ قبيلة "المجاهيم" ظهروا مرّة أخرى، كان"أنس" يراهم يتواثبون من تحت الأرض ويصطفّون بجنب بعضهم البعض حتى أحاطوهم من كلّ جانب، بدا وكأن "كلودة" و"أشريا" لا يرونهم! خرج "كلودة" أولًا فقد كان أسرعهم ركضًا، وفجأة اقترب أحد "المجاهيم" من "أشريا" ووقف أمامها ثُمّ قبض على عنقها بيديه فخرّت على ركبتيها وبدأ وجهها يزرق وهي تمسك رقبتها وتحاول الصراخ لكنّها لا تجدّ صوتًا ولا نفسًا يعينها، كادت تسقط على وجهها فوق الصغيرة، لولا "أنس" الذي خلع قلادته ووضعها حول عنقها هي والصغيرة حيث أحاطهما



بحبلها المجدول ودفعهما بقوّة خارج حدود الغابة حيث كانت "أشريا" تقف بأقدامها فوق الحاجز الحجري فسقطت على الأرض وبدأت تسعل وشهقت بينما قفز "أنس" سريعًا وتخطى الحاجز الحجري ووقف يلتقط أنفاسه وقلبه يكاد يثب من بين أضلعه وظلّ يحدّق في وجه أحد "المجاهيم" والذي كان يقف داخل حدود الغابة مشيرًا إليه بتوعّد فقد خدعهم وأخرج "أشريا" والصغيرة من الغابة بذكاء.

بدأت الصغيرة في البكاء فهزّتها "أشريا" بحنان وأخذت تحضنها وتغطيها بخمارها، استعاد "أنس" القلادة منها وارتداها وهو يتلفّت ويراقب "المجاهيم" وهم يصطفّون على أطراف الغابة من الداخل. اتجه الثلاثة إلى القرية ركضًا حيث التقوا بقافلة تجارية كبيرة، تعرف أحد التجار على "كلودة" فحيّاه وأعاره قميصًا يرتديه، فطلب "كلودة" على استحياء قميصًا آخرًا لـ"أنس"، وساروا في حمايتهم حتى دلفوا القرية بأمان، وجلسوا ليلتقطوا أنفاسهم.

ران عليهم صمت خفيف قطعه ظهور وجه قبيح لرجل أشعث امتلأ وجهه بندبات جروح عميقة وله نظرة تخلع القلب، فور أن لمحه "كلودة" وثب في مكانه وركض مع "أشريا" وهي تحتضن الصغيرة، وخلفهما "أنس" تجاه سوق القرية، كان أحد اللصوص الذي ظلّ يطاردهم حتى أحاطتهم أمواج البشر المزدحمين حول البائعين، غابوا عن عينيه فتراجع وهو يسبّ ويلعن.

وصلوا أخيرًا إلى دار أمّ "أشريا"، فتحت "أشريا" الباب بهدوء، كانت الصغيرة قد سكنت في حضنها، واستسلمت للنوم بينما كانت"أشريا" تشمّها وتلثمها على جبينها فاستيقظت الصغيرة وبدأت تصرخ، قالت في نفسها طالما تفوح منها رائحة العسل فهي تحبّه، أحضرت أشريا" العسل وغمست إصبعها فيه، وأطعمتها بعضًا منه فشبعت وهدأت وابتسمت، ثُمّ هرولت بها نحو أمها العجوز وفتحت باب غرفتها فأجفلت! كانت العجوز تبكي بنشيج مسموع وعيناها محتقنتان من كثرة البكاء، وضعت "أشريا" الصغيرة في حجرها بهدوء، وقصّت عليها ما حدث، صرخت العجوز في وجهها بفزع شديدٍ وطلبت من "كلودة" أن يخرج بالصغيرة من الدار!!

وقفت "أشريا" تتعجب من ردّ فعل أمّها التي عادت للبكاء الذي أدمى عينيها فصارت لا ترى وجه ابنتها "أشريا" وهي تقف أمامها.

خرج" كلودة" مهمومًا وسار في الطرقات يحملها، ربطها حول صدره وكـانت كلّما التقت عيناه بعينيها الصغيرتين تهشّ له وتبتسم، وقف وسط السوق وصاح:

- عثرت على تلك الصغيرة بالغابة، وأنا سأربيها وأحتاج العون.

نال من الهمز واللمز ما لم ينله من قبل، واتهموه بالسوء، لكن الله ألقى الرحمة في قلوب البعض.

احتضنها "كلودة" وكَوّر جذعه عليها ليحميها من الحجارة التي قذفه بها البعض، كان "أنس" يدفعهم ويصيح عليهم متعجبًا من فعلهم هذا!

بكي "كلودة" وانهار وكأنه قد فقد كلّ أهله فجأة، ثُم رفع نظره إلى السماء وقال:

- سبحانك سبحانك، يا رحيم يا ودود.

ثُمّ أكمل بصوت تخنقه العبرات:

- وما ذنب الصغيرة... وما ذنب الصغيرة!

خرجت امرأة ثلاثينية من بيتها وعليها ثياب ملطخة بالطحين الأبيض، وخلفها تهرول طفلتان صغيرتان، سارت بخطوات ثابتة وهي توزع نظرات تحمل الكثير من التحدي لمن تجمهروا حول "كلودة"، ثُمّ نظرت للرضيعة وحملتها منه وبدأت الدموع تجري على خديها..

- سأرضعها.. لا تخف عليها.

قالتها بصوت واثق وهي تحتضنها، كانت تلك زوجة الخباز، وكان رجلًا بسيطًا قد أحسن إليه "كلودة" من قبل، وكانت تحفظ وزوجها له الجميل، أخبرته أن يتركها في دارهم طوال النهار، ويعود ليأخذها لتبيت معه ليلًا.

- سبحانك سبحانك، تسخر من خلقك من تشاء لمن تشاء!

قالها وهو يتركها بين يديها، كانت نَبرة صوت "كلودة" تقطر حنانا وحبًا



وحزنًا في نفس الوقت، تجوّل "أنس" في ملامحه التي تطفح بالحزن وقال وهو يمسح على رأس الصغيرة بينما زوجة الخباز تحملها:

- جميل ما صنعتِ، أحسن الله إليكِ كما أحسنتِ إليها.

رفع "كلودة" صوته وسط السوق وقال وما زالت الدموع تسيل من عينيه:

- سبحانك سبحانك، لولا العبرات النقيّة والأنّات الخفيّة لهلكت الأنفاس.

انصرفا وتركا الصغيرة مع زوجة الخباز، بدا "كلودة" حزينًا منكسرًا!

كان "أنس" يتساءل عن حال ذاك الشاب! وهل هو ناسك عابد؟ أم مريض؟ أم عاشق ولهان يحبّ ابنة عمّه بشغف!

سار خلفه لمسافة طويلة صامتًا حتى وصلا إلى بيته، قال "أنس" وهو يمسح على جبهته:

- ليتني واجهت ذاك اللص الذي تبعنا للقرية بدلًا من الهرب منه، لا بدّ أن أستردّ كتابي؟

التفت إليه "كلودة" وهو يفتح باب داره البسيطة:

- ربّما من الأفضل أن تنتظر حتى تسأل شهاب.

- لا... سأستعيده بنفسي.

قالها بعد أن زمّ شفتيه، ودّ أن يلقّن القبيح والمقبّح درسًا فهو لم يعتد على ترك حقّه طالما هو قادر على استرداده، كان عصي عليه أن يشرح هذا لـ"كلودة"، لن يهدأ له بال حتى يسترد الكتاب بنفسه. حلّ الليل سريعًا، وكانا قد أرهقا من السير، دلفا معًا لبيت "كلودة" بعد أن مرّت من فوقهما تلك البومة العجيبة التي تمنح أميرتها رؤى ليلية تكشف عن المحاربين، فرأتهما الأميرة "نَبرة" بعيني بومتها، هي تعلم الآن أن "أنس" بصحبة شاب ما، لكنّها ما زالت لا تعرف مكانه، ولم تر بعد وجه هذا الشّاب الذي يستضيفه! ألقى "أنس" رأسه على وسادة محشوّة بريش الطيور، واستسلم للنوم، كان متعبًا ومرهقًا إلى حدٍ كبير.



(٩)

"أونتي"

- ستون كشتالًا وإلّا فلتنصرف فليس لك بضاعة عندنا.

وقف الشاب يتأمّل وجه "مَرام" والتي كانت تبدو ظاهرة عن الفتيات حولها ليس بسبب لون بشرتها المختلف، ولكن لأنّها كانت تبكي وتحاول جذب أي قطعة قماش لتغطي جسدها، حتى أنّها شقّت وسادة حريرية واستخدمت كسوتها كغطاء لكتفيها لكنّهم جذبوه منها ونهروها أكثر من مرّة.

- سبعون كشتالًا.

- بل خمسون كشتالا فقط.

مرّ "أنس" من أمامها، كان هو و "كلودة" يهرولان خلف "أشريا" وجميعهم يتلفّت باحثًا عن اللصوص هنا وهناك، ظهر وجه قبيح لأحدهم من بين الزحام ورفع رأسه يفتش بين الوجوه عن "أنس" دون أن يراه الأخير، فعلم "أنس" للتو أنّه مطلوب في القصر بالفعل ، فقد أخبر الملك رجاله أن من يأتيه برأس "أنس" سينال جائزة قيّمة، دلف "أنس" و"كلودة" وسط الحشود التي كانت تلتف حول الفتيات يقلبن في وجوههن وأجسادهن بإهانة ليشتروهن، كانت "مَرام" تضرب كلّ يد تمتد إليها، رأت "أنس" وحول عنقه القلادة التي أعطاها له جدّه وكانت جدّتها قد أعطتها قلادة تشبهها فأدركت أنّه هو، التفتت حين ناداه شاب آخر لم ترَ وجهه جيّدًا وكان "كلودة" الذي صاح باسم "أنس"وسط السوق فتأكّدت أنّه هو، كان قد ابتعد فلم يسمع صوتها الضعيف، فانحنت وحملت حجرًا صغيرًا من على الأرض تحت قدميها وقذفته به، التفت ومرّ عليها دون أن يتوقف أمام وجهها، كان مشمئزًا من جمع الفتيات بملابسهن العارية، انحنت مرّة أخرى وحملت حجرًا أكبر حجمًا



وقذفته فأصاب رأسه، التفت نحوها متألّمًا فالتقت عيناهما، وجد أمامه فتاة جميلة وفاتنة وترتدي ثوبًا سافرًا من الحرير فأجفل ثم صرف نظره عنها وابتعد، فقذفته بحجر آخر في رأسه فانحني وتناوله ونظر إليها بغضب وتصميم ورماها به فأصابها في عينها فصرخت ألما ثمّ حاولت أن تنادي عليه وقالت بصوت ابتعلته ضوضاء الحشد حولها:

- اشترِني.. أرجوك.. ادفع ثمني.. لا تتركني.

لم يسمعها فحاولت أن تترك مكانها وتلحق به فصدها ذراع غليظ لأحد الحراس الذين كانوا يحيطون بهن، عادت لمكانها وكانت عينها تؤلمها بشدّة، اختفى "أنس" بين جموع البشر في السوق وعادت تقف كالقط الغاضب تغرز مخالبها في كلّ يدٍ تمتد لتمسك بها، كانت معركة شرسة تدور بينها وبين زبائن التاجر، حتى علا صوت الخيول، أفسح الناس فرجة بينهم فترجل أحدهم عن حصانه ومرّ بين الصفوف حتى وصل إلى التاجر الذي انحنى ليحييه بإجلال، وقف شاب قوي البنية له حضور قوي عليه ملابس تليق بالأمراء، مرّ على وجوه الفتيات بعينيه اليقظتين وتفحص نظراتهن بإمعان، اختار ثلاث فتيات بارعات الجمال وجريئات لا يستحين من عرض أنفسهن، وعلى عكس المتوقع دومًا حيث كان لا يختار المنكسرات مثلها ، جذبت "مَرام" انتباهه حيث كانت تمزق النمارق الحريرية التي كان من المفترض أن تجلس عليها وتستند كباقي الفتيات، لكنّها كانت تشقها وتغطي جسدها بقماشها ودموعها تسيل على وجنتيها، كانت ترتجف عندما اقترب منها ثُمّ أشار عليها وعلى الفتيات الثلاثة، ثُمّ ألقى بكيس ممتلئ بالنقود للتاجر الذي تغيرت ملامحه عندما أمسك المال وطرب لصوت خشخشته داخل الكيس، دفع الفتيات بقسوة خلف الشاب الذي التفت عندما صرخت "مَرام" عندما جذبوا الخرق الحريرية الممزقة التي كانت تغطي بها جسدها وخلع وشاحًا كان يرتديه فوق قميصه ولفها به فستر جسدها الضئيل كلّه فرفعته بحياء على رأسها، كان لديه بقايا خير وإن كانت قليلة، وأخيرًا وجدت من يسترها!

سارت خلفه مع الفتيات حتى خرجوا من السوق، عاد لحصانه وأشار لأحد رجاله الذي حملهن في عربة مغطاة تجرّها الخيول إلى هناك.... حيث قصر الملك "كِمشاق" والأميرة "نَبرة"، كان "حليم" يزور السوق من آن لآخر ليشتري الإماء من النساء ويهدي لـ "كِمشاق" أجملهن حتى يرضيه ويكسب

ودّه، ويدفع بعضهن للخدمة في مطبخ القصر حيث ينعمن بخيرات الملك والملكة إشفاقًا عليهن، كان لديه مزيج من الخير والشر يموج في نفسه المضطربة بحبّ "نَبرة" الذي يطغى عليه ويفطر فؤاده، كان "حليم" يتفادى شراء الفتيات على شاكلة "مَرام"، لكنّها على ضعف بنيتها كانت جميلة الوجه، فحازت على انتباهه بما كانت تفعله فرق لحالها وتعجّب لأمرها.

❒❒❒

- أريد أن أعمل بمطبخ القصر.

قالتها "مَرام" بتصميم وهي تتوجع وتضع كفّها على عينها التي تورّمت بعد أن قذفها "أنس" بحجارة أصابتها فيها، كانت تقف أمام المسئولة عن شئون قصر الملك "كِمشاق" الذي يتوسّط أكبر قرى مملكة الجنوب، تلك القرية التي على أطرافها يعيش "كلودة" حيث يستضيف "أنس" الذي كان مصير كتابه مجهولًا حتى تلك اللحظة، صرخت المسئولة وعنّفت "مَرام" ونهرتها وأمرت بضمها لجواري الملك، سمعتها الأميرة "أُونتي" التي كانت تتسلل من جناح الخدم في ثياب جارية من جواريها لتلتقي بحبيبها في البستان، كانت تقف خلف عامود عريض يتوسّط الساحة وتخفي وجهها بطرف غطاء رأسها الحريري عندما تناهى إلى سمعها صوت بكاء "مَرام"، انصرفت المسئولة ومعها الجواري وتركن "مَرام" وحدها تبكي، كانت تسير تجاه بوابة القصر عندما جذبتها الأميرة "أُونتي" نحوها وسألتها هامسة ولم يظهر لـ"مَرام" منها سوى عينيها الكحيلتين وبشرتها السمراء:

- ما اسمك؟

- "مَرام"

- لا تخافي يا "مَرام"، ستطلبك الأميرة "أُونتي" وتضمّك إلى جواريها، كفكفي دموعك ولا تحزني.

ثُمّ انصرفت تلك الأميرة التي تختلف في طباعها عن شقيقتها "نَبرة" وشقيقها "كِمشاق" دون أن تكشف لـ "مَرام" عن شخصيتها، وهرولت على



عجل وانسلت بين أشجار البستان المحيط بالقصر، كفكفت "مَرام" دموعها وتكوّرت وسكنت تنتظر وتترقب وتفكّر في حالها وما آلت إليه.

❒❒❒

- مولاي الملك "كِمشاق"

قالها أحد الحراس بإجلال وهو ينحني أمام الملك باسطًا ذراعه باستعراض، هزّ الملك رأسه وبعينيه استقّرت نظرة ساخرة ملؤها الكبر والاستعلاء فقد كان يتلذذ بمراقبة حاشيته وهم يعاملونه بتلك الطريقة، قال بصوت رخيم وهو يلتقم حبات العنب في فمه من يد جاريته الحسناء:

- ما الجديد؟

- وصل أحدهم يزعم أنّه حصل على كتاب لأحد المحاربين، ويقول أنهم أسروه في الغابة.

اعتدل الملك في جلسته حيث استيقظت كل جوارحه، ورفع يده بإيماءة تعني أن أدخله في الحال، كان "كِمشاق" قد فاز بعدة جولات مع هؤلاء المحاربين، ما زال يعزز عرشه ومملكته بنشر بعض المعتقدات التي تخدم كيانه، كانت نصيحة الكهان له أن يقتنص كلّ فرصة ليمنع هؤلاء المحاربين من استرداد تلك الكتب التي يزعمون أنّها لهم، لا سبيل إلا مراقبة المحاربين، فهم وحدهم يمرون من مكان لآخر، أما أهل القصرين، قصر "الحوراء" وقصر "كِمشاق"..لا يجرؤ أيّ منهما على دخول الغابة ولم يصل أحدهم إلى المكتبة العظيمة التي تقع خلف الجبل، أمجاد عظيمة تُسطر هناك، تاريخ يضمّ أسماء من منحوا البشرية الكثير من التجارب والعلوم والفنون والقصص، من بلاد شتى ومن جنسيات مختلفة، أما "كِمشاق" ولأنّه من أصل نوبي عريق فكان يهتم لتلك الكتب التي تحكي قصص الأمير "أواوا"، وأخيرًا ستتلقى "الحوراء" ضربة تهزّ عرشها، يستطيع الآن أن يأمر أحد الكهان باستلام الكتاب لتملأ صفحاته بما يرضي نفسه ويرضيه ويعزز كيانه وسلطته ويخلّد اسمه، صرف الجواري وجلس يعدّل ثيابه الفاخرة، دلف كبير

اللصوص ومعه رفاقه، كانت رائحة القذارة تفوح منهم، انحنوا في إذلال أمامه وقال كبيرهم:

- مولاي الملك، جئناك بهديّة.

- إن كانت كما تزعم فلك جائزة كبيرة

ابتسم فأسقطت ابتسامته اللثام عن أسنان صفراء حفّتها القذارة من أعلاها وأسفلها وقال بصوت أجش متحشرج:

- هذا كتاب لأحد المحاربين عثرنا عليه في الغابة وهو في طريقه إليكم.

تناول "كِمشاق" الكتاب منه وقلّب صفحاته الخالية، راوده شعور بالاطمئنان عندما تأكّد أن الكتاب لم يطلق سراح كلمة واحدة، ما زال أمامه فرصة كبيرة، رفع رأسه ونظر لكبير اللصوص بازدراء وسأله:

- وأين هو المحارب؟

- ممم.. سنحضره يا مولاي ولكن..

- ولكن ماذا؟

- نطمع في سخائك وكرمك، ولا أظنك ستبخل علينا، أليس كذلك؟

قهقه الملك وانتفض وانتفش ورشقه بنظرة أوقعت الرعب في نفسه، ثُمّ قال:

- أحضره أوّلًا ثم أرني وجهك هذا مرّة أخرى.

ثُمّ أردف وهو يثقبه بنظرة أخرى وقعت حيث وقعت الأولى فتراجع كبير اللصوص مرتبكًا إثرها:

- وسيبقى الكتاب هنا حتى تعودوا به.

بخطى مترددة ونفس غاضبة، ودماء تغلي، ونظرات متقدة، انصرف اللصوص عائدين إلى حيث تركوا "أنس" و"كلودة" في صحبة ثلاثة منهم، لا بدّ أن يعودوا بهم للملك "كِمشاق"، والذي كان يتأمّل غلاف الكتاب ويقرأ عنوانه في فضول:



- "إيكادولي"! لا بدّ أن يكون هذا الحب لي وحدي، فليحبني الجميع.

❒❒❒

- تعالي، هيّا أيتها الكسولة.

- ماذا تريدين؟

- طلبتك الأميرة "أُونتي" لتكوني خادمتها الشخصية، أنت محظوظة يا فتاة! لولا عينك المتورّمة تلك لكنتِ الآن بين يدي الملك "كِمشاق"، لقد أنقذتك الأميرة.

وقّعت كلماتها بضحكة خبيثة، كانت "مَرام" تضغط على ذراعها حيث قرصتها المسئولة وهي تجذبها من ذراعها، سارت وراءها بهدوء تجاه جناح الأميرة "أُونتي" وهي تحبس دموعها، أصابها الكثير من الضرب والقرص منذ خرجت من بيت العجوز "ناردين" في الغابة، لم تعتد على تلك العدوانية ولم تتعرض لها خلال رحلتها مع كتابها "هيلا"، كان الأمر هادئًا رغم مرور أبطال قصّتها ببعض المصاعب. منذ ظهور أنس هذا انقلبت الأمور كلها شقاء، أطرقت في حزن لكنها حين تذكرت أنّ ورم عينها أنقذها من أشنع البلاء اطمأنت وعلمت أن لطف الله الخفي لا تجزع معه القلوب. وصلت أخيرًا حيث كانت الأميرة تقف في شرفتها وتتأمل القمر في السماء، التفتت حين دخلا عليها وابتسمت بلطف، وفور أن انصرفت المسئولة أسرعت تجاه "مَرام" ووضعت يدها بحنان على كتفها وقالت:

- هل أنت بخير؟

- بخير يا مولاتي

التفتت إليها "أُونتي" وقالت بإشفاق:

- افتحي هذا الصندوق وتخيري ما ترينه مناسبًا لك من الملابس التي فيه.

أسرعت "مَرام" التي كانت لا تزال تتلحف بوشاح "حليم" الذي لفها به عندما اشتراها في السوق، تعجّبت "مَرام" فالثياب في الصندوق لا تناسب

الأميرة ولا تشبه الرداء الذي ترتديه، آثرت الصمت وسحبت رداءً طويل الأكمام وسروالا واسعًا وارتدتهما في الحال وخلعت الملابس الخليعة التي كانت عليها، تذكّرت نظرة "أنس" لها في السوق فأصابها الحزن، ذاك الشاب ظنها فتاة سيئة، أمسكت بطرف الوشاح الذي كان عليها وبدأت تمسح الأصباغ على وجهها فالتفتت الأميرة "أُونتي" وضحكت وهي تراقبها وقالت:

- أليس هذا وشاح "حليم"؟

- نعم هو، سترني به وأنا في السوق.

لاحت على وجه الأميرة ابتسامة وهي تقول:

- كم هو شهم! لا بد أنّه رقّ لحالك، عجيب أمر "حليم" هذا! يتقلّب بين حالتين وكأن النهار والليل يتعاقبان فيه!

- ماذا تعنين؟

- أحيانًا يكون طيبًا وحنونًا، وأحيانا يكون غليظًا فظًّا!!، أتعلمين، لو رآك تمسحين الأصباغ به لعاقبك في الحال.

تنهّدت "مَرام" وقالت:

- ما أنا فيه هو عقاب بالفعل، ليتني لم أكن يومًا أنثى!

- لم تقولين هذا؟

- أجبروني على ما لا طاقة لي به، خلعوا حجابي، مزقوا حيائي، هتكوا ستري... ليتني كنت رجلًا.

وانخرطت تبكي بنشيج مسموع فرقّت "أُونتي" لحالها وجلست بجوارها تهدئ من روعها، ثُمّ سألتها عن قصّتها فصمتت "مَرام" هنيهة وفكّرت هل من الصواب أن تعرف الأميرة بقصّتها أم لا، فضلت أن تكتم أمر كونها محاربة، واستأنفت البكاء وكأنّها لا تقدر على الكلام حتى ملّت الأميرة وعادت لشرفتها تتأمل القمر في السماء، كانت "أُونتي" ساهمة تفكّر في حبيبها، تطرق طويلًا وتغرق في أحلام يقظتها حتى أنّها لا تشعر بمن حولها، أدركت "مَرام" أن وراء تلك الأميرة سرًّا ما، قررت أن تتجلّد وتتصبّر لعلها تعينها على الهروب من ذاك



القصر، كانت عينها تؤلمها بشدّة، بدأ جفنها يزرق وبرز قليلًا، تذكّرت كيف كان "أنس" ينظر إليها وهو يصوب الحجر تجاهها فاعتصر الحزن قلبها وغضبت منه، همست لنفسها وهي تعدّل وسادتها لتنام:

أيظنني بغيًّا تناديه! يوما ما سأنتقم من هذا المحارب الأحمق... والمغرور!

❐❐❐

- "مَرام"...استيقظي.

همست الأميرة "أُونتي" في أذنها فانتصبت جالسة وبدأت تفرك عينيها، اعتادت على الاستيقاظ في مكان يختلف عن بيتها الذي ولدت فيه، اشتاقت لغرفتها وأمها، كادت تنسى سريرها وأشياءها الخاصّة. التفتت فرأت الأميرة "أُونتي" وقد ارتدت ملابسًا بسيطة لا تليق بها كأميرة، سحبتها من يدها وهمست قبل أن يخرجا من جناح الأميرة الخاصّ بها:

- "مَرام"..اخترتك لأني أدركت من اللحظة الأولى أنّك لست من ذاك النوع من الفتيات الذي يبحث عنه أخي "كِمشاق" وغيره، وأشعر أنّك لست من هذا المكان.

ثُمّ صمتت برهة وعبرت على ملامح "مَرام" سريعًا، كانت طريقة "مَرام" في الكلام عندما رأتها أوّل مرّة، وهلعها عندما ذكرت المسئولة أمر الجواري وما يفعلنه لإرضاء الملك، ودموعها التي كانت تنساب على وجنتيها، توحي بأنّها على استعداد أن تفعل أي شيء مقابل أن ينقذها أحدهم من هذا المأزق، رمقتها بثقة وقالت:

- بقاؤك هنا في جناحي مرهون بإخلاصك لي، فأنا أحتاج لمن تكتم سرّي وتعينني، فقد سلبوني أفضل الجواري عندي ومن كانت تكتم سرّي، وطالما أثبتِّ ولاءك لي يا "مَرام" سأحميك من كلّ رجال القصر.

سألتها "مَرام" بتعجّب:

- ولماذا سلبوكِ جاريتك المخلصة؟

- سأخبرك لاحقًا، أمّا الآن فغطي وجهك وسيري خلفي.

- إلى أين؟

انطلقت "أُونتي" وخلفها "مَرام" تتساءل في نفسها كيف ستستطيع تلك التي سُلبت أقرب جواريها أن تحميها! بدأ القلق يستبد بها وأكملت سيرها والوساوس تنهشها. كانت السماء ما زالت شاحبة، لا يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، انسابت بين أشجار البستان وخلفها "مَرام" التي لا تدري أين تذهب بها الأميرة، بعد حين من الوقت وحيث غمر النور المكان بالتدريج وقفتا تحت شجرة تنتظران، وسريعًا ما ظهر شاب طويل القامة وقويّ البنية، أسرعت تجاهه "أُونتي" ، كانت متلهفًة لرؤيته للغاية، بدأت تتحدّث معه وتتبعه هنا وهناك، بدا لـ"مَرام" أن الأميرة تحاول جاهدة أن تغريه وتراوده عن نفسه.

فاستدارت "مَرام" بانزعاج وكانت في حالة يرثى لها، أيّ سرّ هذا وما تلك المصيبة التي أشركتها فيها تلك الأميرة، وقفت تعتصر يديها بقلق، جاست بعينيها في السماء تسأل الله ألا يؤاخذها بما يحدث خلف ظهرها.



استيقظ "أنس" وكبح تثاؤبا وهو يبحث عن "كلودة" في الغرفة، يبدو أنّه خرج من البيت! لم يدم انتظاره له فقد عاد سريعًا، كان في حالة من النشاط وكأنّه لم يكن بنفس الروح التي كانت تبكي بالسوق أمس وهي منكسرة! وكأنّه قد غسل وجهه من الحزن وعاد بسحنة جديدة!

مرّت ساعة الإفطار سريعًا وغادرا البيت حيث انصرف "كلودة" إلى دكانه بينما فارقه "أنس"، فقد قرر العودة إلى الغابة ربّما يلتقي بالرمادي هناك ويسأله ما مصير كتابه! أو ربّما يعثر على "شهاب". كان "أنس" يسير وعيناه على قمّة الجبل يراقب الحلقة الحمراء التي تحيطه، كان الجو باردًا والرياح قويّة، من آن لآخر كان يقف ويتنصّت ويراقب الطريق بحذر، بدأ يقلّب كلّ ما مرّ به في رأسه، لا يدري بالتحديد كيف ستكون خطوته القادمة، فالعجوز "ناردين" أخبرته أن يحرص على كتابه ويراقبه من آن لآخر، ولكن أين الكتاب الآن!!

سكنت الرياح، وغمرته موجة من الدفء وهو يسير، لم يتخيل يومًا أنه



سيبتعد عن أسرته بتلك الطريقة، ولم يخطر بباله أنه سيكون يومًا وحيدًا في عالم لا يعرف عنه أي شيء.

ظهر "شهاب" أمامه فجأة كما لو كان شبحًا، حيّاه بحبور ودعاه لبيته، لم يتوقف "أنس" عن الأسئلة منذ أن رأته عيناه، أخبره أن الكتاب قد سُرق منه، أخبره بأمر "كلودة" و"أشريا" والصغيرة، أنصت إليه "شهاب" ثُمّ طمأنه، وأخبره أن الكتاب سيجده كما وجده في المرّة الأولى، سارا معا على طريق معشوشبة طويلة، أطلّ بيت "شهاب" في نهايته فتهلل وجه "أنس"، فالبيت يبدو مختلفًا عن كل ما شاهده منذ وصوله، فهو أقرب لعالمه الذي نشأ فيه، وأبعد عن تلك الأعاجيب التي يراها ويعيشها الآن. بدا "شهاب" سعيدًا ومرحًا مع بناته الثلاثة، حتى زوجته بدت في حالة رائعة، وجه مشرقٌ عليه مسحة طيبةٍ وقسمات تنم عن نفسٍ مطمئنّة، كانت البنات ملتصقات بأبيهن، واحدة تحتضن ساقه اليسرى وكانت أقصرهن قامة، والأخرى تحتضن جذعه وكانت تبدو كأنها تكبر شقيقتها بعامين، والثالثة كانت تمسك بيده وتلك أكبرهن وأطولهن قامة، نفس الملامح، والشعر البنيّ الحريري المجدول في ضفيرتين، حتى ألوان ثيابهن كانت متطابقة، وكأنهن نسخة تكررت وولدت ثلاث مرّات في ثلاث أعوام متفرّقة، قال "شهاب" بترحاب شديد:

- هيّا يا "أنس"، أعدّت زوجتي طعامًا شهيًا، انضم إلينا.

فتح "شهاب" باب البيت واجتاز البهو ومن خلفه بناته يقفزن حوله ووراءهن "أنس"، كانت النوافذ كلّها مفتوحة، والغرفة تسبح في نور لطيف، وتفوح برائحة الطعام. اقتربت زوجة "شهاب" لتضيّف "أنس" وكانت قد أعدّت حساء الخضراوات اللذيذ والكثير من الفطائر الشهيّة، جلس "أنس" بين بنات "شهاب" الثلاثة وقد أصابته عدوى السعادة، كانت لديهن كفوف صغيرة وأنامل دقيقة، ووجوه جميلة. أصواتهن الرقيقة وضحكاتهن الجزلة جعلت الابتسامة لا تفارق وجهه، التفتت إليه أكبرهن وسألته:

- ما اسمك؟

- "أنس" وأنت؟

- "جمانة"

- اسمك جميل.

ثُمّ التفتت لشقيقتيها وقالت بحماس شديد وهي تشير إليهما بسبابتها:

- هذه أختي "جميلة" وتلك أختي "جويرية"، نحن الشقيقات الثلاثة "ج " هل أنت صديق لأبي؟

ضحك "أنس" وقد أعجبته طريقتها في تقديم نفسها وشقيقتيها له وقال:

- أظنّ ذلك.

ابتسم "شهاب" وقال بودّ:

- هو صديقي طبعًا يا "جمانة".

جذبته ابنته الصغرى من قميصه وقالت بكسل:

- أبي، لا تغب عن البيت كما فعلت هذه المرّة، طال غيابك كثيرًا.... أنا أُحبّك يا أبي.

ضمّ "شهاب" ابنته إليه وغمره شعور لا نهائي بالعرفان، طالعته بعذوبة، ثُمّ كبحت تثاؤبًا ووضعت رأسها على كتفه واستسلمت للنعاس.

بدأ "أنس" يتناول طعامه والسؤال يدور في رأسه، لماذا كان "شهاب" غائبًا عن بيته في الفترة الماضية؟، توقّع "شهاب" ما يدور في رأسه فقال باهتمام:

- خلال الفترة الماضية كُنت أراقب "محاربة" لحمايتها.

- ولماذا كنت تحميها؟

- لأن هناك كتابًا جديدًا كان يولد على يديها، خشيت أن تتعرض للخطر، كنت أتدخل بطريقتي الخاصّة..

تبادل "شهاب" وزوجته النظرات عندما سألهما "أنس" بهدوء:

- لماذا لا تشبهون أهل النوبة؟ أنت وزوجتك وبناتك تختلفون في الملامح ولون البشرة!

لاح شبح ابتسامة على شفتي "شهاب" وهو يقول:



- وماذا لاحظت أيضًا؟

- الملابس... تختلفون عن بعضكم البعض، رغم أنّكم في مملكة واحدة ويبدو لي التناغم بينكم جليًا إلا أنّ هناك تباينًا من نوع ما، كلّ قرية تختلف عن الأخرى!

تبادل "شهاب" وزوجته نظرات أخرى تشي بالكثير، ولم يعلّقا على ملاحظات "أنس" الذي أنهى تناول الحساء وشعر بالنعاس يداهمه، تخدّر جسده وكأنّه قد تناول للتومنوّمًا، طلب من "شهاب" أن يسمح له بالنوم لأنّه يشعر بالإرهاق الشديد فقاده فورًا إلى غرفة أخرى، فقيلولة بسيطة قد تفيده الآن.

هزّ "أنس" رأسه ثُمّ استلقى على الفراش متعبًا وظلّ يحملق في سقف الغرفة ويده على الحقيبة بجواره، وكأنّه يخشى أن يفقدها، ومضت ساعات نام فيها نومًا عميقًا، ثُمّ استيقظ ليجد نفسه تحت ظلّ شجرة وضوء الشمس الضعيف يتلاعب أمامه، وثب مذعورًا، أين "شهاب" وزوجته وبناته! وأين البيت!!

هزّ رأسه ووقف حائرًا، هل يكمل الطريق إلى الجبل أم يعود للقرية! كانت تلك اللحظات التي قضاها وحيدًا تحت الشّجرة من أصعب اللحظات التي قضاها منذ وصوله، كان يشعر أنّ رأسه يضجّ بالتساؤلات، وكان أكثر الأسئلة ترددًا في رأسه، كيف سيستردّ كتابه؟

قرر أنس" أن يعود إلى القرية ومرّ على "كلودة" في دكانه والذي أخبره أن زوجة عمّه أرسلت إليهما ابنتها "أشريا" لتوصيهما أن يمرّا عليهم في الدارلتناول طعام الغداء.



(١٠)

في بيت أشريا

خلف النافذة وحيث كان البيت يعبق برائحة الطعام الشهيّ كانت "أشريا" تراقب الطريق وتتساءل، لماذا تأخّر "كلودة"! كانت تنتظر وصوله بشغف هذه المرّة، أشفقت عليه عندما تذكّرت كيف كان مقيّدًا بلا قميص في هذا البرد، كانت تعلم أنّه يحبها، في كلّ مرة كان يطلبها للزواج كانت ترفضه، تتمنّع حتى يُصلح من حاله وتبقى على أمل أن يعود مرّة أخرى، حيرت أباها من قبل والآن ازدادت حيرة أمّها التي نادتها وهي تتأمّل تمايلها خلف النافذة يمينًا ويسارًا وتتأرجح وتشبّ على قدميها:

- لماذا ترفضين الزواج منه وهذا حالك!

- أمي.. كفي أرجوكِ عن ترديد هذا السؤال..

- ما بال هذا الشاب الذي أحضره معه؟

- ما باله؟

- هل سيقيم ببيت "كلودة"؟

- يبدو هذا يا أمي.

لمحتهما "أشريا" من بعيد يقتربان، وبينما كان "كلودة" يمسح على صدره وكأنّه يسكت قلبه الذي يكاد يقفز من بين ضلوعه، فهو سيكون بالقرب منها الآن، يتنفّس نفس الهواء الذي تتنفسه، همس وعلى وجهه أطلّت علامات القلق:

- سبحانك سبحانك، يا عالم السرّ والنجوى!



دلفا على استحياء وجلسا بعد التحيّة بجوار أم "أشريا" ، بينما كانت "أشريا" تجلس بجوارها منكفئة وكأنّها غير موجودة، حيث كان كلّ منهما يتوارى خجلًا من الآخر بينما كان "أنس" يتبادل الحوار مع أم "أشريا" التي سألته:

- أنت محارب إذن يا "أنس"

- يقولون هذا يا خالة، فما رأيك؟

قالت بفمٍ ممتلئ بالطعام:

- لو كنت محاربًا ما قيّدك اللصوص بالحبال!

هزّ رأسه موافقًا وعلى وجهه ابتسامة وقال لها:

- صدقتِ والله!

قالت "أشريا" التي كانت تلوك الطعام ببطء:

- أتساءل حتى متى سيظل المحاربون يفدون إلى قريتنا؟

أجابتها أمّها وهي تنقّل نظراتها بين وجوههم:

- لن ينقطع المحاربون عنّا طالما الدنيا تهمس بالحكايا في الغابات، وتصبّ الرياح همسها في آذان البشر، وطالما هناك حيوات تدوّن بين دفتي كتاب!

التفتوا جميعًا إليها في سكون، كان لكلامها سحر غريب، انتهوا من تناول طعامهم واستأذن"كلودة" وخرج من البيت ومعه "أنس"، همس "كلودة" وهو يغلق الباب خلفه برفق وشرود:

- سبحانك سبحانك، اجبر فؤادًا متعبًا ليس له إلا بابك.

باغته "أنس" يسأله:

- أخبرتني أنك تريد الزواج من "أشريا"، لماذا لم تتزوجها؟

عقد "كلودة" يديه خلف ظهره وقال وهو يحدّق في الطريق أمامه:

- كلّما طلبتها للزواج امتنعت، وكأنّ هناك ما يحجبها عني ويحجبني عنها.

- ربّما لهوانك هذا عندما تراها!

- أيّ هوان؟

- أراك منكسرًا في حضورها، إن حدّثتك ترتج كالجرس، العرق يغطي جبهتك وتتعثّر في الكلمات.

- أوحقًا هذا! أتعلم أنني لم أكن كذلك! كانوا يصفونني بالجريء و...

- معقول!.. أنت!

أطرق "كلودة" وسار صامتًا لدقيقتين ثم قال:

- أتدري يا "أنس"، وكأنك بقولك هذا رفعت النقاب عن الكثير من الكلام الذي كانت زوجة عمي تحدّثني به، الكثير من الهمزات واللمزات والإشارات، لم أفطن إليها إلّا الآن وكأن عقلي كان محجوبًا بحجاب!

- غير من طريقتك إذن .. تجمّل يا فتى.

- كيف؟

- كفّ عن اللجلجة والتلعثم وأنت تتحدث إليها.

- أنا أتلعثم!!

- نعم أنت تتلعثم! تنفّس بعمق وادخل مرفوع الرأس ولا تحْنِها كما تفعل، افتح صدرك واجلس معتدلًا، قلل كلامك وتحدّث على مهل، ليس من الضروري أن تذهب كلّ يوم، وحتى إن أردت السؤال عنهم فخفف وانصرف وكن عزيزًا ولا تأكل إلّا لو دعوك للطعام بأنفسهم، ولا تحط من نفسك عندما تحكي عن مشاكلك في الدكان، والأفضل ألا تحكيها، ولا تذهب بملابس العمل، وتطيّب فالطيب رسول يقدم لك ويعطر حضورك.

- الله! الله! أراك حكيمًا يا "أنس"، من أين لك بهذا؟!

- من جدّي الحبيب، كم أشتاق إليه!

ثُمّ التفت "أنس" وسأله:



- والآن..ماذا سأفعل يا "كلودة"؟ دبرني يا صديقي، كيف سأصل لكتابي؟

رفع "كلودة" يده وأشار إليه ليستدير معه وقال بحماس:

- سنرتاح الليلة ثُمّ نفكر غدًا.

بخطى سريعة مضى كلاهما تجاه بيت "كلودة"، كانت المسافة كبيرة بين بيت "أشريا" وبيت "كلودة"، مرّا خلال الطريق على سهول واسعة تتدرج في الارتفاع وكأنها درج يرتقي نحو السماء، يعلوها من بعيد قصر الملك "كِمشاق" كان القصر يبدو كالجبل تحلّق فوق قمّته الغربان، بينما تحيطه البساتين الخضراء الزاهية من كل الجهات.

"سبحانك سبحانك يا بديع الأكوان"

همس بها "كلودة" وهو يتأمل السهول وألوانها الرائعة، تمشّى "أنس" بعينيه في السماء وسأله بفضول:

- لماذا يبدو الطقس هنا دوما وكأنّها على وشك أن تمطر؟ وكأننا دومًا في نهار الشتاء، الشمس باهتة، لست واثقًا أنّها أشرقت، ولا تستطيع أن تنفي أنّها هناك!

لم يجبه "كلودة"، فهو لا يعلم!

من بعيد لاح بيت صغير يتوسّط أرضًا واسعة وكأن الناس قد هجروا تلك المنطقة النائية، دلفوا حيث بدأت الهررة الصغيرة تحلّق حولهما وكان "كلودة" يداعبهم بودّ صادق، انصرفت القطط وجلس "كلودة" مع "أنس"، وقال فور أن استقر على المقعد أمامه:

- حرّاس المكتبة، ربّما يعلمون شيئًا عن كتابك.

- سمعت عنهم من جدي، هل التقيت بهم من قبل يا "كلودة"؟

- نحن لا نجرؤ على الاقتراب منهم، لكنّهم يرسلون إليّ من آن لآخر يطلبون الحبر بألوانه، وغدًا صباحًا سيمرّ عليّ رسولهم، فإن شئت أن تسأله عن الطريقة الصحيحة لاسترداد الكتاب فلك هذا.



وضعت "نَبرة" الكأس على الطاولة وتناولت من أخيها الملك "كِمشاق" كتاب "إيكادولي" ومرّت بأناملها على الكلمة حرفًا حرفًا، تنهّدت عندما تذكّرت صورة "أنس"، أزعجها صوت أخيها عندما قال موجهًا كلامه لـ "حليم" بلهجة لا تقبل النقاش:

- فور أن يأتوني بالمحارب سنستدعي الكهنة وننهي الأمر في الحال.

قالت بتلعثم جعلهما يلتفتان إليها فليس من عادتها التلعثم:

- فلنسمع منه أوّلا، لا داعي لقتله بتلك الطريقة التي اعتاد الكهنة فعلها بالمحاربين.

كانت "نَبرة" تتلذذ بمراقبتهم وهم يثقبون قلب المحارب ويكتبون بدمه المراق ما يوافق أفكارهم حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولأن "حليم" يعرف عنها هذا تعجّب في نفسه وسألها بفضول شديد :

- ولماذا؟

قالت وهي تعبث بخصلات شعرها الأبنوسي وتؤرجح ساقًا فوق الأخرى:

- يبدو الشاب مسالمًا حتى الآن.

- هل رأيتِه مرّة أخرى؟

- نعم، هو الآن بصحبة شاب آخر من إحدى القرى حولنا، لكنني لا أعرف المكان، لم أر علامة مميزة تكشف لي عن موقع البيت.... كما أن

عنوان الكتاب مختلف، وأعجبني.

ثُمّ قالت وهي تطالعه بعينيها الكحيلتين:

- "إيكادولي"

ارتبك"حليم"، ظلّ ينظر لها راجيًا لكنّها لم تعد النظر إليه، ظنّها لانت له، لكنّها نهضت فجأة وهي تحتضن الكتاب، وأخبرت شقيقها الملك أنّها ستحتفظ به في غرفتها حتى يأتيه اللصوص بالمحارب، كان هناك شموع تبعث الظلال على الجدران، مرّت "نَبرة" على عجل فتكسّرت الظلال للحظة وانكسر معها



قلب "حليم"، لكنّه استعاد سريعًا رباطة جأشه.

❐❐❐

واصل الرمادي التحليق فوق قصر "الحوراء"، كان قلقًا على زوجته "قطرة الدمع"، منذ عودتها بعد أن انقضت على اللص وهو يحاول اختطاف "مَرام" في الغابة وهي في قصر الملكة "الحوراء" يطببون جرحها فقد طعنها اللص بخنجر وكاد يكسر جناحها، على الشرفة وقف "الزاجل الأزرق" يراقبها وهي تستعد للتحليق مع زوجها، رفرفت بجناحيها ثم انطلقت تتحامل على آلامها حتى تنضم لشريك حياتها الحبيب، كانت "الحوراء" ترقبهما من خلف كتف "الزاجل الأزرق" الذي التفت بعد أن ابتعدا وقال بإجلال:

- مولاتي، ماذا سنفعل الآن؟ "مَرام" في خطر، ولا ندري أين "أنس" الآن، كيف سنساعدهما ونحن لا نستطيع دخول الغابة، كما أنّ الصقور لن تستطيع الوصول إلى قرى الجنوب إن كانا قد وصلا إليها.

صمتت "الحوراء" هنيهة ثُمّ قالت:

- لا بدّ أن تذهب ومعك "المغاتير" إلى المكتبة.

- ماذا! وكيف هذا! ومن يجرؤ؟

- لن تدخلوها ولكنّكم ستنتظرون هناك.

- ننتظر ماذا؟

- وصول "أنس"!

- وما أدراك يا مولاتي أنه سيذهب إلى هناك؟

- ربّما يذهب

- هل سمعت بالخبر؟

هزّت الملكة رأسها موافقة، فقد كان هذا سرّها الذي لا يعلمه إلا الحكيم

"سامي كول" و "الزاجل الأزرق"، فالرياح تحمل أخبار المحاربين إلى الحوراء وتهمس بها في أذنيها طوال الوقت، كانت تسمع أصواتهم، تختلط أحيانًا بصوت امرأة عجوز تدعى "ناردين" لم تلتقِها أو ترها من قبل، لكنّها تسمعها وهي تهمس وسط الغابة، ودّت لو رأتها يوما ما، لكن دخولها الغابة مستحيل! ليت الرياح تنقل كلامها إليهم، وإلى المحاربين، لكنّها كانت تحمل إليها أصواتهم هم فقط دون أن تحمل صوتها هي إليهم، كانت "الحوراء" تعاني من ذاك الأمر فهي تعيش صراعات طوال الوقت، لكنّ الرياح تراها أهلا لحمل تلك الأمانة، غضّنت "الحوراء" حاجبيها وقالت بقلق:

- توقفت الرياح عن حمل أخبار "مَرام" لي، أظنّها فقدت بعض امتيازاتها كمحاربة، لا أدري لماذا وكيف! ولكنها المرّة الأولى التي يظلّ فيها محارب هنا بعد انتهاء مهمته في استرداد كتابه وقد استعادت كتابها بالفعل، أو ربّما لأنهما محاربان على أرضنا في آن واحد!

- إذن هي الآن أضعف؟

- نعم، وأصبحت أخبارها بعيدة عني، لم يبق لها سوى أن تحملها "قطرة الدمع" إلى موطنها.

- وهل فقدت جميع مميزاتها؟ كلّها!!

- الله أعلم! ربّما هناك شيء ما ما زالت تحتفظ به!

- يا إلهي! كيف سنساعدها؟

- لا أدري، المهم الآن أن تنتظروا "أنس" خارج أسوار المكتبة، اسلكوا الطريق الطويل ودوروا حول الغابة من الجهة الشرقيّة، أعلم أنّها مشقّة عليكم، ولكن لا بدّ من الوصول إليه ليعلم أن "مَرام" دخلت الغابة من أجله فتعرضت للخطر، لا بدّ أن يساعدها بينما يسترد كتابه.

- ماذا!! هل فقد الكتاب؟

- نعم، سرقه اللصوص منه، وهو الآن مع شاب يدعى" كلودة"





كانت "مَرام" تقف خلف الأميرة "أُونتي" والتي جلست مسترخية وأغمضت عينيها وغرقت في أحلام يقظتها بينما كانت "مَرام" تمشّط لها شعرها بلطف وهدوء، ما زالت عينها تؤلمها، ربطتها بقماشة بعد أن دهنتها بدهان أمدّتها به طبيبة القصر، كان الضوء يؤذيها في عينها ففضلت أن تغطيها حتى تبرأ وتختفي الظلال الزرقاء التي أحاطت بها، ترددت قبل أن تسأل الأميرة :

- لماذ لا تتزوجيه؟

انتفضت الأميرة وفتحت عينيها ثمّ التفتت إليها وقالت بحزم:

- اخفضي صوتك يا "مَرام"، سيقتلنا أخي لو علم بأمرنا، كما أنّه لن يوافق على زواجي منه.

ثُمّ عادت لحالتها وسلّمتها رأسها بينما سلّمت ما بداخل رأسها لعالم الخيال وقالت بتهدّج:

- المهم أنه يحبني وأنا أحبّه.

- ولكن هذا لا يليق بأميرة، كما أنه...

- كل شيء مباح بأمر الحب

- حتى الخطيئة!

تمعّضت "أُونتي" وقالت بضيق تنهرها:

- لا شأن لك بهذا..لا تحشري أنفك فيما لا يعنيك!

ران عليهما صمت ثقيل، كانت "أُونتي" تترقب ردّ فعل "مَرام" على زجرها لها، سريعًا ما رقّت لها فهي رغم أخطائها طيبة القلب تحن للبسطاء، وكانت تشفق على "مَرام"، قالت بعذوبة وكأنّها لم تنهرها منذ لحظات:

- الحبّ ليس خطيئة، الحب شيء جميل عذب قويّ كالسحر يا "مَرام"

- وهل هذا حبّ!

استدارت "أُونتي" وأمسكت بذراع "مَرام" لتجلسها أمامها وسألتها باهتمام:

- وماذا تعرفين عن الحب؟ هل أحببتِ من قبل؟

- لا..لا

- لا يعرف الحب إلّا من يعانيه، لا تتحدثي عن شيء لا تعرفي كنهه.

أشاحت "مَرام" بنظراتها عن وجه "أُونتي" وقالت:

- تلك شهوة! لو أحبّك حقًا ما استباحك إلا بالحلال!

على نحو سريع انزوت نظرة ساخطة في عيني "أُونتي" وقالت بحزن:

- من المستحيل أن يقبل أخي أن يزوجني له، فهو شابّ بسيط يكاد لا يملك قوت يومه.

- وكيف التقيتما؟

- كنت أهرب مع جاريتي وأرتدي ملابسها وأتنزّه في البساتين حول القصر، فأخي كان يمنعني من الخروج، ورأيته مرّات ومرّات، وكان لأعيننا حديث ولنظراتنا اشتباكات، أعجبتني ملامحه وفتن روحي، كان يخشى أن يحدّثني فذهبت إليه...وآه يا "مَرام" من حديثه، إنّه بليغ يجيد الكلام.

- طالما يحدث بينكما ما يحدث فالأولى أن تتزوجيه!

ردت "أُونتي" بمرارة:

- مستحيل! هو يعلم أنني أميرة فقد أخبرته، والآن ليس أمامنا إلا هذا!

ثم أردفت ساهمة وهي تقول:

- أنا أعشقه، عينيه ونظراته إليّ، ونَبرة صوته وهو يخبرني أنه يحبّني، همساته لي بالأشعار...

رفعت "مَرام" كفّها وغطّت أذنيها وقالت بصوت خفيض:

- لا تُكملي أرجوكِ، ذاك ليس حبًا...ما تصفيه مجرد شهوة!! ليس من الضروري أن تدنسا الحب بأفعالكما، من الممكن أن يحبّك دون أن يطفيء شمسك، دون أن يجرّك في الوحل.



هزّت "أُونتي" كتفيها وقالت:

- تلك فطرة خلقها الله فينا، لا تزعمي أنّك لا تشتهين الحب بتلك الطريقة، لن أصدقك أبدًا.. كاذبة أنتِ لو قلت غير هذا!!

ثم رشقتها بنظرة ماكرة وقالت:

- أتعلمين، يومًا ما ستقعين في الحبّ، وستغرمين حدّ الصبابة، وسأسمع منك وقتها.. اصبري يا فتاة حتى يصيب سهم الحبّ شغاف قلبك.

ثُمّ رفعت "أُونتي" حاجبيها وهي تطالع عينيها، تنتظر أثر كلماتها عليها، صمتت "مَرام" هنيهة ثُمّ قالت:

- الفضيلة تتطلب إرادة قويّة، فإن وقعت في الحب يومًا سأتحصن وأستعفف حتى يأذن الله، ولن أخطئ ولو كان السيف على رقبتي.

أعرضت عنها "أُونتي" وهزّت كتفيها وهي تبتعد عنها، كانت "مَرام" مرتبكة، أخافتها الكلمات، داهمتها وساوس نفسها، أحقًا ستضعف لو وقعت في الحبّ يومًا ما؟ هل سيجرها الحب لما لا يرضي الله رغم أنفها؟ تركتها "أُونتي" وألقت برأسها على وسادتها وظلّت تحملق في سقف الغرفة، وكأنّها في عالم آخر بعيدًا عن "مَرام" التي كان ألم عينها يزداد حتى أنها بدأت تشعر بصداع شديد.

بعد نحو ساعة وبينما تفتّش "أُونتي" بين حليّها فوجئت باختفاء عقد ثمين وعزيز عليها، خرجت من غرفتها كقنبلة على وشك الانفجار، واتجهت نحو جناح أختها "نَبرة" في الجهة الأخرى من القصر...

- أين عقد أمي؟

صاحت "أُونتي" بغضبٍ وهي تدفع باب جناح شقيقتها "نَبرة" والتي كانت دومًا قاسية عليها، كلّما رأت المسكينة "أُونتي" تستمتع بشيء ما كانت تسلبها إيّاه، حتى الحلوى وهما صغيرتان كانت تجذبها من كفها الصغير، عندما ماتت أمهما ظنّ الجميع أنّ "نَبرة" ستحنو على شقيقتها التي تصغرها، لكنّها باتت تتحكم فيها وكأنّها دمية صغيرة ورثتها، ظلّت "أُونتي" خاضعة لها حتى بدأت تكبر، وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها تمرّدت عليها وانفصلت عنها

وأصبح شجارهما مستمرًا لولا تدخل شقيقهما "كِمشاق" الذي فصل بينهما في جناحين مستقلّين حتى يهدأ القصر، تركت "أُونتي" كلّ شيء لأختها، كانت لا تظهر في تلك الحفلات الصاخبة، تقوقعت على نفسها وملأت الفراغات بعلاقاتها مع البسطاء، كانت لها جارية تحبّها وتطمئن إليها، سلبتها "نَبرة" تلك الجارية منذ أيام، وها هي قد أرسلتها اليوم لتحضر لها عقد أمهما من خزانة "أُونتي"، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي تعتز به"أُونتي" فقد ألبستها أمها ذلك العقد وطلبت منها أن تحتفظ به لتتذكرها، قالت "نَبرة" ساخرة منها:

- يقولون أن لديك جارية جديدة حمقاء تربط عينها بخرقة بالية، أصحيح ذلك الخبر؟ أريد أن أراها!

- أين عقد أمي؟

ردّت "نَبرة" وهي تتحسس العقد على رقبتها:

- ها هو... عقدك يا "أُونتي"

استشاطت "أُونتي" غضبًا وهرولت تجاهها وحاولت أن تنتزعه منها، لكن "نَبرة" غرزت أظافرها في ذراعها وأبعدتها بعنف قائلة لها:

- العقد لا يليق بك، اتركيه.

التفتت "أُونتي" تجاه جاريتها التي طالما وثقت فيها وأحبّتها، ورمتها بنظرة تقطر لومًا وعتابًا، وخرجت من الغرفة والدموع تترجّح في مقلتيها. بعد ساعات من تلك العاصفة بينهما وحيث كانت "أُونتي" غارقة في أحلام يقظتها أمام شرفتها كعادتها، دلفت الجارية على عجل وهمست معتذرة إلى أميرتها، كان الندم باديًا عليها وهي تعتذر منها، احتضنتها طويلًا وكانت "مَرام" تراقبهما في صمت. وقفت "أُونتي" وهي تسترجع ما فعلته به أختها "نَبرة"، خرجت غاضبة لتسترد العقد من جناح أختها، دلفت فإذا الغرفة خالية فقد ذهب الجميع إلى ساحة القصر حيث كان الضجيج مرتفعًا فهناك حفلٌ كبير سيمتد حتى تظهر الخيوط الأولى لأشعة شمس الصباح، فتشت عن العقد فلم تجده فأدركت أن أختها ما زالت ترتديه. كادت تنصرف لولا أن عينيها علقتا بغلاف كتاب يستقر على أحد رفوف خزانة أختها، مدّت يدها وأمسكته وتسارعت دقّات قلبها عندما قرأت عنوانه، "إيكادولي"...أحبّك، تصفّحته



فوجدت صفحاته خالية، تعجّبت لخلوه من الكلام، لكنّها ظنته شيئًا خاصًا بأختها، وطالما أخفته في خزاتها فهو عزيز عليها، وتلك فرصة لكي تقهرها، أعجبها أن يكون هدية منها لحبيبها، هو بارع في الكتابة ويستطيع أن يكتب قصّة حبهما هنا، أخفته تحت ثيابها وعادت لغرفتها وشرعت تصنع منه شيئًا مميزًا وخاصًّا، قصّت أطراف ضفيرتها ووضعتها في داخله ثُمّ أغلقته ووضعته تحت وسادتها، ثُمّ ذهبت لتهمس في أذن "مَرام" التي كانت متكورة على الأرض في ركن الغرفة ووجهها مواجه للحائط حيث كانت تنام بجوار فراش الأميرة وتحت قدميها تمامًا كالليلة الماضية، أخبرتها "أُونتي" أن تستعد فهي ستوقظها بعد طلوع الفجر لتصحبها للمرّة الثانية للقاء حبيبها، ثم سلّمت رأسها للوسادة حيث بدأ التحديق مرّة أخرى في سقف الغرفة، وغرقت سريعًا في أحلام يقظتها، بينما كانت "مَرام" تبكي وتخفي عبراتها وتدفنها في وسادتها، لولا عبرات خفيّة لانقطعت الأنفاس.

في مكان آخر وفي طرقات القرية، كان "أنس" يسير بجوار "كلودة" حيث مرّا أمام بيت "أشريا"، هدّأ "كلودة" من خطواته، والتفت تجاه"أنس"، كاد يخبره أنّهما سيمرّان على بيت عمّه ليطمئنّ على "أشريا"، ودّ أن يكون ولو للحظة بالقرب من ابنة عمّه الغالية والتي ملكت فؤاده، لم يكن جائعًا كما تظن زوجة عمّه أحيانًا! تذكّر ما أخبره به "أنس" من نصائح جدّه لكي يكون مرغوبًا من الناس، قرر أن يخفف من زياراته، وأن يكون عزيزًا، أسرع بخطواته ورفع رأسه وفتح صدره، ابتسم "أنس" وهو يتابع مشيته، همس "كلودة" بعد أن ابتعدا عن البيت وقد عاد يسير متكورًا على نفسه بانكسارٍ:

- سبحانك سبحانك، يا من وسع ملكه ارحم من ضاق صدره!

كانت "أشريا" تقف خلف النافذة حيث كانت تراقب الطريق وتشبّ على قدميها لتتابعهما، تأرجحت بقامتها القصيرة على نحو خفيف، لم يمرّ "كلودة" كعادته! ما الذي تغيّر فغيّره عليها!



(١١)

هديـة الحبيب

بزغ الفجر كقبلة في ثغر الصباح الباسم فكشف اللثام عن سحب بيضاء مرتصّة كعقد من اللؤلؤ يزيّن السماء، كانت "مَرام" تهرول خلف الأميرة "أُونتي" تتسللان خارج القصر، وكانت "أُونتي" تحتضن كتاب "إيكادولي" والذي قررت أن تهديه لحبيبها بعد أن لفّته بثوب من حرير يخصّها كانت قد عطّرته بعطرها المفضّل، انسابت الفتاتان بين الأشجار ووقفتا في البستان تنتظران ظهور حبيب الأميرة، باغتتها "مَرام" سائلة إياها بعد أن كبحت تثاؤبًا وعدّلت رِبطة عينها التي ما زالت تؤلمها:

- ما هذا؟

- هديّة لحبيبي.

- لماذا تلتقيان مبكرًا في ذاك الوقت؟

- لا أستطيع أن أقابله تحت ستار الليل، البومة البيضاء تحلّق طوال الليل في البستان.

- أتخافين البوم؟

- بل أخاف أختي "نَبرة"!

- ماذا تعنين؟

- أختي "نَبرة" منذ ولادتها مسحورة!

- كيف؟



- لديها بومة ترى بعينيها رؤى متفرّقة في ظلام الليل، كلّما تجوّلت البومة تحت جنح الليل ونظرت هنا وهناك ترى أختي ما تراه، يقولون إنّها موهبة وهبت إياها، لكنني أراها لا تستحق موهبة، فلديها قلب أسود .... أظنّها مسحورة!

همهمت "مَرام" بضيق:

- تخافين أن تراكِ بومة أختك ولا تخافين الله!

تجاهلتها "أُونتي"، وكأنّها لم تسمعها، كانت الكلمات لا تقع في مرماها، لم تتأثر ولم يرفّ لها جفن، ورغم هذا.. كانت العلاقة بينهما تتنامى كصديقتين لا كأميرة وجاريتها، فالفارق بينهما عام واحد، كما أن "أُونتي" كانت تحتاج لصديقة.

من بعيد تحرّكت أغصان الأشجار وأطلّ الشاب من بينها وهو يتلفّت يمنة ويسرة، هرولت "أُونتي" تجاهه وعانقته فاستدارت "مَرام" على الفور قبل أن يُخْدش حياؤها وجلست تراقب الطريق، كانت تفكّر في طريقة تهرب بها من ذاك القصر، وتلك الصحبة التي أُجبرت عليها وهي تكرهها، مرّ الوقت ثقيلًا عليها، انتهى اللقاء وحمل الحبيب العاشق هديّته وانصرف وهو يحتضن الثوب الحريري ويشمّ العطر الذي أغرقته الأميرة به، اختفى ومعه الكتاب، وعادت الفتاتان إلى القصر.



على باب الدار وهو ينتعل حذاءه وقف "كلودة" وقد بدا الإرهاق على محيّاه وسأل "أنس":

- أتراها غضبت لأنني لم أمر عليها أمس.

- ولماذا ستغضب "أشريا" منك يا "كلودة"، هل كنت على موعد معها أو وعدتها بذلك؟

- لا، لكنني أخشى أن تكون قد غضبت.

- لا تقلق، لو سألتك لماذا لم تمرّ علينا أخبرها أنّك لم ترغب في إزعاجها.

هزّ "كلودة" رأسه موافقًا ثُمّ قال بخفوت:

- لم أذق طعم النوم، كنت أفكّر في كلامك، لقد عشت أيامًا ثقالًا ولقد رأتني "أشريا" في حال لا تسرّ.

- كيف هذا؟

- عندما مات أبي، كنت فقيرًا مشقوق الثياب، حافي الأقدام أبلى أديم الأرض كعوبي وأصابعي، لم أنتبه لمظهري هذا، ولم أحاول تعديله، لأنني لم أظن يومًا أنّ الفقر معرّة لصقت بي، كنت أراني أرفل بالنعم، وكنت أتردد عليهم في تلك الحالة، أتعلل بأي شيء لأراها، أجلس حتى يملّوا مني فأنصرف، أتراها كرهتني لهذا؟

- لا تغتل نفسك بتلك الطريقة! إن خاطبت نفسك بضعف فستبقى ضعيفًا، وإن خاطبتها بقوّة فستكون قويًا، الناس لها الحاضر، وهم يرونك كما تعامل نفسك، أنت الآن عطّار ماهر ولك دكّان خاصّ بك، اهتم بنفسك وثق في ذاتك.

- حسنًا سأفعل يا "أنس"

ثمّ سكت هنيهة وأضاف:

- أتدري يا "أنس"، أنا لا أستحقها، "أشريا" نقيّة...أما أنا...

- توقف عن ازدراء نفسك

- أنت لا تعرفني يا "أنس"...أنا لا شيء لولا ستر ربي

- كلنا كذلك

مرّ الوقت وانشغل كلاهما عن الآخر، كان "أنس" قد بدأ يألف المكان ويتعرّف على تلك التفاصيل الصغيرة في القرية، غادر بيت "كلودة" وسار قليلًا يتأمّل السوق وكلّ ما فيه، مرّ على حانوت الكتب في الطريق، ثُمّ عاد إلى بيت "كلودة" حيث استقبلته الهررة وهي تتمسّح بقدميه، كان قدرٌ كبير يغلي بينما



كان كلودة" يضع فيه شيئًا ما، عندما اقترب "أنس" وحيّاه قال متعجبًا:

- ديدان!! أتطبخ الديدان؟

قهقه "كلودة" وقال وهو يقلّب الديدان التي أضافها إلى القدر وهو يغلي:

- هكذا أعد اللون الأحمر، أستخدمه في الصباغة، ويطلبه التجار مني، كما أنني أصنع الحبر الأحمر وأركزه بنفس الطريقة.

قل "أنس" باشمئزاز:

- من الدود!!

- نعم، فتلك الديدان تفرز عصارات خاصّة، أجمعها من فوق أشجار العفص والبلّوط، أضيف عليها لحاء شجرة البلّوط نفسه مع بعض الأملاح الحامضة.

شعر "أنس" برعشة تجتاح جسده، كان مشمئزًا للغاية وهو يراقب الديدان المجففة وهي تغلي، كان كلّما غلى السائل في القدر ازداد اللون الأحمر قتامة، لاحظ"كلودة" انزعاجه فابتسم قائلًا:

- لا تحزن هكذا يا صديقي، أحيانا أستخدم الرمان.

سارا معًا تجاه قدر آخر، كانت رائحة الكركم تفوح منه، تعرّف "أنس" على رائحته في الحال، قال وهو يحاول تقليب منقوع زهور الكركم في القدر:

- اللون الأصفر الذهبي، ما أروعه.

بدأ "أنس" يتلفّت يمنة ويسرة ويراقب القدور وهي تغلي، والأوعية وما تحويها من مساحيق الألوان الزاهية، والزجاجات الممتلئة بالأصباغ والأحبار السائلة هنا وهناك، مرّ بعينيه حيث كان مسحوق حجر اللازورد الأزرق يملأ وعاء، بينما امتلأ آخر بمسحوق أسود، وبجوارهما الأصفر والأحمر، وجد نفسه يتحدّث بطريقة "كلودة" التي كان يتحدّث بها عندما التقى به

أوّل مرّة فقال بصوت مسموع:

- سبحانك سبحانك ما أجمل الألوان!

التفت يراقب الأفق ثُمّ سأل "كلودة" باهتمام:

- متى سيأتي ذاك المسئول الذي أخبرتني أنّه سيشتري منك الأحبار؟

- ربّما اليوم وربّما غدًا، إن لم يأت اليوم فلك أن تبيت معي.

ثمّ سأله "أنس" عن الكتاب الذي اشتراه أمس من الحانوت حيث التقى به هناك، تهلل وجه "كلودة"، فهو عاشق للكتب، أشار إليه ليتبعه وسارا نحو غرفته، أخرج له صندوقًا ممتلئًا بالكتب، جلس يحدّثه عن كلّ كتاب، كان الشاب يقرأ في مجالات مختلفة، بدا واسع الاطلاع ومثقفًا وأديبًا، حتى أنّه ألقى على سمع "أنس" البعض من أشعاره، قلّب "أنس" في الكتب وكان متعجبًا من روعة الخطوط فيها، أن يكون الكتاب مخطوطًا بيد كاتب يختلف عن أن يكون مجرّد صورة مطبوعة بآلة! مرّ الوقت وهما يتحدثان عن ذاك الكتاب، وذاك، وذاك، أعجب "أنس" بشخصية "كلودة"، فهو شاب ذكي واسع الاطلاع، يصبر على الحياة، جاد ومجتهد يعتمد على نفسه. لكنّه قليل الأصدقاء، خيّم الظلام عليهما ولم يظهر ذاك الرجل الذي زعم "كلودة" أنّه سيشتري الأحبار لكتّاب المكتبة العظيمة.

تركه "كلودة" ليحضر شيئًا ما، فخرج "أنس" من الغرفة إلى الساحة الواسعة أمام البيت وجلس يتأمل حفنة من النجوم كانت تزيّن السماء، بينما عاد "كلودة" إلى غرفته مرّة أخرى ومدّ يده تحت الوسادة، وأخرج الهدية التي أهدتها له "أُونتي" بحرص، أخرج الكتاب وقد كان قد بدأ يَكتب فيه بنفسه شيئًا ما، أضاف سطرًا وكتبه بخط جلي واضح وبإتقان شديد، ثم أعاد كتاب "إيكادولي" الذي أهدته له "أُونتي" حيث كان يخفيه، بعد أن لفّه بثوبها مرّة أخرى!

كيف يتأرجح القلب بين فتاتين؟ وكيف تشتاق روح واحدة إليهما في آن واحد! وكيف يكثر "كلودة" من التسبيح أمام النّاس ويقع في تلك الذلّة بين أشجار البستان حيث يلتقي بالأميرة؟ لو انكشف المستور وعلم "أنس" بذلك السرّ لانصرف عنه وهجره في الحال!

من بعيد وبينما كان "أنس" يراقب السماء لاح شبح يقترب، كانت الجميلة "أشريا"، تهرول على الطريق ويهرول أمامها قلبها، تتلحف بثوبها الفضفاض



وتمشي على استحياء، فقد لاحظت أنّ "كلودة" لم يمر على دارهم وقت الغذاء وهذا ليس من عادته! حملت الطعام له لأول مرّة، في كلمات مقتضبة ومعدودة سلّمت من بعيد وأعطته الطعام وعادت تجرّ خلفها قلبها وهو يتلقّت، كانت تتعذّب في صمت.

أقبل المساء، وبات الشابان على العشب النديّ حيث كانت الليلة دافئة، وبعد أن تناولا الطعام الشهي كانا يعقدان كفوفهما خلف رأسيهما ويتأملان صفحة السماء وكلّ منهما يسبَح في عالمه الخاص.

❐❐❐

أخيرًا انتهت الوصيفات من إزالة الحنّاء عن أقدام "نَبرة"، كانت مستلقية باسترخاء تستمتع بتدليك طبيبة القصر لجبينها بدهان زيتي منعش وقويّ الرائحة، فقد أصابها صداع شديد بعد ذاك الحفل الذي امتد حتى أطلّ الصباح وانصرف الجميع منه يترنحون، كانت قد نسيت أمر كتاب "إيكادولي" الذي لم تكتشف اختفاءه بعد، فقد كانت تئن من ألم رأسها طوال اليوم، وبعد مرور يوم كامل على اختفائه، صرخت "نَبرة" فاهتزّت نوافذ القصر وارتبك الجميع...

- أين الكتاب؟

سألتهم بغضب شديد كالمجنونة، وبدأ الجميع يفتش بارتباك، أدركت "أُونتي" أنّها سرقت من أختها شيئًا ذا قيمة كبيرة بالنسبة إليها فشعرت بنشوة الانتصار، لكنّ جاريتها القديمة والمخلصة إليها التي سلبتها إياها "نَبرة" جعلتها ترتجف وهي تهرول إليها وتسألها بهلع إن كانت قد أخذت هذا الكتاب أم لا.

ولمّا أنكرت "أُونتي" ركضت الجارية نحو الحراس تخبرهم أن يفتشوا كلّ غرف القصر، فارتبكت "أُونتي" أكثر وأدركت أن الأمر أكبر مما تتخيل، وقفت تقرض أظافرها وتفكّر سريعًا ودقّات قلبها تتوالى كطبول الحرب، عادت "أُونتي" لغرفتها بعد أن اهتدت لفكرة وأمسكت بذراع "مَرام" التي لم تكن على علم بمحتوى الهدية، لكن قد خمّنت من هيئتها أنّها كتاب لكنها لم تتخيل أنه كتاب المحارب الجديد "أنس" والذي كانت تتبعه، وقالت لها بصوت مرتعش:

- "مَرام" اخرجي الآن من القصر واذهبي إلى البستان الذي أصحبك إليه، وحذّري "كلودة"، أخبريه أن يتخلّص من الهدية في الحال، ولا تعودي فأنت حرّة.

ارتبكت "مَرام" وطالعتها بذهول وقالت:

- أحقًا أنا حرّة!!

- نعم، أخرجي فورًا وهو سيدلك على الطريق إلى القرى القريبة، اهربي يا "مَرام".

- ولكن لماذا فجأة! وما تلك الضجّة بالقصر؟ ومن التي تصرخ؟

- إنّها أختي "نَبرة"، أرجوكِ يا "مَرام" اخرجي حالًا واهربي.

ثُمّ التفتت "أُونتي" وأخرجت كيسًا ممتلئًا بالنقود وأعطته لها وقالت بجديّة:

- حذّري "كلودة" أخبريه ألّا يأتي إلا بعد أسبوع من اليوم.

- وكيف سأعرف الطريق لبيته؟

- أخبرني أكثر من مرّة أنني لو سرت في خطّ مستقيم تجاه الشرق وهبطت مع السهول تدريجيا دون أن أحيد عن استقامة خطاي، سأجد بيته وحيدًا وسط ساحة واسعة، لكنني لم أذهب يومًا إليه، كان هو من يأتيني فقد التقيت به بين أشجار البلوط المنتشرة على مقربة منّا.

ثُمّ عانقتها بقوّة وأدارتها بعنف من كتفيها وسارت خلفها تدفعها في ظهرها لتتحرّك وقالت:

- لو رأتك "نَبرة" ستأخذك مني، وربّما تبيتين الليلة حيث لا ترغبين، وفي حضن من تكرهين، وعلى حال لا ترضينها.

أدركت "مَرام" أنّها في خطر وركضت وهي تخفي وجهها كحمامة ضالّة تاهت بين الأشجار، وانطلقت تجاه ذاك المكان حيث كانت "أُونتي" تلتقي بحبيبها "كلودة" لتحذّره ليتخلص من الهديّة، وتسير معه هاربة من القصر



ومن فيه. بينما كانت "أُونتي" ترتب الكلمات في رأسها استعدادًا للمواجهة مع أختها "نَبرة".

❒❒❒

كان "أنس" يراقب "كلودة" وهو يذيب مسحوق حجر اللازورد ليعد اللون الأزرق ثم يذيبه في سائل ما ليعدّ الحبر ويصبّه في زجاجات رفيعة، قال وما زالت عيناه مثبتتين على يدي صديقه:

- لم يأت من يشتري الحبر يا "كلودة".

- وأظنّه لن يأتي اليوم، فهو لا يظهر إلا في وقت مبكّر جدًا، انتظر غدًا.

ثمّ أردف "كلودة":

- لا بدّ أن أذهب إلى الدكّان، هيّا تعال معي.

كان جليّا على "كلودة" أنّه بدأ يتعلّق بـ"أنس"، فهو يأنس به ويميل إليه، أمّا "أنس" فقد كان شاردًا يفكّر، وبعد لحظات كان قد اتخذ قرارًا حيث قال:

- سأذهب إلى المكتبة.

- ماذا!!

- أنت هالك لا محالة، هذا خطر عظيم.

- لماذا؟

- لم نسمع أن أحدهم قد ذهب إلى هناك ثُمّ عاد.

- سأعود إن شاء الله.

وثب "أنس" وبعد أن ودعه غير مبالٍ بتحذيراته انطلق يسير تجاه المكتبة العظمى، باحثًا عن أي علامة تدلّه على سبيل لاسترداد كتابه وإكمال مهمته ليعود لبيته وأسرته، لم يكن على علم أن كتابه ملفوف بعناية بثوب من حرير تفوح منه رائحة العطر تحت وسادة "كلودة"، وفور أن انسل بقامته بين

الأشجار، وبينما يستعد "كلودة" للرحيل، ظهرت "مَرام" وهي تركض تجاه بيته تعثّرت فتدحرجت على تلّة يغطيها العشب الأخضر حتى استقر جسدها أسفلها، قامت تعرج في مشيتها، وكانت ما زالت تربط عينها، مرّ يومان منذ جرحها "أنس" وما زالت تؤلمها، فقد تسبب الدهان الذي طببتها به طبيبة القصر في التهابها ولم تتحسّن حالتها.

وصلت أخيرًا ووقفت أمام "كلودة" الذي عرفها من ملابسها ومن رباط عينها فقد كان يراها بصحبة الأميرة "أُونتي"، قال مرتابًا في أمرها:

- أنت "مَرام"؟

- أوتعرف اسمي؟

- نعم.. أخبرتني "أُونتي"، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- الأميرة "أُونتي" طلبت منّي أن أحذرك.

- مم؟

- لا بدّ أن تتخلص من هديتها لك في الحال.

- لماذا؟

- لا أعرف، كما أنها تطلب منك ألّا تذهب للقائها مرّة أخرى.

- عودي فأخبريها ألا تقلق، فقد انتهى أمر الهدية، وأخبريها أيضًا أنني لا أريد....

- لن أعود!

- كيف؟

- لقد منحتني الأميرة حريتي، وأخبرتني أنّك ستدلني على القرية، أرجوك ساعدني ، لو رآني الحراس سيعيدونني إلى هناك.

جلست "مَرام" أمام الدار ترتجف، عاد "كلودة" إلى غرفته وسحب الهدية وهي ملفوفة بالثوب الحريري وقام بدفن الكتاب تحت شجرة خلف بيته في



صندوق مع العديد من الكتب القيمة التي كان يحتفظ بها، وغطاه بالتراب ثُمّ بأغصان الأشجار، وعاد فألقى بالثوب في النار التي كان يستخدمها بعد أن بلله بزيت ما فالتهمه اللهب في الحال، كان يمسك في يده تلك الضفيرة التي قصّتها "أُونتي" من شعرها ووضعتها له بين دفّتي الكتاب، ألقاها في النار ووقف يراقبها وهي تحترق، في تلك اللحظة كانت رائحة الحريق أحبّ إليه من عطرها!

قرر أن يصحب "مَرام" للقرية ويتركها سريعًا، فلو التقت بـ"أشريا" وأخبرتها بأمر الأميرة "أُونتي" ستفسد عليه حياته، سار "كلودة" غاضبًا، ماذا سيقول لـ"أشريا" لو رأته عائدًا ومعه فتاة! لا بدّ أنها ستغضب.

كانت "مَرام" تسير خلفه في صمت وقد تعرّفت الآن عليه، فملامحه لم تكن ظاهرة لها عندما كانت تقف بعيدًا عنه وعن "أُونتي"، الآن اتضحت لها عندما اقتربت منه، إنّه ذاك الشاب الذي رأته في السوق يركض مع فتاة وينادي على "أنس"، لم يترك لها الفرصة لتتحدث إليه، كان يسير غاضبًا بسرعة بينما كانت هي منهكة من طول ركضها بين السهول هاربة من القصر، طالت المسافة بينهما وكانت تسير خلفه وتراه من بعيد وهو يلتفت من آن لآخر ليتأكّد أنها تتبعه، كانت تناديه وهو يتجاهلها، أرادت أن تسأله عن "أنس"، وأراد هو أن يتخلص من صحبتها سريعًا حتى لا ينكشف أمره.



(١٢)

الخنجر!

كان الجو يزداد برودة كلّما تقدّم "أنس" في طريقه إلى المكتبة، حيث أخبره "كلودة" أنّها تقع خارج حدود القرية في منطقة نائية وحدها، تفصلها عن القرى عدّة بساتين، فضّل أن يركض بين كلّ بستان وآخر مستمتعًا بمرور الهواء البارد على وجهه، مجرّد شعوره بالبرد أو الألم يجعله على يقين أنّه ما زال على قيد الحياة!

كانت تنتابه اللهفة إلى مغازلة الخطر، بدأ حسّ المغامرة يموج في صدره. قرر أن يتوّغل ويغامر بشكل أكبر، لا بد أن يحتك بالناس بشكل أعمق وربّما يستفزّهم قليلًا، كانت تلك إحدى طرقه التي قرر أن يسلكها لكي يحسّ معها بأنّه على قيد الحياة وأن ذاك ليس حلمًا يعيش في أوهامه. كان شوقه لبيته وأبيه وأمه، وأخته، وجدّه قد بلغ أقصاه. ساعده سيره على صفاء ذهنه، وما أحوجه الآن لصفاء الذهن. مرّ وقت طويل وهو يتمشّى في عدّة بساتين، ولم تظهر المكتبة بعد!

كاد ييأس ويعود من حيث جاء، لكنّه قرر أن يجلس قليلًا ويفكّر بهدوء. أخرج ما بحقيبته من تمر أمدّه به "كلودة" قبل أن يترك بيته، وبدأ يأكل التمر وكان يحتفظ بالنويّات في كفّه، برز أمامه من حقيبته الخنجر الذي أعطاه له جدّه، أمسكه وتفحّصه بإمعان، ثم وثب واقفًا يحركه ويولجه في طبقات الهواء هنا وهناك وكأنه يقاتل شيئًا ما، لا بأس ببعض اللعب أحيانًا، ظلّ يحركه يمينًا ويسارًا وفي خطين متقاطعين، ثم قال بصوت مسموع وهو يحرّكه وهو يتذكّر مواجهته للصوص وللمجاهيم:

- ليتني أعود إلى الغابة الآن بخنجري هذا!



وفجأة انبثق أمامه من حيث كان خنجره يمرّ في الهواء راسما خطين متقاطعين شيء يشبه الانفجار الصغير، ثُمّ ظهرت فجوة تدور فيها ألوان ممزوجة تموج في بعضها البعض، انثنت والتوت حروفها كما تلتوي أحرف الأوراق وصدر دوي غريب، وتبعه صوت رياح ساحبة، وكأنّ تلك الفجوة بئرٌ معلّقة في الهواء، كان "أنس" متخشبًا في مكانه يحبس أنفاسه عندما حدث هذا أمامه، تذكّر ما قاله جدّه عن الخنجر، وأنّه سيقطع به مسافات طويلة! انحنى والتقط النويّات التي كان قد جمعها بعد أن تناول التمر وألقاها واحدة تلو الأخرى داخل الفجوة وكانت تلتقمها بسرعة خاطفة، حمل حقيبته وتراجع للخلف فسارت الفجوة معه واقتربت منه، شعر بها تسحبه إلى داخلها، وابتلعته في لحظة فاختفى.

❒❒❒

سقط "أنس" على الأرض حيث التقى بالمجاهيم من قبل، تذكّر ما قاله قبل أن تظهر الفجوة، أدرك أن الخنجر يفتح له فجوات لينتقل من مكان إلى مكان آخر، الآن عاد إلى الغابة، وثب قائمًا وركض بأقصى سرعة تجاه أشجار الياسمين التي مرّ بها بعد أن غادر بيت العجوز "ناردين"، وجدها أمامه فأسرع تجاهها وخرّ على ركبتيه أمامها يلتقط أنفاسه، بينما صاحت في وجهه:

- "أنس"! ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- فقدت كتابي.

اقتربت منه وأمسكته من ذراعه، فقام معها وسارا نحو كوخها، وجلسا حيث كانت تجلس مع "مَرام" من قبل، وبدأ يحكي لها ما مرّ به بعد أن تركها، عندما التقى بالمجاهيم ثُمّ "كلودة" الذي عاد به للغابة، ثُم اللصوص ثُمّ "أشريا" والطفلة الصغيرة، بشكل فجائي صفّقت العجوز عندما سمعت منه أنّه أخرج أشريا والطفلة من الغابة، بدا جليًّا أنها سعيدة جدًا لنجاتهما، بعد أن أخبرها أنّه كان في طريقه للمكتبة قالت بحزم:

- طالما فقدت كتابك، ولم تلتقِ بـ"مَرام"، فالأفضل أن تستخدم خنجرك وتنتقل إلى قصر "الحوراء"، لابدّ أن تلتقي بها.

أسرع "أنس" يسألها بفضول:

- ومن هي "مَرام"؟

- محاربة كادت ترحل بعد انتهاء مهمتها لكنها دخلت الغابة خصيصًا من أجلك لتحذّرك، فقد بدأتَ رحلتك قبل أن تلتقي بـ"الحوراء" و "المغاتير".

- وأين ذهبت "مَرام" الآن؟

- لا أدري... المهم، لا بدّ أن تذهب إلى قصر "الحوراء"، هيّا، قم يا فتى، الوقت يمرّ.

قامت تدفعه أمامها وتتعجله، ووقفت تراقبه وهو يحرّك خنجره في الهواء ويقول كما قال من قبل:

- "قصر "الحوراء"

تحرّك الهواء أمامه، وكأن هناك بقعة شفافة تشبه الماء تغلي وتبقبق ثم انفرجت كاشفة عن فجوة عملاقة دلفها "أنس" هذه المرّة بنفسه دون أن يتراجع، كان أكثر ثقةً من ذي قبل، وكان وصوله لقصر الحوراء أسرع.



بثيابها المحتشمة، وحيث تجللها المهابة والسكينة، وعلى كتفيها ينسدل الوشاح الأبيض كانت "الحوراء" في ديوانها تجلس بوقار، وتنتظر ظهور "أنس"، فقد حملت لها الرياح صوته وكانت تعلم أنه على وشك الوصول، انشق الهواء وأطلّت الفجوة وخرج "أنس" منها وكأنّه ولد من رحمها للتو، التفت ورأي الملكة أمامه، شعر بسكينة عندما رآها، وقف بثباتٍ وجال بعينيه في المكان يتأمّل سقف الغرفة الواسعة. قالت "الحوراء" بصوت حنون صاحبته ارتعاشة مميزة:

- حمدًا لله على سلامتك يا "أنس"، كان من المفترض أن نلتقي بك أولًا.. لكنها أقدار الله... أخبرني كيف هو جدّك؟



- بخير يا سيّدتي.

تمعّنت في عينيه ثُمّ قالت:

- لا بدّ أنّك قلق يا بنيّ؟

- لا تلوميني...أشعر وكأنني في حلم! لا أصدق ما يحدث!

ابتسمت بعذوبة ثُمّ قالت بهدوء:

- بعضُ الحقائق من فرط صدقها تبدو كحلم جميل، وبعضها من فرط قسوتها تبدو ككابوسٍ مزعج.

أردف "أنس" مكملًا كلامها:

- وأحيانًا نحن نخلق الوهم في عقولنا ونعيشه، لا بد أن ما أعيشه الآن وهم وخيال في عقلي.

- الوهم يختلف عن الحقائق، كل ما حولك هنا ليس وهمًا يا بنيّ!

- ربّما أنا أحلم، أين نحن الآن!! وما الذي يحدث؟ ما فائدة قصص قديمة كتبها أحد ما! لماذا ننبش الماضي بلا هدف.

رفعت حاجبيها وقالت:

- قد نفتش عن الماضي لبشاعة حاضرنا.. وما أبشع ما نعيشه الآن!

أومأ برأسه بأدبٍ موافقا لكلامها، ثُمّ سألها:

- أُريد أن أعرف ما دوري هنا بالتحديد؟ ومتى سأعود؟ فمنذ وصولي وأنا ألتقي بأشخاص ولا جديد حتى الآن!

قالت بعد صمتٍ قصير:

- في الحقيقة؛ أنت من عائلةٍ أصيلةٍ أبًا عن جد، حتى الإناث في عائلتك سيكون لهنّ شأنٌ عظيم إن شاء الله، شقيقتك "حبيبة" مثلًا! مميزة جدًا.

تعجّب "أنس" من ذكرها لشقيقته، كاد يسألها كيف هي مميزة! لولا أنّها أردفت قائلةً:

- لست وحدك هنا، غيرك الكثيرون، الصقور تنقلكم إلى هنا كلّ عامٍ، هناك من ينجح، وهناك من يفشل، وهناك من يتحالف مع..."كِمشاق".

- الملك؟

انتفضت بغضب وقالت بحدّة:

- ملك على نفسه، "كِمشاق" ملك مملكة الجنوب فقط.

ثم سريعًا ما تمالكت نفسها وأردفت بهدوء:

- هنا يا بنيّ ستجد جانبًا مظلمًا في مملكة الجنوب، وجانبنا الذي نرجو أن يكون هو المضيء في الشمال حيث نقف جميعًا الآن، وجانبًا غامضًا ما زلنا نكتشف أسراره خلف أستار الغابة هنا وهناك، وجانبًا لم تطأه قدم قط وذاك ربما ستكتشفه بنفسك. "كِمشاق" ومن حوله يحاولون السيطرة على المملكة كلها. ما زالوا يحاولون إغواء كل محارب يأتي، يطاردونه، يقطعون عليه الطريق، يُفشلون خططه لإظهار الحق ويدلسون لخدمة أفكارهم السوداء.

- ولكن! ليس كل من بمملكة الجنوب سيئين، هناك الخير يكمن هنا وهناك، أهل القرية طيبون، وربما هنا بالمملكة بعض الشرّ أيضًا، لكنّكم لا تعلمون عنه.

- حسنًا، طالما أنّك تدرك هذا جيدًا فأنت تعرف دورك، أنت ستخبرنا أين الخير وتدلنا عليه.

- وهل سأستطيع؟

- نعم، أنت الوحيد القادر على هذا بإذن الله.

- لماذا؟... ألا تقدرون أنتم؟

- ليتنا نستطيع! حاولنا من قبل ولم نتمكن، جربنا ولم ننجح.

هزّ "أنس" رأسه بحيرة وقال:

- لماذا المملكة هنا مختلفة! وأين موقعنا الآن.



- ستتعب يا "أنس"

- من ماذا؟

- من تكرار هذا السؤال، فأنا أيضًا حيرتني تلك القصص التي كان جدّك يخبرني عنها عن عالمكم، وددت أن أكون هناك، أن أرى ما يصفه عن عالمكم، بيوتكم، هواتفكم، الطائرات، السيارات، لكنني ..

- لكنكِ ماذا؟

أشاحت بنظراتها بعيدًا ثمّ أردفت قائلةً:

- أتعلم يا "أنس"؛ حاولنا كثيرًا إرسال بعض المغاتير لعالمكم، حملتهم الصقور لكن كل محاولاتنا باءت بالفشل، إنهم يرفضون أن نتولى نحن المهمة.

- ومن هم؟

- الكتب.

- أنت أيضًا تزعمين مثل جدّي أن تلك الأوراق تدّب فيها الحياة!

هزّت رأسها موافقة فقال بانفعال:

- ما زلت لا أصدق أن الكتب حيّة ولها إرادة!

- ألم تطر الكتب في الهواء وتلف حولك؟!

- وكيف عرفتِ؟

- هكذا تتعرف الكتب على المحاربين، هكذا اختارت جدّك من سنين طويلة، وهكذا التقيت به لأوّل مرّة هنا.

هزّ "أنس" رأسه بحيرة وقال:

- لماذا أنا؟!

- لأنّ الكتب أدركت وهي تدور حولك أنّك تؤمن بشيء ما يتحدّث عنه كتاب إيكادولي.

- ربما...

قاطعته "الحوراء" وأردفت قائلة:

- اختارك الكتاب لأنّ صفحاته أحسّت بقلبك، شمّت الرائحة في دمائك، هي تعرفك لأنّك صدّقت في نفسك شيئًا احتضنته تلك الصفحات بين سطورها وأدركتْ أنت قيمة ذاك الشيء ومعناه.

- وما هو هذا الشيء؟

- أنت هنا لهذا السبب يا "أنس"، مهمّتك أن تكتشف القيمة التي يتحدث عنها الكتاب وتدلّنا عليها لنعلمها لأنفسنا وأبنائنا ونتمسّك بها، الأمر ليس ظاهرًا جليًا بالنسبة لنا للأسف.

تذكّر "أنس" كيف كانت الكتب تدور حوله في غرفة المكتبة، وكيف كانت صفحاتها تقلب بسرعة شديدة، وكيف كان شعوره عندما رأى صورته تُرسم في أوّل صفحة. قال وهو يرجو إجابة تريحه:

- فقدت كتابي، سرقه اللصوص، فهل من طريقة لاسترده؟

على حين غفلة منهما دلف الحكيم "سامي كول" إلى ديوان ابنته، حيّته بإجلال ثُمّ التفتت تجاه "أنس" وتأمّلته بإمعان، وكان "أنس" شابًا وسيمًا مليحًا فاتنًا تقرّ بالنظر إليه العيون، قالت بعد أن استقرت عيناها على القلادة التي كان يرتديها:

- ها هو "أنس" يا أبي، نفس العينين، نفس النظرة الواثقة، يشبه أباه وجدّه كثيرًا.

قال سامي كول بعد أن أغمض عينيه:

- هذا الشبل من ذاك الأسد!

تنحنح"أنس" في ارتباك وقال بتحفّز:

- التماثل في الشكل لا يعنى التشابه في المستقبل والنهايات.. أخشى أنكم تظنون بي ما لست أنا بأهلٍ له، لم أكن يومًا محاربًا.



أدرك "سامي كول" أن "أنس" غير مرحّب بما يعيشه الآن، وأنّه قلق مما يتعرّض له، قال وهو يهزّ رأسه موافقًا:

- صدقت، وربما أنت مختلف عنهما!

ثُم أردف باهتمام:

- كنت تسأل عن طريقة تسترد بها كتابك، أليس كذلك؟

- بلى

- ربّما يساعدك حراس المكتبة العظمى، عليك أن تنتقل إلى هناك، وطالما عرفت كيف تصل إلينا، لا تتردد في القدوم هنا في أي وقت، أو عندما تتعرض للخطر.

اقتربت "الحوراء" وأضافت على كلام أبيها قائلة:

- ولا تنس أن تبحث عن "مَرام"، فقد خرجت في إثرك، وقد تعرّضت للخطر حيث اختطفها اللصوص في الغابة، عليك إنقاذها يا "أنس"

- ماذا! ولكن كيف وأنا لا أعرفها! ولا أعرف شكلها!

- وهي لم تكن تعلم كيف هي ملامحك عندما دخلت لتبحث عنك، وكان من المفترض أن ترحل وتعود لديارها.

- وما الذي أجبرها على الدخول!

- كان اسمك يظهر لها في كتابها من آن لآخر، فحذّرها أبي من أن ترحل طالما أنّك وصلت لأرض المملكة قبل رحيلها.

- ومن أي شيء حذّرها؟

كان "سامي كول" ينصت إليهما بهدوء، وكان دوره أن يوضّح الأمر لأنس، لكنه بدلا من هذا أخرج من أكمامه الواسعة ورقة ملفوفة ومدّها نحو "أنس"، فتح "أنس" الورقة وكانت خريطة فبدأ يتفحّصها بتمعّن في ما رسم فيها وهو حائر، اقتربت الملكة وأشارت له على الخطوط فيها وتتبعت خطًا أحمر وقالت:

- كان من المفترض أن تبدأ رحلتك من هنا، القصر أولًا لنشرف بلقائك وتأخذ هذه الخريطة، ثُم تسير في الغابة من هنا.

وتتبعت خطًا أخضر موازيًا للنهر الأخضر، وقالت وهي تنقر على الجهة الأخرى:

- هنا اللصوص والمجاهيم، ويبدو أنك مررت من تلك الجهة الخاطئة.

رفع "أنس" حاجبيه وقال:

- يبدو أنني أجبرت نفسي على الانخراط في اللعبة بطريقة خاطئة.

غضنت "الحوراء" جبينها وقالت وهي توقّع كلماتها:

- هي ليست لعبة!

ثُمّ أضافت:

- كان الأصح أن تسير من الجهة الشرقية حتى تصل إلى القرية، حيث تظهر أوّل جملة في كتابك وسط السوق، عندما تلتقي بأبطال القصة التي يحكي عنها "إيكادولي"، ولكنك أضعت الكتاب، ونحن الآن لا نعرف من هم أبطال القصّة تحديدًا لأننا لا نعرف متى ستظهر أول كلماته، ولهذا عندما تستردّ الكتاب عد وابدأ رحلتك من البداية واستخدم الخريطة حتى تبدأ الكلمات تُنقش في الكتاب، وأما إن عثرت عليه وقد ظهرت بالفعل الكلمات ...

- ماذا؟

- ستكون مهمتك أصعب لأنك بالفعل قد التقيت بأكثر من شخصية قبل أن نراك هنا.

- أظن أنّ مهمتي صعبة بالفعل منذ بدايتها.

لاحظ "أنس" وجود أرقام مختلفة وعشوائية مكتوبة بلا ترتيب على عدّة أماكن في الخريطة، سأل "الحوراء" وهو يشير إليها:

- ولكن ما هذه الأرقام المدوّنة هنا وهناك ؟



غضنت حاجبيها وقالت:

- هي شفرة خاصّة بين الكتاب والمحارب المسئول عنه، لن يفهمها غيره لا أنا ولا أبي ولا حتى حرّاس المكتبة... أتظن أنّك تدرك معناها؟

قال وهو ينقل عينيه بينها:

- الشيء الذي ليس له معنى الآن قد يكون له معنى لاحقًا!

صمتت "الحوراء" هنيهة وقالت:

- والآن، هيّا إلى المكتبة، فأنت تحتاج الوقت.

حمل "أنس" خنجره وعاد يحركه في الهواء في خطوط متقاطعة، انبثقت الفجوة من جديد، وألقى بنفسه فيها بعد أن أخفى الخريطة في حقيبته.



(١٣)

"كُومبو"

خرج "أنس" من الفجوة والخنجر لا يزال في يده، فوجد نفسه أمام بناء عظيم مهيب تحوطه الأشجار من كلّ الجهات، وحول تلك الأشجار وعلى امتداد البصر كانت الصحراء تبسط رمالها الذهبية إلى ما لا نهاية. تقدّم خطوة واحدة وكان واثقًا من خطاه يظن أن أبواب المكتبة ستفتّح له وسيكون الأمر سهلًا كما دلف إلى الغابة من قبل، وإلى قصر "الحوراء" منذ دقائق ماضية، لكن الأمر لم يكن كما يخاله، فقد اشتدّت الرياح فجأة وكأنّها تمنعه، وبدأت الرمال تتحرك وتبتلع جسده وكأنّها تعوقه لكي لا يتقدّم، حتى اختفى نصفه الأسفل تحتها، رفع ذراعه وحرّك الخنجر في الهواء وصرخ قائلًا:

- بيت "كلودة"

انبثقت الفجوة والرياح تخفق بأطرافها المنثنية أمامه، ودوي الرياح يصدر صفيرًا مزعجًا، لم يتمكن "أنس" من القفز في داخلها فساقيه تحت الرمال، فاقتربت الفجوة منه وارتفعت كسحابة فوق رأسه وسحبته إلى داخلها بقوة فانتقل إلى بيت "كلودة" وكانت الرمال تتساقط من ملابسه على الأرض! جلس وقتًا طويلًا يستجمع قواه، فقد هزّه الأمر وشعر أنه هالك لا محالة، أراد أن يقوم ليبحث عن شربة ماء فقد جف حلقه وفتح باب البيت حيث كان هناك شاب طويل يقف متحفزًا وفي يده عصاة غليظة، فور أن رأى "أنس" ضربه على رأسه ففقد "أنس" وعيه في الحال.

❐ ❐ ❐



أفاق "أنس" فوجد نفسه ممددًا على الأرض، مقيّد الساقين واليدين مرّة أخرى! وقف أمامه الشاب واضعا راحتي كفيه على خصره، كانت له عينان نابهتان وشعر مجعد، خصلاته داكنة، كان بريق نظراته يشي بذكاء متقد ومتحفز، بدا بهيئته وإيماءاته ونظراته وكأنّ الحياة عركته سلفًا، قال ساخرًا:

- كيف تجرؤ على اقتحام بيت "كلودة" في غيابه؟

- "كلودة" صديقي... سَلْه بنفسك!

- سننتظر إذن حتى يعود.

- ولم لانذهب إليه في دكان عطارته؟

- أوتعرف مكان الدكان؟

- أجل أعرفه.

- كاذب لأنني أعمل هناك فأنا شريكه، ولو كنت صديقه لرأيتك معه، أنت لص.

- أخبرني بالله عليك وأيّ شيء سأسرقه من بيت "كلودة"!

تفرّس الشاب في ملامحه وصمت هنيهة يفكر بتدبّر ثُمّ قال له:

- ما اسمك؟ ومن أي البلاد أنت؟

- "أنس"، وأنا... محارب!

انتبه الشاب وتحرّك في الغرفة بانفعال، اقترب من النافذة ومرّ على السماء بعينيه الناهتين، ثمّ عاد ينظر لأنس وقال له:

- إن كنت محاربًا، فأين كتابك؟

- سرقه اللصوص عندما كنت مع "كلودة" في الغابة

- ألم أخبرك بأنّك كاذب! من المستحيل أن يدخل "كلودة" للغابة!

- بل حدث عندما أنقذتنا ابنة عمّه "أشريا" وفكت قيودنا.

- كاذب، كاذب، كاذب.. من يدخل الغابة لا يعود، ولقد التقيت بـ"كلودة" منذ قليل وهو في طريقه للدكان.

- ولماذا لم تذهب معه؟

- لا تتذاكَ عليّ، أتيت لأجلب بعضًا من الأصباغ التي أعدّها لأنّه لا يستطيع العودة بتلك الفتاة التي كانت تتبعه إلى البيت هنا، فهناك من يهددها، وأظنه أنت!

- أقسم لك أنه صديقي وأننا دخلنا الغابة و"أشريا" هي التي أنقذتنا عندما فكت قيد "كلودة" بذاك المسحوق الذي أذاب الحبال.

قالها "أنس" بضيق وهو يتأفف، فقد طفح الكيل، كلّما شعر أنّه يتقدم خطوة للأمام يتعثر في شيء ما، حكّ الشاب ذقنه نصف النامية وقال وهو يتفحّص ملامح "أنس" بتمعّن:

- حسنًا، سأفك قيد قدميك وستسير معي لدكان "كلودة" ولنرَ ما سيقوله، وإن كنت كاذبًا فستنال مني ما لم تنله في حياتك.

سحب الشاب خنجر "أنس" والذي كان قد استولى عليه وقطع الحبال التي كان يربط بها ساقي أنس، ودسّه في حزام بنطاله، وسحب "أنس" وسار معه نحو دكان "كلودة"

سار الشاب يدفع أمامه "أنس" بقسوة، اصطك الرعد فانهمر المطر مدرارا، بروق متوالية انقدحت في السماء، كانت القرية في هذا الوقت ترزح تحت موجة صقيع شديدة، جعلت الأمطار كلّ شيء موحلًا رطبًا، سريعًا ما وصلا إلى الدكان حيث حملق "كلودة" في وجهيهما والماء قد أغرقهما بالكامل وقال:

- "كُومبو"!!

- "كلودة" هذا الشاب يزعم أنّه صديقك.

أسرع "كلودة" يفك قيد "أنس" ورشق "كُومبو" بنظرة تقطر عتابًا ولومًا وقال له:

- إنه صديقي "أنس"



من خلف "كلودة" أطلت "مَرام" برأسها وقالت بغضب:

- وأخيرًا ظهرت!

مرّ على وجهها بعينيه البندقيتين بينما كان يتحسس معصميه متألمًا من أثر القيد، تعرّف عليها في الحال، طالعها باستغراب وقال بضيق:

- أنتِ؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

دفعه "كُومبو" في كتفه وقال بصوت حاد:

- لماذا تتحدث إليها باشمئزاز هكذا!

- رأيتها في السوق وعليها ثياب خليعة!

استشاطت "مَرام" غضبًا وندّت منها صرخة مكتومة وأشارت لعينها وقالت بصوت لم تفلح في ضبط نبرته:

- خطفني تجّار العبيد، وسقوني شيئًا ما وألبسوني تلك الثياب رغم أنفي، وكنت أناديك لتحررني منهم، لكنّك بدلًا من هذا قذفتني في عيني وهربت!

ثُمّ خلعت الرباط عن عينها فإذا بها متورمة وحولها هالة زرقاء، أضافت وما زالت تنتفض غضبًا:

- اسمي "مَرام"، أرسلتني الملكة "الحوراء" من أجل...

تذكّر "أنس" ما أخبرته به "الحوراء"، فقاطعها وقد أشفق عليها عندما رأى ما حدث لعينها وقال معتذرًا:

- آسف...ظننتك من الـ....!

اصطبغ وجهها بلون كرزي، شعرت بإهانة شديدة، وكأن "أنس" قد مرر السكين على الجرح مرّة أخرى، فقد كان خلعهم لحجابها وكشفهم لجسدها أثقل ما حدث لها منذ وصلت لتلك المملكة العجيبة، وكانت قد تعبت مما لاقته خلال الليالي الماضية، قالت وهي تكزّ على أسنانها:

- عد إلى قصر "الحوراء"، لا بدّ أن تلتقي بالملكة في الحال.

- وكيف سأعود وليس معي كتابي.

- كيف!

- سُرق مني في الغابة وأنا أبحث عنه.

- فلنعد للقصر على أيّ حال، لا بدّ أن تُعيدني سريعًا.

- لن أرحل بدون كتابي!

رفعت سبابتها نحوه وقالت بتحفّز:

- وأنا أريد أن أعود لدياري، ولن أسير في الغابة وحدي مرّة أخرى، أنت السبب في كلّ ما حدث لي، وعودتي إلى القصر هي مسئوليتك!

ولم يكن من السهل عليه أن يثق بها من أول لقاء، فلم يخبرها عن أمر الخنجر وانتقاله عبر الفجوات، وبينما يتحدثان اعترضهما "كُومبو" ووقف بينهما بقامته الطويلة وقال:

- أي ملكة تتحدثان عنها؟ أريد أن أعرف قصتكما من البداية.

قال "كلودة" وهو يناول "مَرام" كوبًا من الماء بعد أن لاحظ توترها وجفاف شفتيها وهي تتحدث إلى "أنس" بغضب:

- استريحي واهدئي، يبدو أنّك مررت بالكثير.

ثُمّ قال لـ "كُومبو":

- كم أنت فضولي يا "كُومبو"!

سألته "مَرام" وهي تعيد ربط عينها في ارتباك:

- لماذا اسمك "كُومبو"... أليست تلك الكلمة تعني السمين!!

قهقه ثم أجابها:

- عندما ولدت كنت سمينًا، فاختار لي أبي ذاك الاسم، وبقيت سمينًا طوال حياتي، وها قد فقدت سمنتي منذ عامين وما زال ذاك الاسم عالقًا بي.



دلف الجميع إلى الدكان، وباختصار قصّ "أنس" على "كُومبو" ما أراد أن يكشفه له، وأخفى عنه ما أراد أن يخفيه، واستعاد خنجره، وبقي "كلودة" قلقًا وخائفًا من أن ينكشف أمر علاقته بالأميرة، كان يفكّر في طريقة يتخلص بها من "مَرام" بسرعة.

وكانت "مَرام" تتمنى أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد نفسها في بيتها، متى ستعود!

❒❒❒

في الطريق وحيث اتفقوا على أن تبيت "مَرام" ليلتها في بيت "أشريا" بينما يذهبون لبيت "كلودة"، كانت "مَرام" تسير خلفهم وهي غاضبة، تريد أن ترحل الآن، رفعت رأسها تبحث عن "قطرة الدمع" هنا وهناك، لم تعد تظهر لها في نفس اللحظة التي تفكر بها في الحال، كما كان يحدث، تلك كانت ميزة تبعث في نفسها الاطمئنان، لكن يبدو أنّها فقدت تلك الميزة! تمهّل "كلودة" في سيره قليلًا واقترب منها وأعطاها زجاجتين صغيرتين وقال:

- خذي، ضعي قطرة من هذا السائل في عينك قبل النوم، ثُمّ ضعي هذا الدهان على الجفن وما حوله، سيخفف من تورّم عينك إن شاء الله.

انكمشت "مَرام" وهي تقول:

- لا... لقد قمت بدهنها من قبل في القصر بذاك الدواء الذي أعطته لي الطبيبة هناك، فانتفخت عيني وأصبحت الدموع تسيل منها على الدوام.

- لا تخافي، جربيه.

بعد تردد أخذتهما ثُمّ قالت له:

- حسنًا، شكرًا لك.

- أرجو منك ألا تخبري أي أحد بما بيني وبين الأميرة "أُونتي"، حتى زوجة عمي وابنتها "أشريا" التي ستبيتين في بيتهما الليلة.

- اطمئن، سأستركما، رغم أنكما لا تستحقان!

- أهكذا تردين الجميل لأميرتك التي أطلقت سراحك؟

- قلت سأستركما! ولكنني أكره فعلكما!

التفتت مبتعدة عنه، كانت تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها وتلفظها في بيتها في الحال، وصلا سريعًا إلى بيت "أشريا"، التي انزعجت في البداية عندما رأت "مَرام"، ثُمّ سريعًا ما انفرجت أساريرها عندما علمت أنّها محاربة، على نحوٍ سريع تآلفتا، وباتتا ليلتهما تتحدثان عن الأميرة "هيلا"، كانت "أشريا" قد سمعت عنها، لكنها لم تكن تعلم قصتها بالتفصيل، خفف هذا عن "مَرام" التي كانت تغلي، كم هو مهين أن يظن بها أحدهم أنها فتاة لعوب، وكم هو قاهر ما مرّت به من ذل وهوان، وكم تؤلمها عينها الآن.





(١٤)

في بيت "كلودة"

مرّت الليلة هادئة حيث استسلمت "مَرام" للنوم العميق حتى الظهيرة، بينما كان "أنس" في صحبة "كلودة" و"كُومبو" في دكانهما منذ الصباح الباكر، كان قد اتخذ قرارًا قبل أن يغمض عينيه الليلة الماضية، وهو أنّه سينقل "مَرام" إلى قصر "الحوراء" قبل أن يعود للمكتبة العظمى، لقد لاقت الكثير بسببه، وكان يشعر بالذنب والمسئولية تجاهها، كما أنه كان يشعر بالضيق كلّما تذكر اللحظة التي قذفها فيها بالحجارة في عينها، أساء بها الظن وظنّها فتاة لعوبًا وكانت المسكينة تستغيث به لينقذها، كان يسترجع ما روته له عن ذاك الشاب الذي غطاها بوشاحه وحملها إلى القصر، وكيف نجاها الله مما كانت تخشاه بأن اختارتها أميرة هناك لتكون وصيفة لها، جلس ينتظر انتهاء "كلودة" من عمله ليذهبا معًا لبيت "أشريا".

مرّ معظم النهار ولم يبق إلا القليل منه. على الباب، وبينما يتعالى صوت زوجة عمّه وهي تقترب لتفتحه، كان "كلودة" يقف ومعه "أنس" ينتظران، أطلّت برأسها من فرجة الباب، أخبرتهما أن "أشريا" حملت إليهم الطعام إلى بيته مع "مَرام"، فقد ظنت أنه لن يأتي كالمرة السابقة، انصرف مع "أنس" متوجهًا لبيته، راوده شعور بالارتياح، فما دامت تحمل له الطعام فهي لا تعرف شيئًا، كانت "مَرام" صادقة، ستسترهما وإن لم يعجبها فعلهما.

كان بيت "كلودة" رغم بساطته يوحي بالدفء، غرفتان فسيحتان يفصل بينهما جدار حجري لا يصل إلى السقف، لا أثاث يذكر سوى فراش من الليف مغطى بقماش من الكتان المصبوغ، الكثير من الحقائب القماشية المعلّقة على الجدران، يبدو أنها تحتوي على الملابس وأشياء أخرى، في أركان البيت تناثرت عدة وسائد محشوّة بريش الطيور صنعتها "أشريا" كما قال لهم وهو يتنقل

بسرعة بين الغرفتين.

جلسوا في شُرفة واسعةٍ تطل على فناء الدار، بينما انصرف "كلودة" ليحضر بعض الحطب ليشعل النار ويسخّن القدر الممتلئ بالطعام فقد برد سريعًا حتى أن الدهن بدأ يكوّن طبقةً جامدة على سطحه، وضعت "أشريا" أمامهما وعاء خزفيًا مكسور الحافّة به بعض حبّات الفاكهة الشهية حتى تقوم بتسخين الطعام، لم تمدّ "مَرام" يدها، وكذلك لم يفعل "أنس"، فقد فقد كلاهما شهيّته، كان الشعور بالغربة يقبع على صدره، أمّا هي فكانت خائفة.كانت "أشريا" تنقل عينيها بينهما وأطرقت تفكّر طويلًا.

مدّ "أنس" يده في جيب سرواله وأخرج ساعته، لو انتبه إليها اللصوص في الغابة في أول يوم وصل فيه لسرقوها منه، عاد يحاول إصلاحها، ما زالت عقاربها مكانها متوقفة وكأنّه خارج الزمان والمكان، نادى "كلودة" على "أشريا" لتساعده والتي كانت تراقبهما بفضول شديد. كانت "مَرام" مرتبكة، بدأت تفرك يديها بتوتّر، لاحظ "أنس" الكثير من علامات الجروح على ظهر كفيها، ووجنتيها، وكأنّها خرجت من معركة مع قطٍ شرس، بدأ "أنس" يتفحّص ساعة يده بإمعان، ضحك بسخرية فظنّت "مَرام" أنّه يسخر منها ويسترجع في ذاكرته ما حدث في السوق يوم قذفها بالحجارة فأصاب عينها، باغتته سائلة بضيق:

- ما يضحكك!

قال ساخرًا:

- لن تعود الساعة للعمل، يبدو أننا نعيش بين ثانيتين، الوقتٌ هنا ضائع.

قالت بحدّة:

- لا أظنّ وقتنا هنا ضائعًا أبدًا، بل كلّ حياتنا السابقة هى التي كانت ضائعة.

التفت إليها فتلاقت عيناهما، انزوت نظرتها بحياءٍ بعيدًا عن وجهه، مرّت دقيقة من الصمت اللطيف قبل أن يسألها "أنس" بصوتٍ خافت:

- ماذا تقصدين بأنّ كلّ حياتنا الماضية كانت ضائعة؟

- عندما يصل المحاربون يكونون بلا هدف، ولعلك كُنت بلا هدف قبل مجيئك إلى هنا.



- وما أدراكِ؟

- مجرّد ظن!

شعر "أنس" أنها تتحدث إليه بتحفّز، ربّما لما فعله عندما رآها أوّل مرّة، وما ظنّه بها، رنا إليها سريعًا فرأى عينها المتورّمة فأشفق عليها وسألها:

- كيف هي عينك الآن؟

تحسستها بأناملها بحرص وقالت دون أن تنظر إليه:

- هي أفضل.

- أعتذر مرّة أخرى.. سامحيني.

- لا عليك.

طارت فيها نظرة من نظراته فلاحظ جمالها على استحياء وسألها:

- كنت تقولين إن المحاربين يكونون بلا هدف عندما يصلون، ثُمّ يتغير حالهم..فما هدفك أنتِ الآن؟ أخبريني؟

غاصت في نفسها مفكّرة وقالت:

- أن أعيش حياتي كلّها في الضوء، لا أودّ أن أختبئ وإن أخطأت، وإن فشلت، وإن كان بي خطب ما! ثُمّ أموت على ما أؤمن به.

- ومن منا لا يطلب هذا!

ثمّ سألها بفضول:

- كم عمرك؟

- ثمانية عشر عامًا.

- ماذا تدرسين؟

- الآداب

- وأنت؟ كم عمرك؟ وهل تدرس شيئًا ما؟

لاح شبح ابتسامة على وجهه وقال بسخرية:

- سأُتم الثالثة والعشرين قريبًا، كما أنني درست بالفعل شيئًا ما.

التفتت إليه تنتظر أن يكمل كلامه فأردف مجيبًا:

- درست الهندسة.

كانت "مَرام" تستغرب تغيرًا بدأ يحدث في مشاعرها، فرغم غضبها الشديد منه، ورغبتها في ضربه على عينه حتى يتألّم كما فعل بها، فقد بدأت تشعر بانجذاب نحوه! يبدو لطيفًا عندما يعتذر لها!

أطرق "أنس" للحظات ثُمّ عاد يسألها:

- كيف بدأ الأمر معك؟

ارتبكت "مَرام" وشعرت بالدماء تصعد لوجنتيها، وكأنه قرأ أفكارها ويسألها كيف بدأ أمر إعجابها به!! تمتمت تستوضح السؤال، قال موضحًا:

- أقصد مجيئك إلى هنا... كتابك؟ صقر حملك مثلا!!

حاولت "مَرام" أن تبدو متماسكة فمدّت يدها وأمسكت بحبّة تفاح وجلست تحملق فيها وهي تروي ما حدث لها:

- جدّتي مغرمة بالكتب، تعشق القراءة، لديها مكتبة عظيمة، الكثير من المجلدات القديمة، منها البعض يحوي قصصًا نوبية قديمة.

- هل تلك الكتب تخصّ أيضًا الأمير "أواوا" ؟

- لا، إنّها تخصّ "دهل كول".

- ومن هو "دهل كول" هذا؟ أميرٌ نوبيٌ أيضًا!!

- لا.... تلك الكلمة لقب نوبي وتعني...المجنون!

- وهل يكتب المجنون الكتب!!



- في الحقيقة هو لم يكن يومًا مجنونًا، لكنّ من حوله لقبوه بهذا الاسم فقد كان صادقًا ذاك الحد الذي يجعلك تظنّه مجنونًا.

هزّ "أنس" كتفيه مستغربًا وقال:

- الأسماء كلّها غريبة! "أبادول"، "سامي كول"، "دهل كول"، "إيكادولي".

التفتت "مَرام" تجاهه وكأنّ الكلمة الأخيرة قد استفزت حواسها وقالت:

- كلّها ألقاب نوبية ما عدا "إيكادولي" ليست لقبًا بل هي كلمة تعني...

قاطعها "أنس" بتلقائيةٍ وهو ينظر إليها قائلًا:

- أُحبّك!

أطرق كلاهما بخجلٍ، واصطبغ وجه "مَرام" بحمرة خفيفة، ألقت بالتفاحة التي لم تمسّها في الطبق الخزفي وكادت تنصرف لولا سؤاله لها بعد أن استدارت:

- لماذا لم ترحلي طالما تم استرداد كتابك كما تقولين؟ كان الخيار لك!

التفتت تجاهه في حرجٍ وقالت:

- كنت مضطرّة، لا أحد يستطيع دخول الغابة إلّا المحاربين.

- لماذا؟

صفق صوت الرعد الذي ارتج له بدنها الهزيل، فقد بدأ المطر يهطل بغزارةٍ فأسرع كلاهما إلى الداخل حيث جلسا بهدوء في بيت "كلودة" الذي كان يعد الطعام مع "أشريا" ، جلس كلّ منهما في غرفة، كان "أنس" يفكّر في حال "مَرام"، كيف كانت تتحدّث بتلك الرّقة! إنّها تشبه قطعة البسكويت الناعمة، لو أغرقها المطر ستذوب!

تمدد "أنس" على الفراش وعقد كفيه خلف رأسه وحملق في سقف الدار وهو يجترّ ما مرّ به منذ وصوله لبيت جدّه، فهذا ليس وقت الفتيات، طالما أزعجته الفتيات، همس لنفسه:

- ليس هذا وقت الفتيات! ليس وقتك يا "مَرام".

ناداهما "كلودة" فخرج كل منهما من غرفته لتناول الطعام، تنحنح "أنس" ثُمّ قال لها بصوت جاهد ليخرجه منضبطًا:

- "مَرام"، لا بدّ أن أعيدك إلى القصر، حان وقت عودتك لأهلك، لا بدّ أن أطمئن عليك قبل أن أعود لأبحث عن كتابي.

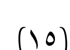
- أرجو ذلك وبسرعة

- لكننا سننتظر حتى يتوقف المطر، والأفضل أن نؤجل رحيلنا للغد حتى ندخل الغابة في أوّل النهار

هزّت رأسها موافقة، ويبدو أن هذا قد أراح نفسه بطريقة ما، التفت يطالع السماء وقد راق له أنها ستبقى ليلة أخرى. كان هناك شيء ما يتلجلج في صدره، إحساس لم يعهده من قبل، وخزة في قلبه موجعة على نحو ما لكنّها لطيفة، وكأن شرارة تتذبذب بين ضلوعه، وقف بجوار "مَرام" بعد تناول الطعام أمام باب الدار تحت مظلة بدت كقبّة تحمي مدخل الدار كان "كلودة" قد صنعها من جريد النخل، كان كلاهما يراقب المطر في صمت، هدأت ثورة غضبها أخيرًا، ستعود إلى البيت، كانا ساكنين وكأنهما حرفان متجاوران على سطر في رواية، حاء وباء... و ربما سيكون بينهما الكثير....







(١٥)

النهر الأخضر

فجرٌورديٌ شاحبٌ يبزغ على القرية مبشّرًا بنهارٍ مشرق، فتح "أنس" عينيه عندما تناهى لسمعه صوت ديكٍ يؤذّن، اعتدل في فراشه ولثوانٍ راح يتساءل عن المكان الذي يوجد فيه وعمّا حدث له، عاد وعيه إليه ببطء، نهض بوثبة واحدة واقترب من النافذة، توضأ من كوب الماء الفخاري الذي كان على الطاولة بجواره وصلّى الفجر، كان يحتاج لتلك السكينة، تلك السجدة التي تحتويه فتعيد إليه صوابه.

بعد لحظات سمع طرقات خفيفة على النافذة من الخارج، أسرع يقترب منها فإذا به "كلودة" الذي أشار إليه بهدوء ليتبعه، كانت "مَرام" قد خرجت الليلة الماضية بعد انتهاء المطر مع "أشريا" لتبيت معها ببيتها، حمل "أنس" حقيبته وتبع "كلودة"، خرجا معًا حيث كان "كُومبو" ينتظرهما، حوارات لطيفة تبادلوها معًا عرف منها بعض المعلومات عن الحياة في أرجاء القرية. أفطر سريعًا وتناول قدحًا من مشروب ساخن لطيف مع "كُومبو" الذي أسرع نحو دكان العطارة، بينما انسل "كلودة" وصعد السهول ليجمع عشبًا ما! هكذا أخبرهما قبل أن ينصرف. جلس "أنس" أمام الدار والأفكار تتناطح في رأسه، كان قد أخبرهما أنه سيعود مرّة أخرى لتلك الغابة، لا بدّ من استرداد كتابه، ما زال يخفي اسمه عن الجميع كما نصحته العجوز "ناردين".

كان البيت على أطراف القرية، مشّط "أنس" المكان بعينيه وجلس يتساءل في نفسه، لا يرى أيّ مظهر من مظاهر التقدّم هناك، لا أجهزة، لا سيارات، لا تلفاز! الصقور تنتقل إلى مدينته وعالمه الذي يعيش فيه، وها هو هنا، فهل انتقل أحد من أهل المملكة أيضًا إلى نفس المكان؟

وأين تقع تلك المملكة؟

لعله حلمّ، رفرف هذا الاحتمال في أعماقه لكنّه لم يرح نفسه، بل زاد من توتّره.

وصل إلى مكان حيث تأكد ألا أحد يراه وأخرج خنجره وحركه في الهواء وقال وعلى وجهه استقرت نظرة تصميم:

- الغابة

انبثقت الفجوة تتلاعب في الهواء بألوانها المائجة في بعضها فوثب فيها وانتقل للغابة في الحال، اقترب من شاطئ النهر الذي ينحدر مصبه جوار الجبال البعيدة خارج الغابة ثم يقتحمها ويشقها حتى نهايتها، وبدأ يسير موازيًا له، كان لون الماء الأخضر يسرق نظراته، راقب انعكاس صورته في الماء، كانت الملابس الجديدة رغم غرابتها تليق به، عدّل من قميصه بينما كان يسير، فور أن خطت قدماه أرض الغابة والتي كان النهر يشقّها من بدايتها لنهايتها تغير انعكاس صورته في الماء فجأة! تسمّرت قدماه بالأرض! انقطعت أنفاسه عندما رأى انعكاس صورته في الماء، كانت الصورة لصقر أبيض! كان الصقر يسير موازيًا لخطوات "أنس"، تراجع "أنس" للخلف فتراجع الصقر معه، عادت صورته العادية عندما لامست قدماه الأرض خارج الغابة! وكان هناك تحت قدميه خط واضح يميز أرض الغابة عن الأرض خارجها.

عاد وخطا للأمام فظهرت صورة الصقر مرّة أخرى، وكأنّه يتقدّم موازيا له! رفع ذراعه اليمني فرفع الصّقر الجناح المقابل لها، لوّح بذراعه اليسرى فرفرف الصقر بجناحه المقابل، تراجع للخلف حتى اختفت الصورة، ثُمّ عاد وتقدّم للأمام فظهر الانعكاس مرّة أخرى، قرّب رأسه فبدأ انعكاس صورة وجه الصقر يزيد كلّما اقترب "أنس" بوجهه من صفحة الماء... همس لنفسه بفزع:

- أنا صقر!... صقرٌ أبيض!

ثُمّ تمتم محدّثًا نفسه:

- لا يُعقل أن يكون الصقر محبوسًا تحت الماء!

مدّ يده في الماء وغمسها فيه وحرّكها، كان الماء باردًا وخفيفًا، تـــــلاعبـت



صورة الصقر على صفحة الماء واهتزت لكنّها لم تتغيّر، انحنى وهو يحدّق في عيني ذاك الصقر الأبيض الذي يطالعه ورفع كفّه الممتلئة بالماء وشرب منه، كان مذاق الماء شديد العذوبة، ما زالت صورة الصقر الأبيض تنعكس على الماء، يشرب كما يشرب، يتحرك كما يتحرّك.

تلفّت حوله وبحث عن غصن شجرة، عثر على غصنٍ طويلٍ فأمسكه وعاد لشاطئ النهر، كانت المياه تتدفّق نحو الشمال، غرسه في الماء ليقيس عمقه فابتلع النهر الغصن وسحبه بقوة من يده، تعجّب وعاد باحثًا عن غصنٍ آخر وتكرر الأمر، في المرّة الثالثة وبينما يضع الغصن بحرص في مكان آخر جذبه شيء ما بقوّة شديدةٍ فسقط في النهر، سحبته تيارات الماء بقوةٍ إلى أسفل وكان يقاوم بينما تشكّلت حوله دوامة جعلته يغوص في الأعماق، كأن هناك ضوءًا ينير قاع النهر، ابقى عينيه مفتوحتين كعادته عند السباحة، ولأنّه اعتاد على كتم أنفاسه لدقائق طويلة لم يشعر بضيق في التنفس، تلفّت حوله باحثًا عمّا جذبه فلم يظهر له شيء، بدأ يحرّك جسمه نحو الضوء، شيئًا فشيئًا بدأ يقترب من مصدره، كانت هناك فتحة دائرية تحفّها الطحالب الخضراء من كلّ جانب، أدخل رأسه فيها فأذهله المنظر الرائع فدخل في الحال وبدأ يسبح للأعلى فالأعلى حتى رفع رأسه فإذا هو في مغارة غطت جدرانها الطحالب الخضراء المضيئة، صعد على الأحجار واقترب يتحسسها بيده، أراد أن يقتطع جزءًا منها فمدّ يده واستلّ الخنجر الذي كان يخفيه في حزام بنطاله، بدأ يقطع الطحالب فإذا بها تسقط بين يديه تباعًا وكأنّها متصلة برباط واحد! ليظهر خلفها كتابات غريبة على الجدران، بدأ يزيل بقاياها واحدة تلو الأخرى وانهمك في الأمر حتى خلا الجدار من الطحالب، تراجع للخلف فإذا هي عبارات مكتوبة بلغة غريبة، كان بينها رموز مرسومة لم يدرك كنهها، تمنى لو أنّه يستطيع قراءتها، لكنّه لم يتمكّن.

على يمينه كان هناك ممرّ طويل، استند إلى الجدار ورفع رأسه ونظر بتأنٍ وكأنّه يدرس طوبوغرافية المكان، تناهى إلى سمعه أصوات عجيبة، وكأنّها أحاديث مبهمة يتردد صداها في جوف الممر! سار فيه لمسافةٍ قصيرةٍ وكانت الطحالب الخضراء على الجدران تنير الطريق، توقف حيث بدأت العتمة تغشى الممر، وإذا بضوءٍ يشع من حقيبته، أخرج الكيس الجلدي الذي وضعه الجدّ من حقيبته، إنّها قطع الكريستال! والتي كانت قد تحولت لقطع من

الفحم عندما داهمه اللصوص في الغابة، وها هي قد عادت لحالتها الأولى تبرق من جديد!

أمسك واحدة منها فازداد توهجها وأنارت الممر، سار حتى بدأ وهجها يخفت بالتدريج فاستبدلها بأخرى، شعر أن ذاك الممر لا نهاية له، كانت هناك فتحة علوية يتسلل منها ضوء الشمس، على الجدار كانت هناك بروزات حجرية على مسافات منتظمة وكأنّها دَرج يُستخدم للصعود تجاه تلك الفتحة، تسلّقها في الحال واقترب من الفتحة، كان غطاء الفتحة مصنوع من خشب غليظ وقويّ، صنع بإتقان بحيث يعلو فوق سطح الأرض بمساحة ضئيلة جدًا لا تظهره بينما على جانبيه كانت هناك فتحة مستطيلة ورفيعة تتيح للناظر مراقبة الطريق ورؤية من يقف فوق رأسه بوضوح، رأى "أنس" فتاة جميلة تجلس وتغنّي بصوت خفيض، تتلفّت يمينًا ويسارًا وكأنّها تنتظر وصول شخصٍ ما! وثبت من مكانها فجأة فظنّ "أنس" أنّها انتبهت لوجوده تحت قدميها، لكنّ الشاب الذي اقترب من مكانها كان هو سبب وثوبها فرحًا بقدومه، قالت وعيناها تقطران حبًا وشغفًا:

- كنت أعلم أنّك لن تصبر وستأتي في نفس الموعد؟ هل تخلصت من الهدية؟ وهل أنت بخير؟

أومأ برأسه ففهمت أنه قد تخلّص منها، ثُمّ تراجع وجلس يلهثُ كفرسٍ جريح وقال:

- أنا بخير، وددت فقط أن أخبرك بشيء هام.

ابتسمت برّقة وقالت بصوت متهدّج:

- خشيت ألّا أراك مرّة أخرى.

سار مبتعدًا وقال بصوت يشوبه القلق:

- قد لا تريني مرّة أخرى بالفعل.

أغلقت فمه بيديها على الفور، ثم قالت :

- لا تقل هذا.... أرجوك.



عانقته بينما كان يقاومها ويبعد يديها عنه وفجأة! قطع حوارهما نداءٌ من فتاة أخرى تغطي وجهها بطرف خمارها وتصيح في فزع:

- مولاتي.. مولاتي.

أسرع الشاب بالهروب وبقيت الفتاة مكانها تتلفّت في خوف، نظر "أنس" تجاه الشاب قبل أن ينصرف وتمعّن في وجهه، إنّه...."كلودة"!! والذي كان قد بدأ يظن أنه ملاك يسير على الأرض!

كان "أنس" يشعر وكأن هناك من سكب معينًا من الماء الساخن فوق رأسه، كانت دماؤه تفور وتغلي، أراد أن يصرخ ويقفز فوق الأرض فيحطم رأس "كلودة"، اقتربت جارية من تلك الفتاة وأخبرتها أن تسرع إلى القصر، فالأميرة "نَبرة" تطلبها في الحال!. بعد انصرافهما حاول أنس أن يزيل الغطاء ليصعد من الفتحة لكنّه لم يتمكن من رفعه، عاد لسيره داخل هذا الممر العجيب.

وجد "أنس" فتحة ضيقة يبدو أن هناك من سدّها بالحجارة، بدأ يزيلها واحدة تلو الآخرى بحرص شديد، عندما أزاح بعضها وأصبح من السهل أن يدخل رأسه ليرى ما وراءها ألقى واحدة من قطع الكريستال فسقطت على الأرض وتوهّجت بقوة فأضاءت المكان، تملكته الدهشة عندما وجد غرفة مستديرة تبدو كأنها نُحتت في جوف صخرة عملاقة، أزال باقي الأحجار الصغيرة ودلف الغرفة وقد تملكته الرهبة، وجد تابوتًا في صدر تلك الغرفة، وآخر عن يمينه، كان غطاء كل منهما يبدو كتحفة فنية رائعة، حيث وزعت النقوش العجيبة عليهما بشكل هندسي بديع وطعّمت بألوان زاهية، شذرات ذهبية كثيرة كانت منتشرة على الأرض هنا وهناك، وكأنّ هناك من حطّم شيئًا ما! فتح "أنس" التابوت يتوقع أن يجد مومياء، فأجفل عندما رأى هيكلًا

عظميًا على صدره قلادة تشبه التي يرتديها! والتي جعلت "المجاهيم" يتركونه يمرّ بسلام، على وجه الهيكل العظمي كانت هناك بقايا قناع ذهبي محطّم، أدرك أنّ هناك من حاول نزع القناع أو ربّما نزعه وأعاده إلى مكانه فتسبب في تلك الفوضى، فضّل ألا يلمسه واتجه إلى التابوت الآخر، وكان أصغر حجمًا وكأنّ صاحبه أقصر طولًا، فوجد هيكلًا عظميًا آخرًا بلا قناع وبلا قلادة! تلفّت يمينًا ويسارًا فلم يجد ما يلفت نظره، كانت الغرفة خالية وباردة ومهيبة، تشبه القبر! أغلق التابوت الثاني، وعاد للأوّل فأغلقه، وقبل أن يخرج من

الغرفة انطفأ بريق قطعة الكريستال فجأة، وشعر "أنس" وكأنّه يسقط في بئر سحيق، ابتلعه الظلام، ودارت رأسه فغاب عن الوعي لفترة لا يعلم قدرها! فتح عينيه فوجد نفسه في نفس الغرفة وقد غمرها النور، وأمامه يجلس رجل مهيب الطلعة له سحنة مريحة ونظرة هادئة وابتسامة وديعة، وعلى يساره يجلس رجلٌ قصيرٌ لم يرفع عينيه عمّا أمامه، فقد كان مشغولًا بالكتابة على أوراق البردي باهتمام شديد، اعتدل "أنس" وحاول أن يتحدّث لكن صوته لم يخرج من حلقه، رفع يده يتحسس عنقه ثُمّ فمه فلاحظه الرجل وقال شيئًا ما بلُغة لم يفهمها "أنس"، كان يرفع كفّه وهو يحدّثه، بدت تعبيرات وجهه مسالمة ومطمئنة، لكن "أنس" لم يفهم شيئًا من كلامه، اعتدل الرجل في جلسته وأقام ظهره، ثُمّ نصب عنقه وأغمض عينيه ووضع كلتا يديه على ساقيه، ثم ركز في عيني "أنس" وقال الكثير من الجمل، واحدة تلو الأخرى، كرّرها أحيانًا ثلاثًا، وبعضها كان يقولها وهو يشرحها بيديه، جملة منها قالها وهو يُمسك بالقلادة على صدره، وأخيرًا قال تلك الكمة التي قلبت حياة "أنس" رأسًا على عقب... "إيكادولي"..."إيكادولي"

كررها كثيرًا ثُمّ اختفى كلّ شيء، وأفاق "أنس" من تلك الإغماءة التي أصابته، فوجد التابوتين على حالهما، فخرج من الغرفة وقد حفظ الكلمات، كان يكرر ما قاله الرجل بالتفصيل! وكأنّه طبع الكلمات بتلك اللغة الغريبة على ذاكرته ولقّنها له! شعر بإرهاق ذهني كبير، فأخرج خنجره وحرّكه في طبقات الهواء، قرر أن يعود من حيث أتى وبطريقة سريعة فسلك فجوة فتحها بخنجره كما فعل من قبل وانتقل إلى سطح ماء النهر، جلس منهك القوى، كان الماء لا يزال يقطر من جسده، سار لمسافة قصيرة مخلفًا وراءه غدرانًا صغيرة من الماء على الأرض، وصل أخيرًا إلى جذع شجرة مقطوعة فجلس عليه يلتقط أنفاسه.

لا بدّ أن يعود لـ"كلودة" ويسأله عن تلك الفتاة! ولماذا يفعل هذا! كانت تلك الصورة المثالية التي رسمها لـ"كلودة" في ذهنه قد بدأت تتحطّم، ظنّه شابًا رائعًا في كلّ شيء، ولكن يبدو أنّه خبيث يظهر غير ما يبطن ويخدع الناس.

انتشل نفسه من هذه الأفكار،وبدأ يفكّر في العبارات التي حفظها ويكررها



وهو لا يفهم كنهها، والكتابات الأخرى التي رآها على الجدران في المغارة، خلع قميصه ليعصره فأزال القلادة عن عنقه دون قصد منه فلمح طيفًا فأسرع يرتديها مرّة أخرى، كان زعيم "المجاهيم" الذي انشقت عنه الأرض و اقترب منه قائلًا:

- انتبه لقلادتك لتحمي نفسك، ما زال أحد رجالنا غاضبًا منك لأنّك أخرجت الفتاة والرضيعة من الغابة وألبستهما القلادة، وحافظ عليها إكرامًا لجدّك "أبادول"

ردد زعيم "المجاهيم" لقب الجدّ بإجلال وهو يضع يده على صدره، استدار لينصرف... فأسرع "أنس" ينادي عليه ويستمهله، سأله عن تلك الغرفة التي عثر عليها أسفل النهر، والقلادة التي رآها على صدر الهيكل العظمي داخل التابوت، وذاك الرجل الذي رآه فيما يشبه الغفوة السريعة، قال زعيم "المجاهيم" بعد أن أنهى "أنس" كلامه:

- إنه تابوت الأمير "أواوا"، كان هنا منذ وقت طويل جدًا، هاربًا من عمّه ومعه خادمه المخلص "سربل"، دلفا إليه من خلال فتحة في أرض حديقة قصر عمّه، ما زالت الفتحة موجودة، وما زال القصر قائمًا حتى الآن، وما زال الظلم يسكنه، تتجدد جدرانه ويتجدد معها الحاكم الظالم في مملكة الجنوب، كنت أجلس دون أن يراني الأمير "أواوا" وأستمع إلى ما يمليه على خادمه من حكم وقصص، ورأيته يكتب على جدران ذاك الممر تحت النهر عبارات كثيرة.

قاطعه "أنس" متعجبًا:

- وهل كنت تفهم لغته؟

- بالتأكيد! وقد أظهرت نفسي له ولخادمه، وتحدّثت معه، كان هذا قبل أن نسكن الأرض هنا، نشأت بيننا صداقة وأخبرته عن قصّة قومي وكان ينصت لي، عدت في مرّة من المرّات ووجدته مقتولًا هو وخادمة، فأحضرت تابوتًا له وآخر لخادمه، ودفنتهما كما كان يفعل قومهما، وألبسته قلادة تخصّني إكرامًا له.

- حسنًا، سأخبرك ببعض العبارات التي سمعتها من شخص ما أظنه الأمير "أواوا"، رأيته فيما يشبه الرؤى عندما فقدت الوعي داخل تلك الغرفة أسفل النهر.

وبدأ "أنس" يُكرر ما سمعه بتلك اللغة التي لا يعرفها! وكان زعيم "المجاهيم" ينصت إليه باهتمام ويترجم له، أخبره أنّ تلك هي لغة الأمير "أواوا"، اللغة النوبية الأصيلة، كان الأمير يطلب منه أن ينتبه لما هو قادم، فهناك من يطلبه ويطارده، وأن عليه ألا يقع في الفخّ. وطلب منه أن يهتم بالأرقام، ويسأل عنها ويتتبعها، فهي المفتاح لكي يصل إلى الحقيقة.

لم يتمكّن "أنس" من تذكّر آخر كلمات الأمير "أواوا"، كرر الأمير عشر مرّات كلمة "إيكادولي" وتبعها بعبارات كثيرة وكأنّه يشرح شيئًا ما! لكنّ "أنس" لم يتمكن من إعادة إلقائها على مسامع زعيم "المجاهيم" ، انتهى اللقاء واختفى الزعيم بعد أن جدد تنبيهه لـ"أنس" بألا يخلع القلادة وهو يسير في الغابة، وعاد "أنس" لسيره بجوار النهر، ما عادت صورة الصقر الأبيض المنعكسة على صفحة الماء تشغله، ألفها كما ألف كلّ شيء غريب حوله، وكأنّه يعيش على أرض تلك المملكة منذ أمد بعيد.

على غير العادة هبّت رياح دافئة فبدأت ملابسه تجفّ، وكأنّ الهواء يربّت على كتفيه ليشجعه على البقاء، والصمود.

وفجأة......



(١٦)

الغابة

مرّ من أمامه سهم كاد يخترق صدغه، تخشّبت أطرافه، بينما خرجت منها صرخة عالية! وقفت أمامه مرتبكة وهي تضع يدها على فمها، هرولت نحوه وقالت بصوت يحمل قدرًا من الانفعال والدهشة:

- آسفه، لم أنتبه لمرورك.

- "مَرام"! ماذا تفعلين هنا؟

- أتدرّب على الرمي بالقوس.

رفعت قوسها واستدارت وأشارت بيدها لما تحمله على ظهرها، فرأى كنانة السهام وقد علّقتها على ظهرها.

اقترب "أنس" منها ولاحظ ملابسها المتسخة وكأنّها قد تدحرجت للتوّ في الوحل! كسرت طرفها وكأنّما أشفقت أن ينظرإليها وهي بتلك الهيئة المزرية، فسكتت ولم تنبس ببنت شفة، كانت لديها نظرة شفافة كالبلور، تبدو تلك الفتاة على فطرتها نقية، حاول أن يتحدّث ليزيل عنها الحرج فثقل عليه ذلك، من دون أن يعرفها من قبل.. بدأ يحسّ أنّ لديهما شيئًا ما يربطهما، وكأنّهما يقتسمان الوجع نفسه، أطرق مفكّرًا ثُم قال:

- من أين أتيتِ بهذا القوس؟

مدّته نحوه بلطف فأمسكه وبدأ يتفحّصه أمامها وهي تقول:

- من شاب يمتهن صناعة الأقواس والسهام وأشياء أخرى، دكانه يقع قريبًا من بيت ""أشريا".

رمقها سريعًا فلاحظ آثار الوحل على وجنتها، لاحت ابتسامة على شفتيه، يبدو أنّها لا تعلم أنّ وجهها ملطخ بتلك الطريقة، أخفى ابتسامته وسألها متصنّعًا الاهتمام وهو يعيده إليها:

- ومن علّمك الرمي بالسّهام؟

- "الصهباء".

- ومن هي "الصهباء"؟

- امرأة جلدة وقويّة البنية، التقيت بها بعد أن وصلت إلى المملكة، تدرّب معظم فتيات مملكة الشمال على الرماية.

سألها باهتمام:

- كم ثمن القوس؟

- يختلف حسب حجمه.

- ما اسم العملة التي يستخدمونها هنا؟

أخرجت من جيبها كيسًا من الجلد يحتوي على بعض العملات الفضية، والذي كانت قد أعطته لها "أُونتي" قبل أن تعتقها وأعطته له وهي تقول بلطف:

- لو التقيتَ بالمغاتير أوّلًا لأمَدّكَ "الزاجل الأزرق" بالمال، فالحوراء لا تترك محاربًا يمضي دون مال أبدًا.

- أعطاني "كلودة" بعض المال بالفعل، وددت فقط أن أتأكد من اسمها، فقد اختلط عليّ الاسم، احتفظي بالمال، فأنا لا أحتاجه الآن، شكرًا لك يا "مَرام".

"مَرام"! لقد نطق باسمها!.. وقعت تلك الكلمة منه موقعا بليغًا في نفسها، فلم تذكر أنّها سرّت بكلمة قيلت لها من كلمات الإطراء سرورها بنطقه لحروف اسمها.."مَرام"! وكأنّها لم تعرف اسمها من قبل.

أخرجت عملة من الكيس وقالت:



- كِشتان.

ثُمّ رفعت العملة أمام عينيها وقالت وهي تُحملق في الصورة المنقوشة عليها:

- وتلك صورة أوّل محارب على أرض المملكة.

انحنى "أنس" وحدّق في الصورة، كان كلاهما يركزّ على العملة، لولا أنّها حركت يدها فجأة فغرس شعاع عينيه دون قصد في عينيها فتلاقت نظراتهما مجددًا كيوم أمس على غير موعد، عيناه الواثقتان وفوقهما حاجباه اللذان لو زحفا قليلًا لاقترنا أصاباها بالارتباك، كانت تلك المرّة كافية لكي يلاحظ فيها لون عينيها الرائعتين، كما لاحظ أن تورم عينها المصابة قد خفّ وتغير لون الهالة الزرقاء حولها للون آخر، أشاح بنظره عنها، مرّت بذاكرته صورتها وهي بزينتها في السوق عندما رآها أوّل مرة، تعجب كيف كان متضررًا عندما رآها أوّل مرّة، وكيف الآن يجد في نفسه استحسانًا لها وهو يسترجع صورتها في مخيلته! استبعد الخواطر التي هجمت على رأسه متكالبة تزيّنها له! فالتفت وكأنّه ينفض رأسه، بات يشعر بالخطر لمجرّد قربها منه، هو غريب عنها فكيف يسير هكذا معها! لا بدّ أن يحفظها من نفسه.

غمره شعورٌ غريبٌ فيه رهبةٌ وفيه ضيقٌ وفيه شيءٌ من الفرح! رمقها بطرف خفيّ ثُمّ قال:

- هل واجهتِ متاعب في معاملاتك مع الناس هنا؟

- بالتأكيد

- هل لديهم بعض المعتقدات الغريبة؟

- مثل؟

- أي شيء! الناس يختلفون، مثلا قرأت أنه من الخطأ في إحدى البلاد أن تهدي زهورًا لشخص بعدد زوجي لأنهم يعتبرونه فألًا سيئًا ومزعجًا لأنها لا تهدى بعدد زوجي إلا في الجنازات فقط.

- لكننا لسنا في تلك البلاد ولا في أي بلد تعرفها أنت من قبل.

- نعم، ليتنا كنّا هناك... أو في أي مكان أستطيع فيه أن أخاطب أمي بالهاتف، فقد اشتقت إليها.

- أتكره المملكة هنا؟

- لا أدري، أشعر بمزيج من المشاعر، لكنني لا ريب أشتاق لأهلي.

- ربما لو انتقل أهلنا معنا لكانت أفضل من عالمنا

- نعم... ربما

- أتدري يا "أنس"، بعض من التقيت بهم هنا يقولون إن قصص الحياة لا بد ألّا تدوّن، يريدون أن تكون الحياة على هوى من يعيشها، لحظة بلحظة، استمتع بحياتك فقط ولا تهتم بالماضي ولا تفكّر في المستقبل واغنم من الحاضر لذّاته فليس من طبع الليالي الأمان.

سارت "مَرام" تجاه سهمها والذي استقر في جذع شجرة قريبة منهما لتقوم بنزعه مرّة أخرى، انزلقت قدمها وكادت تسقط في الوحل مرّة أخرى، أسرع "أنس" وحاول أن يمسك يدها قبل أن تسقط، اضطربت وأبعدت يدها عن يده وكأنّ نارًا ستلسعها فتراجعت إلى الوراء وعيناها الزائغتان لا تفارق وجهه. مرّت لحظات قبل أن تستعيد توازنها، قال وهو يجول بنظراته في المكان متفحّصًا أرضه:

- لماذا تتمرنين في تلك المنطقة، وما حاجتك لهذا التمرين أصلا؟ الأرض زلقة! كانت تُمطر طوال الليل!

تلوّن وجهها حياء منه، فقد جاءت تبحث عنه بعد أن أخبرها "كُومبو" عندما ذهبت تبحث عنه في دكان العطارة أنه سيقصد الغابة، فاشترت قوسًا وسهامًا وهرولت به نحو الغابة، كانت تخشى أن يرحل لمكان ما ولا تعثر عليه مرّة أخرى، وهي تودّ العودة لديارها سريعًا، قالت بانفعال:

- كيف أتيت للغابة دون أن تمرّ عليّ لتصحبني؟ ألم نتفق على أن تعيدني اليوم إلى القصر؟

- كنت سأمرّ عليك، أتيت على عجلٍ لأمر ما، وكنت سأعود

ثُمّ قال وعلى وجهه تلوح ابتسامة:

- تذكرينني بأختي "حبيبة"، تشبهك كثيرًا، نفس العصبية ونفس الطريقة في الهروب من السؤال



- أيّ سؤال!!

- ما حاجتك لهذا التمرين! ولم تلك المنطقة بالذات! أنت ضعيفة البنية ولا تحتاجين إلى قوس وسهم، حتى أنني حائر كيف أمضيت رحلتك مع كتابك هنا!

قالت على استحياء:

- لا أستطيع التوغل في الغابة وحدي أكثر من ذلك، هنا تحلّق الصقور فوق الأشجار وأستأنس بوجودهم، أمّا داخل الغابة فكلّما توغّلت قلّ الأصدقاء، أخشى أن يعود تجّار العبيد مرّة أخرى.

- تجّار العبيد واللصوص يمرّون في الجهة الغربية من النهر، لا تخافي فنحن في الجهة الشرقية.

ثُمّ تنهّد وسألها وكأنّه يسأل طفلة صغيرة:

- لا بدّ أنّك تشتاقين لبيتك يا "مَرام"؟

ترقرقت دمعة في عينيها وقالت بتأثّر:

- نعم ...أوحشتني أُمّي كثيرًا.

- ووالدك؟ وأشقاؤك؟

- والدي توفاه الله وأنا صغيرة، وليس لدي أشقاء.

- آسف.

- لا عليك.

أخرج خنجره وقال لها بجدية:

- اسمعي، ذاك الخنجر أستطيع أن أنتقل به من مكان لآخر، انتقلت به لقصر "الحوراء"، كما انتقلت اليوم إلى الغابة بسرعة، سأفتح فجوة في الهواء الآن وأنقلك إلى القصر.

كانت "مَرام" تحدّق في وجهه باستغراب، حرّك خنجره في الهواء وقال "قصر الحوراء" فانبثقت الفجوة المتلونة أمامهما، كانت الألوان تموج في بعضها البعض، وقفت "مَرام" مرتبكة أمامها، سألها "أنس":

- سأدخل قبلك

- لا تتركني وحدي هنا!

- ادخلي إذن قبلي.

- لا...لا

- لا بدّ أن يدخل أحدنا قبل الآخر، هيّا يا "مَرام"

- لا أستطيع دخول هذا الشيء! ربّما هو شيء خاص بك، وأنا أخاف!

- هيّا يا "مَرام" سيختصر هذا الكثير من الوقت، بدلًا من أن نسير تلك المسافة الكبيرة

- الأفضل أن نسير..لن أدخل هذا الشيء..مستحيل!

قالت جملتها الأخيرة صارخة، كانت تبدو مرتبكة وخائفة للغاية، اختفت الفجوة فجأة وكأنّها كانت تنصت لحديثهما!، ران عليهما صمتٌ ثقيل ،كلاهما يتحرج من تواجده مع الآخر، لكنّهما يأنسان ببعضهما، أراد "أنس" أن يُخفف عنها، طلب أن يجرّب القوس، تناوله منها وقال مازحًا:

- قوسك خفيف جدًا، يبدو كاللعبة!

مدّت يدها إلى كنانة السهام وسحبت سهمًا وناولته له قائلة:

- جرّب بنفسك.

- أراك تقفين قريبًا من مرماكِ، الشجرة تبعد عنك عشر خطواتٍ تقريبًا.

- لا أحسن الرمي إن ابتعدت أكثر من تلك المسافة.

رفع "أنس" أحد السهام أمام عينيه وقال:



- اخبريني يا "مَرام" ما معنى تلك الأسماء؟.."كلودة"، "أُونتي"، "أشريا"، "نَبرة"!

ارتبكت "مَرام" عند سماع الاسم الأخير وسألته بارتياب:

- "نَبرة"! أين سمعت هذا الاسم؟

هزّ "أنس" كتفيه، فضّل ألا يخبرها عن النهر وما حدث فيه وقال مدعيًا اللا مبالاة:

- سمعت أحدهم يذكر الاسم أمامي.

دارت بعينيها في المكان وقالت وما زالت علامات القلق مرسومة على وجهها:

- "كلودة" أي المولود بعد الشهر السابع وهو من أسماء الذكور الشائعة هنا، و"أُونتي" تعني القمر ليلة البدر، "أشريا" تعني الفتاة السمحة والحلوة، أمّا "نَبرة" فتعني... المرأة الجميلة، وكلّها أسماء نوبية قديمة.

حرّك"أنس" كتفيه وقال:

- الأشخاص هنا غرباء!، أشعر أنهم من بلاد مختلفة، يختلفون في الملامح والملابس! حتى البيوت تختلف!

- كل قرية هنا تختلف تمامًا عن الأخرى.

- وكذلك الأشخاص... أليس كذلك يا "مرام"؟

رفعت "مرام" حاجبيها وقالت:

- ربما اختلطت الأنساب، ومرّت سنون طويلة، ورحلوا من مكان لمكان.. نحن نعيش الآن في مكان عجيب، هناك العديد من القرى حولنا، الغابة تعتبر شيئًا منفصلًا يهابون الاقتراب منها، لكن ما يحيرني هو تلك القرى.

- ما بها!

قالت "مَرام":

- كل قرية تختلف عن الأخرى، لو دخلتها وتعاملت من سكانها ستشعر وكأنّك قد انفصلت عن القرى الأخرى وما فيها، حاول وجرّب بنفسك.

- هل جرّبت أنتِ من قبل؟

- بالتأكيد.

- وماذا رأيتِ؟

- لا أدري كيف أصف لكَ...لكنّها تجربة تستحق، وتبقى مملكة الشمال حيث قصر "الحوراء" أحبهم إلى قلبي.

- ولماذا؟

- لأنني هناك.. أشعر بالأمان يا "أنس".

- بالمناسبة، هل تعلمين يا "مَرام" أين نحن الآن؟، أين موقع تلك المملكة على الخريطة؟

- لا... لا أعرف يا "أنس"... أشعر أحيانا أننا بين السطور، نُرفع ونُجرّ ونُكسر من أجل المعاني.

ابتسم بسخرية ثُمّ قال:

- إذن نحن في مملكةٍ لا محلّ لها من الإعراب.

وضع "أنس" السهم في كبد القوس ورفع ذراعه بثباتٍ،باعد بين ساقيه

وأغلق إحدى عينيه وركّز الأخرى على الهدف، جذب السهم بقوّة ثم كتم أنفاسه وتركه فجأة ليستقر في وسط بقعة سوداء كانت على جذع شجرة بلوط اتخذتها "مَرام" مرمى لسهامها، ابتسمت عندما رأت السهم وقد رشق فيها وقالت بإعجاب:

- يبدو أنّك ماهرٌ جدًا يا "أنس".

- المسافة قصيرة، لا بدّ أن أتدرّب على الرمي من مسافات أطول، ولكنني لا أظنّ أنني سأحتاج للقوس والسهام هنا! أليس كذلك؟

- ربما تحتاجها، حاول أن تتعلم كلّ شيء في تلك المملكة.

ثم تفحصت ملابسه بنظرة سريعة، كانت أطراف سرواله ما زالت مبتلّة، سألته بفضول:



- هل سقطت في الماء؟

- نعم.

- أين؟

- النهر الأخضر.

- ماذا قلت؟

- النهر الأخضر... ذاك النهر الذي يقطع الغابة، تعرفينه بالتأكيد!

- اتبعني أرجوك.

سارت "مَرام" بخطوات سريعة نحو النهر، بدت متحفزّة وزاولتها حالة نشاط فجائي، تخطّت الأشجار الكثيفة التي تفصل المكان الذي كانا يقفان فيه عن شاطئ النهر ووقفت على حافّته دون أن تلتفت لـ"أنس" الذي تبعها حتى وقف بجانبها ونظر كلاهما لانعكاس صورته في الماء، قالت بصوت خافت:

- أرأيت!

حملق في صفحة ماء النهر وقال بهدوء:

- نعم رأيت، صقور بيضاء.

- هكذا تظهر صورنا في الماء، صقور بيضاء، نحن المحاربون فقط من تظهر صورهم على سطح ماء هذا النهر بتلك الطريقة.

- لماذا يا "مَرام"؟

- لا أدري! أخبرتني "الحوراء" أيضًا أننا نستطيع التحليق والطيران داخل نطاق الغابة وحول الجبل الأحمر، وإن حاولنا وتدربنا سنتقن الأمر، لكنني لم أجرؤ يومًا على تلك الفعلة، حاولت القفز مرّة على درج القصر وحلّقت للحظات فراودني شعور بالخوف الرهيب، حاول أن تجرّب يا "أنس"

- لا أظنني سأفعلها! ولن أجربها!

- حاول أن تجرّب كل ميزة تعرفها عن نفسك كمحارب، فلقد فقدتُ الكثير من مميزاتي التي اكتشفت بعضها ولا أدري السبب!

عاد "أنس" يحملق في صورة الصقر المنعكسة على سطح ماء النهر وسألها:

- وماذا عن "الحوراء" و "الزاجل الأزرق" هل تظهر صورهما أيضًا هكذا؟

- أتمزح! "الحوراء" وعشيرتها!! لا يجرؤ أحد منهم على دخول الغابة يا "أنس".

- لماذا؟

- يفقدون أبصارهم، لا يرون إلّا الظلام، وربّما يفقدون حياتهم، تلك الغابة قد تبتلع كل أهل المملكة في لحظة .

- ولم أنتِ هنا إذن! ألا تخافين؟

- كنت أخاف، وأرتجف، لم أجرؤ على دخول الغابة إلّا بعد أن شجعتني "قطرة الدمع".

- ومن هي؟

- أنثى الصقر التي أحضرتني إلى هنا، ألم ترها؟ إنّها زوجة "الرمادي".

أشارت "مَرام" إلى وادٍ على أطراف الغابة بالقرب من الجبل الأحمر جهة الشرق، أخبرته أنّ "الرمادي" و "قطرة الدمع" يعيشان هناك في كوّة بالجبل، كانت المسافة طويلة، ترددا قليلًا قبل أن يقررا السير إلى هناك، فقد رفضت "مَرام" استخدام الخنجر للانتقال إلى هناك، ما زالت تخاف، كانت تأمل أن تحملها "قطرة الدمع" وتعيدها في الحال إلى ديارها. بعد نحو ساعة من السير وصلا إلى هناك. حلّق "الرمادي" فوقهما وشاركته "قطرة الدمع" واقترب كلاهما من "مَرام" و "أنس" ووقفا أمامهما يؤديان التحيّة، قال "الرمادي":

- مرحبا "أنس" ، أتيت في الوقت المناسب، حمدًا لله أنّك عثرت على "مَرام".

- مرحبا يا صديقي.

قالت "مَرام" بتلهّف:



- "قطرة الدمع" كيف أنتِ؟ وكيف هو جرحك؟

أجابتها "قطرة الدمع" وهي تحرّك جناحها:

- بخير كما ترين

- هل ستعيدينني الآن إلى بيتي؟

نكّست "قطرة الدمع" رأسها وقالت:

- ليس قبل أن يصدر "سامي كول" الأمر المباشر لي يا "مَرام"، تعلمين أن الأمر ليس بيدي.

- إذن احمليني إلى القصر

- لن أستطيع

- حتى القصر!... لماذا!

- هذا أمر من الحكيم "سامي كول"، لن أحملك إلّا بتوجيه مباشر منه

بدا الإحباط الشديد على "مَرام"، ولاحظ "أنس" ما أصابها، كان يرزح تحت موجة عنيفة من الشعور بالذنب تجاهها، أراد "الرمادي" أن يخفف عنهما فقال موجها كلامه لـ"أنس":

- شاركانا احتفالنا بالزواج.

لم يترك له "الرمادي" فرصة سؤاله! بل حلّق في الحال، التفت "أنس" نحو "مَرام" وسألها بتعجّب:

- ألم تخبريني أن "قطرة الدمع" زوجته؟

- بلى أخبرتك، وهي كذلك بالفعل، ولكننا نشهد احتفالا بطريقة ما، يعود الزوجان إلى نفس الموقع الذي عششا فيه كل عام، حيث يؤديان عرضا لمراسم الزواج ليُجددا الروابط فيما بينهما، وعندما يتودد الذكر إلى أنثاه يقوم بتقديم طريدة لها، ويتضمن هذا العرض عددا من الحركات البهلوانية واللولبية في الجو، بالإضافة لغطسات جويّة حادة، وكي تستطيع

الأنثى أن تتلقى الطريدة فإنها تطير بطريقة عكسية وتلتقطها بمخالبها من قوائم الذكر.

وقف "أنس" يراقب الحركات البهلوانية التي يقوم بها "الرمادي" حتى ينال رضاء زوجته، وتابعها وهي تشاركه التحليق برشاقة، علت وجهه ابتسامة واسعة، سأل "مَرام" عن سبب تسميتها بـ "قطرة الدمع" فقالت له:

- لأنها من أسرع الطيور على أرض المملكة ، تبدو في هيئتها كقطرة دمع وهي تهبط على فريستها، تطير لعلوّ شاهق ومن ثم تقوم بغطسة جويّة حادّة وسريعة لتضرب بعدها أحد جناحي طريدتها كي لا تؤذي نفسها عند الاصطدام.

مرّ الوقت وهما يتجوّلان في الغابة، بدأت بطن "أنس" تقرقر من الجوع وكذلك كانت "مَرام"، مالت الشمس للغروب واكتست الدنيا حلّة ذهبية بديعة. ودّعا "الرمادي" و"قطرة الدمع" وبدأت رحلة عودتهما، سألته "مَرام" باهتمام:

- ما خطوتنا التالية؟ هل سنكمل الطريق إلى القصر الحوراء؟

- نستطيع أن ننتقل إلى هناك في لحظة! فلنستخدم الخنجر وننتقل من خلال فجوة

- لا...لا

- سأعيدك سريعًا يا "مَرام" لا تخافي

- ماذا لو خرجت منها إلى عالم ثالث لا أعرف كنهه ولم أجدك هناك! يكفي ما مررت به.. يكفي، سنسير على الأقدام

بدا عليه الضيق، فهي تصعّب الأمور:

- حسنًا، فلنعد لأننا أقرب الآن إلى القرية منها للقصر، ونعود غدًا ومعنا بعض الطعام، وربّما نستعين بحصانين، أودّ أن أعيدك سريعًا حتى أعود للبحث عن الكتاب، لا بدّ أن أحصل عليه بأسرع وقت، حاولت الوصول إلى المكتبة العظمي كما أخبرتك، لكنني لم أصل إليها، ولست على يقين من



وقوعه في يد الملك "كِمشاق". ربّما ما زال مع اللصوص، ألم تسمعي عن ذاك الأمر وأنتِ هناك؟

- إن أردت أن تسأل فاسأل "كلودة". فله أصدقاء هناك بالقصر.

- ماذا!! "كلودة"!!

أدرك "أنس" أن المكان الذي رأى فيه كلودة مع فتاة من خلال تلك الفتحة في الممر قرب النهر الأخضر تقع في بلاط القصر وما حوله. كان يحدّق في الفراغ بينما أكملت "مَرام" قائلة:

- اطلب منه أن يسأل أصدقاءه هناك عن الكتاب. بالمناسبة. لاحظت أنك تتجنب الحديث عن اسم الكتاب أمامه، وكأنّك تخشى أن يعرف عنوانه.

- بالفعل هذا ما أفعله. حذّرتني السيدة "ناردين" من أن أخبر أحدًا بعنوان الكتاب. إلا من أثق به.

ثُمّ أومأ إليها فشابت نفسها السعادة أنه يثق بها. وقد أخبرها باسم كتابه في بيت "كلودة" من قبل. أردف قائلًا بتأثّر:

- هل أخبرتك "أشريا" عن الرضيعة التي عثرنا عليها في الغابة؟

- لا

- هلا سألتها عنها وعن حالها. وكيف ترعاها زوجة الخباز؟ يبدو أنها و أمها يتوليان رعايتها. فلم أر "كلودة" يحضرها إلى البيت. وكنت قد سمعته يخبر زوجة الخباز التي ترضعها أنّه سيعود كل ليلة ليحضرها لتبيت معه. لكنّه لم يفعل!

- يا مسكينة!... حسنًا سأفعل. لكنني لم ألاحظ وجود رضيعة بالبيت!

- سمعت أنّ "أشريا" ترفض الزواج من "كلودة" وهذا يُحزنه.

رفعت "مَرام" حاجبيها في استغراب وقالت:

- كيف هذا! لقد طلبها أمس للزواج بالفعل ووافقت. وقريبًا ستُزفّ إليه!

استشاط "أنس" غضبًا، يبدو أن "كلودة" يتلاعب بتلك الفتاة الرقيقة، يخدعها ويطلبها للزواج ويتصنع الهوان والضعف ويخونها مع غيرها! وفوق هذا يظهر التنسّك ويكثر التسبيح وهو....!!

أكملا سيرهما صامتين، سيسأله بالفعل عن الكتاب، وإن كان قد وصل للقصر أم لا، وسيسأله عن أشياء أخرى.

عادت "مَرام" لدار "أشريا" وسألتها فور أن وصلت عن الطفلة الرضيعة كما أوصاها "أنس"، لكنّها أخبرتها أنها لا تعرف عنها شيئًا!، وأنكرت أمرها تمامًا!

ظلّت "مَرام" تثرثر معها وكأنّها طفلة صغيرة وقد رجعت للتو من يومها الأوّل في المدرسة، كانت "أشريا" تراقبها وتُنصت لحديثها بفضولٍ، أدركت أنّ "مَرام" تُضمر الحبّ والإعجاب لـ "أنس"، عرفت ذلك من نظرات عينيها المنكسرة، وفلتات حديثها ونشاطها عند كلامهما عنه.

عندما أرخى الليل عباءته المرصعة بالنجوم على سماء القرية كانت "مَرام" تجلس ساهمة في غرفة "أشريا" تلوم نفسها على تلك المشاعر التي بدأت تحاك في نفسها تجاه "أنس"، كيف تعجب به! وذاك يتعارض مع وعدها لأمّها أن تحافظ على قلبها، أدركت اليوم فقط أن لا سلطان لها على قلبها، لكنها بلا شكّ تملك أفعالها الظاهرة. عندما تسير معه غدًا ستحاول أن تصلح ما بنفسها من أمره، وذاك ما عجزت عن إصلاحه طوال اليوم وهي معه، ربما..لن تتكلم معه طوال الطريق! ولن تنظر إلى وجهه! أو ربما تطلب منه أن يستخدم الخنجر وتنتقل فورًا إلى القصر ثمّ إلى بيتها، لكنها تخاف هذه الفجوات التي تحرّك في الهواء! كانت تشعر أنّ قلبها يقفز من بين ضلوعها عندما تفكّر في "أنس"، جلست تتآكل في صمت.



- لماذا لم تمرّ علي في الدكان؟

سأله "كلودة" عندما رآه يجلس أمام البيت وعلى وجهه تتمشى علامـــات



الضيق والغضب، لم يجبه "أنس" فظنّ "كلودة" أنه متعب أو محبط لأنه لم يعثر على كتابه بعد، قال يخفف عنه:

- لا تحزن يا صديقي.

رشقه "أنس" بنظرة جعلته يرتبك، تراجع خطوة وسأله باستنكار:

- ما بك؟ ولماذا تنظر إليّ هكذا!

- ما ذنب "أشريا"؟ أتخدعها وتزعم أنّك تريد الزواج منها وأنت تعشق غيرها؟

- إذن أخبرتك "مَرام"! كنت أعلم أنّها لن تسترنا.

- تستركما!!!!

- أخطأت عندما طلبت الستر من بشر! والآن أنا أطلبه من الله.

- عجبًا للناس يطلبون الستر وهم عاكفون على المعصية! أنت تخشى الناس ولا تخشى الله!

- والله أخشاه.. والله أخشاه... لكنني ضعفت! والآن تبت.

- كاذب!! لم تخبرني "مَرام" أي شيء، رأيتك بعيني وأنت معها اليوم، رأيت بنفسي ولم يخبرني أحد، أين ذكرك وتسبيحك؟ ظننتك ناسكًا عابدًا!!

- ما رأيته اليوم كان آخر لقاء لنا!!

- أنت كذّاب! كنت تراودها عن نفسها وتراودك عن نفسك

- "أنس"..أرجوك! أنت لا تفهم شيئًا، إن كنت هناك حقًّا ورأيت، ألم تلحظ أنّها هي التي كانت تلقي بنفسها عليّ اليوم وكنت أدفعها! لقد أخبرتها أنّها لن تراني مرّة أخرى.

ثم أردف وقد تظللت عيناه بالدموع:

- "أنس"... رفقًا بي، رفقا بمن وقع في المعصية ثُمّ عاد، أنا الآن أعرف قيمة التوبة أكثر منك، لأنني وقعت في المعصية بعد أن استقام حالي ثُمّ ندمت

وعدت، فتلك السقطة جعلتني على يقين أن الطريق الحق هو طريق التوبة.

ثُمّ أجهش بالبكاء، فلزم "أنس" الصمت، ثُم قال بعد أن هدأ بكاء "كلودة":

- الفضيلة التي فيك لا بدّ أن تنضح على أفعالك، يراها الناس كما يرون ظاهر ثوبك، كنت تظهر الصلاح وأنت تخفي المعصية.

- لأنني غفلت، طلبت الستر فيها ونسيت أن أطلب من الله الستر عنها.. أن تُحجب عني المعصية وأن يحول الله بيني وبينها، والله لقد تبت وندمت، ساعدني أرجوك.

وعاد لبكائه، وجلس "أنس" بجواره صامتًا ساكنًا وكأنّ على رأسه الطير، أطلّ "كُومبو" من خلف الباب على استحياء، كان يتنصّت على حديثهما منذ البداية، سار وهو منكّس الرأس تجاه صديق طفولته "كلودة" وجلس بعد أن أحاط كتفه بذراعه، ثم رفع عيناه تجاه "أنس" وقال بخفوت:

- لقد تاب.. أنا أعرفه جيّدًا وأعرف القصّة منذ بدايتها.. رفقًا به و لا تعن الشيطان عليه!

تفحّص "أنس" وجه "كلوده"، كان وجهه المتعب مصفرًا وحول عينيه محفور بهالتين من السواد، بدا جليًّا أنّه يعاني، بعد ردح من الزمن قال بهدوء:

- لو علمت "أشريا" ستُهدر كرامتك على الأرض وتتمزّق هيبتك.

انسحقت روح "كلودة" وقال بخفوت:

- لن يخذلني ربي... حاشاه أن يرد قلبًا باليقين ناجاه.

كانت ليلة عصيبة على "كلودة"، انصرف "كُومبو" وهو يطارد بومة بيضاء كانت تطوف بالبيت وتحلق فوق شجرة قريبة، قذفها بالحجارة فابتعدت في الحال، ظلّ "كلودة" يبكي طوال الليل حتى أن "أنس" أشفق عليه ورقّ لحاله.





كانت "مَرام" تمشّط شعرها بينما كانت "أشريا" تستعدّ للنوم، التفتت "مَرام" إليها وسألتها بفضول:

- لماذا ترفضين الزواج من "كلودة"؟

شردت "أشريا" قليلًا ثُمّ اقتربت من "مَرام" وجلست بجوارها ثُمّ تأبّطت ذراعها بلطف وهمست:

- أنا أُحبّه لكنني أخاف!

- من ماذا؟

- كما ترين، لست ببارعة الجمال كما أنني لا أُحسن ما تفعله الفتيات في أنفسهن، حتى أنني لا أجيد الحديث مثلهن، لا أظنني سأعجبه، أخشى ألا أُرضيه إن تزوجته، فربّما يراني كالطعام الخالي من الملح والتوابل.

صمتت "مَرام"، كانت صورة "أُونتي" وهي تتحدث عن "كلودة" لا تفارق ذهنها، ودّت لو لم تعرف عن علاقتهما شيئًا، فها هي الآن تجلس بجوار فتاة تُحبّه لكنها لا تعرف أنه خائن، فاجأتها "أشريا" وهي تهمس:

- ربّما يكون قد وقع في حبّ فتاة بالفعل، سمعت الفتيات يهمسن بهذا.

- معقول!

تظاهرت "مَرام" بالتعجب، فأردفت "أشريا":

- ما يحيرني هو تكرار طلبه للزواج منّي، لا أدري لماذا لا يتزوجها!

أطبقت "مَرام" شفتيها، واستمرت "أشريا"في بوحها لها:

- يظن بعض الشباب أن كل الفتيات مباحات، يستطيع أن ينظر، ويتأمّل، ويتفحّص، ويمزح مع تلك، ويحب تلك، ويحلم بتلك، وعندما يريد الزواج يبحث عن فتاة بعيدة المنال!

زفرت "مَرام" بحنق وقالت:

- عندك حقّ.

قامت "أشريا" وبدأت تروح وتجيء في الغرفة وقالت:

- لكن سلوكه قد تغير منذ فترة، أتعلمين تلك النظرة التي تقرئين فيها انكسار من أمامك، ذاك الشحوب الذي يكسو وجه من يتوقفون عن فعل الخطأ فيبدون وكأنهم يتعافون من مرض، الضعف الذي يصابون به، الهوان الحلو بعد التوبة، ذاك الضوء الشاحب الذي يحلّ شيئًا فشيئًا في وجه من يعود للصواب...لقد تغير "كلودة" صار لا يرفع حتى عينيه في وجوه النساء وهو يسير.

- أتراقبينه؟

على استحياء أجابتها:

- من بعيد، أمي تسأل عنه أم "كُومبو". فأمي سرّي وستري وهي تعرف خبيئتي، أما أنا فأدعُو له..وأراقبه من بعيد.

ثُمّ تنهّدت وقالت بصوت تشوبه رنّة ألم:

- ترى هل من الممكن أن تقرّ عينه بي يا "مَرام"إن تزوجته؟ هل سأعجبه؟ هل سيكون مخلصًا لي؟

بقي السؤال معلّقًا في الهواء، فـ"مَرام" تخشى أن تخبرها بما تعرفه، قالت "أشريا" بثقة وكأنّها تجيب نفسها بنفسها:

- ولم لا! أوليست التوبة تجبّ ما قبلها! سيشفى والله قلبه، أليس كذلك يا "مَرام"؟ سيرضيه الله بي، وسيستجيب لدعائي... أليس كذلك؟

أجابتها "مَرام" وهي تراقب تعابير وجهها البريء الصادق قائلة:

- نعم حبيبتي.... سيستجيب.

بعد قليل نامت "أشريا"، أمّا "مَرام" فلم يغمض لها جفن حتى طلع الفجر، ظلّت الأفكار تدور في رأسها، صار معرفة بداية تلك الأفكار مستحيل، استسلمت أخيرًا للنوم فمهما فكّرت وحللت وخططت فهي لن تخبىء النجوم ولن تطفىء وجه القمر.





يومان والحراس يدورون في القصر كالنحل، يفتشون كلّ الغرف، وكانت البداية من غرفة "أُونتي" التي قلبتها الجواري رأسًا على عقب، فقد أشرفت "نَبرة" بنفسها على تفتيشها بينما كانت "أُونتي" وقتها في حديقة القصر، خرجت "نَبرة" من غرفتها كالإعصار تزوم وتزمجر، فهي لم تعثر على الكتاب، استبعدت أن تكون قد وصلت إليه فاتجهت وأخيها إلى تفتيش غرف الوزراء وكبار الحراس ظانين أن أحدًا منهم قد طمح وطمع للاستيلاء على الكتاب.

في اليوم الأول وعقب مغادرة "مَرام" للقصر، أغلقت "أُونتي" غرفتها عليها في سكون رهيب، أعادت كلّ شيء لمكانه بنفسها ولأوّل مرّة في حياتها، لم تطلب عونًا من أحد حتى لا ينتبه أحدهم لغياب "مَرام"، لم يدخل عليها إلا جاريتها القديمة التي لاحظت غياب "مَرام"، أخبرتها "أُونتي" بالحقيقة، ونفحتها كيسًا ثقيلًا ممتلئًا بالمال لقاء صمتها وإخفائها للأمر.

أرضى ذلك غرور الجارية وانصرفت على وعد بأنها سترسل إليها جارية جديدة أمينة تحفظ السر مثلها، هرولت خارجة من غرفتها فالأميرة "نَبرة" غاضبة والأولوية لإرضائها.



(١٧)

رائحة الحب

تحت شجرة البلوط، وحيث كانت تتلهف "مَرام" للعودة إلى منزلها، وقفت تنصت إلى "أنس" وهو يقول:

- حسنًا يا "مَرام" سألقي بنفسي داخل الفجوة الآن وأعود من خلالها، راقبيني.

دلف "أنس" والذي قضى وقتًا طويلًا يحاول فيه إقناع "مَرام" بأن انتقالهما من خلال الفجوة سيكون أسرع لها وأيسر له حتى يستطيع إكمال رحلته، استلّ الخنجر وأولجه في طبقات الهواء وحرّكه كما يفعل وذكر اسم قصر الحوراء، دلف إلى الفجوة فابتلعته واختفى من أمام "مَرام"! وقفت وحيدة تحت شجرة البلوط التي كانا يقفان تحت ظلالها، شعرت بوحشة رهيبة وخوف شديد، سكن كل شيءحولها فجأة، اختفى الشخص الوحيد الذي اطمأنت لأنه من عالمها، ظنّت أنّه سيوصلها إلى القصر ثُمّ تحملها "قطرة الدمع" إلى بيتها! كان يكفيها ما مرّت به، فهل هناك مزيد من المفاجآت في انتظارها! تذكّرت تجار العبيد، والسوق ونظرات الرجال لجسدها، وضرب الجواري لها في القصر، وتلك اللحظة التي قذفها فيها "أنس" بالحجارة في عينها، تحسستها بأنامل مرتعشة حيث كانت تؤلمها، تلفتت حولها ونادت بهمس على "أنس" ولما لم يأتها الرد انحنت وسحبت غصن شجرة غليظ وتأهّبت للدفاع عن نفسها، لقد رحل إذن وتركها وحدها، قررت أن تعود من حيث أتيا إلى بيت "أشريا"، لعلها تساعدها، اعتصر قلبها الذي أصبحت دقّاته كطبول الحرب وكادت تركض لولا أن الفجوة انبثقت من اللا شيء أمامها فأجفلت وأطلّ "أنس" منها مرّة أخرى، وقف يبتسم وحرّك كتفيه موحيًا إليها أنّ الأمر بسيط، وقال بهدوء:



- أرأيت! ها أنا قد عدت سريعًا

بوجه شاحب وشفتين هربت منهما الدماء ويدين تقبضان على غصن الشجرة وترفعه متأهّبة في الهواء وكأنّه سيف تقاتل به كانت "مَرام" مجمّدة كتمثال من الشمع، فوجيء بها تنهال على كتفه ضربًا بغصن الشجرة وهي تصيح بهستيرية:

- لا..لا...لا

كانت في حالة هياج وغضب شديد، أمسك "أنس" الغصن وجذبه منها بعنف فجرح يدها، فقدت تماسكها وتهانفت وتكورت على الأرض وغطّت وجهها بكفّيها وانفجرت باكية تنشج في حرارةٍ فوقف أمامها حائرًا، كان لا يحسن التعامل مع الفتيات! سألها متعجبًا:

- لماذا تبكين؟

قالت بصوت يخنقه البكاء:

- كنت خائفة.

تذكّر كيف كان يفعل والده مع أخته "حبيبة" عندما كانت تجهش بالبكاء فجأة، كان يتوقف عن الكلام معها ويربّت على كتفها بحنان ويحتضنها في صمت، وكانت تهدأ وينتهي كلّ شيء، لكنه ليس والدها! ولا يستطيع فعل أيّ من هذا، فماذا يفعل! سالت الدماء من كفّها فتلطّخ وجهها بمزيج من الدموع والدماء، كانت ترتجف، بدت له ضعيفة كالقشّة، لا بدّ أن يعيدها إلى القصر الآن، فهو لن يتحمل تقلّبات شخصيتها تلك، وليس الوقت مناسبًا لمرافقة الفتيات! ولعلّ "سامي كول" يأمر بإعادتها لبيتها في الحال، فليتخلّص من تلك الورطة، قطع "أنس" جزء يسيرًا من طرف قميصه وبلله بماء النهر حيث كانا يسيران بموازاته ومدّه إليها بلطف قائلًا:

- امسحي وجهك فقد تلطخ بالدماء، ودعيني أربط لك جرح يدك.

سحبت منه القماشة بعصبية ومسحت وجهها ثُمّ كفّها المجروح، كانت هناك شذرات من الغصن قد علقت بجرحها، بدأت تسحبها بحرص وعلامات الألم تلوح على صفحة وجهها ثُمّ قالت بصوت ممزق حزين:

- كرهت تلك المملكة وتلك الغابة وهذا العالم.

وعادت للبكاء، سألها وقد رقّ لحالها:

- حسنًا يا "مَرام"، إن كنت ترفضين استخدام الفجوات وتخافينها سأسير معك، لا تخافي ولا تحزني، هيّا فنحن في أوّل النهار، وخذي هذا لتضمّدي جرح يدك.

وقام باقتطاع جزء آخر من قميصه، وساعدها لتضمّد جرحها بحرصٍ شديد، وسارا معًا، كانت تلك المرّة الأولى التي يقترب فيها ذاك الحدّ من فتاة، وكان يراها فتاة لطيفة رغم بعض العصبية والكثير من البكاء، وربّما لأنه آلمها وجرحها مرّتين فهي تعامله أحيانا بعنف، لكنّه لم يقصد أبدًا أن يؤلمها، أراد أن يخبرها بهذا!

رنا إليها فبدت له كندفة هشّة من غزل البنات لو أمطرت السماء عليها لذابت من فرط رقّتها، تتبعه كقطّة صغيرة تطلب الأمان، كانت خطوة منه تعادل خطوات منها، فهدّأ من سيره حتى لا يرهقها، راوده شعور جميل أنّه مسئول عنها، وراق له بشكل ما أنّها تخاف عندما يختفي، أو عندما تفصل بينهما أثناء سيرهما شجرة ضخمة، كانت تهرول وتبحث عنه خلفها تخشى أن يختفي مرّة أخرى. أصابه الضيق لأنه كان سببًا في بكائها، مزيج من المشاعر كان يختلج في صدره.

توقف عن السير والتفت إليها وأخبرها أنهما سيجلسان للراحة قليلًا، جلست فورًا في صمت وكأنّها كانت تنتظر تلك اللحظة لكنها كانت تخجل أن تطلبها منه، فقد أرهقها السير، أخرجت من حقيبتها تفاحتين كانت "أشريا" قد أعطتهما لها ومدّت يدها إليه بإحداهما، تناولها منها وجلس يلقيها في الهواء ويتلقفها بيده ويراقب وجهها بطرف خفي، ثُمّ سألها بفضول:

- كيف قضيت الفترة الماضية وحدك؟ حدثيني يا "مَرام" عن رحلتك وكتابك، هل كنتِ دائمًا خائفةً وتبكين هكذا؟

أطرقت قليلًا وكأنّ ملاحظته جعلتها تتأمل حالها وما آلت إليه، قالت وهي تحملق في الأرض أمامها:



- لم أكن بتلك الهشاشة، كان لدي شعور بأنني قويّة، لم أكن أشعر بالخوف كما أشعر به الآن، وكان للقائي بالمغاتير فور وصولي أثر كبير في نفسي، كانت "الحوراء" معهم، احتضنتني فور أن تركتني "قطرة الدمع" فشعرت وكأنّ شيئًا ما أحاطني فغمرني الشعور بالأمان، في الحقيقة راودني شعور جديد... ربّما روح المقاتِلة التي وصلت للتوّ لأرض المغامرات! شعور يشبه ما قرأت عنه دومًا في الروايات، سلّمتني "الحوراء" خريطة وبدأت رحلتي، سريعًا ما ظهرت كلمات كتابي عندما التقيت بالأميرة "هيلا"، كانت فتاة رقيقة وواثقة بنفسها تكبرني بخمس سنوات، لازمتها طوال الوقت، فقد استضافتني في قصرها وعاملتني كشقيقة لها، "هيلا" تعيش في منطقة تقع خلف مملكة الشمال، لم يكن لديّ خنجر مثلك، لكنني كنت أستطيع سماع أفكار الناس.

- ماذا! تقرئين الأفكار!

- لا... أسمع صوتها كما أسمع صوتك الآن، تلك كانت من مميزاتي ويبدو أنني فقدتها منذ انتهاء مهمتي، كنت أنصت إلى صوت أفكار من أمامي، فكنت أعرف الصادقين والكاذبين، وكان ذاك مرهقًا جدًا، كنت أعاني صراعًا نفسيًا عندما أرى على وجوه الناس وألسنتهم عكس ما يفكرون به، وفي النهاية وبعد أن انتهت مهمتي تأمّلت فأدركت أن الله ستر خواطرنا رحمة بنا، ولو بحنا لمن حولنا بكلّ ما نفكّر به كما هو ما طاب لنا العيش معًا، الحمد لله أنني فقدت تلك الميزة و أنا الآن لا أسمع إلا نفسي.

ارتاح "أنس" حين تأكد أنها فقدت تلك الميزة.. لا يدرِ لِمَ! وهرب من إجابة نفسه..أشار إليها لتقوم ليكملا حديثهما وهما يسيران لعلهما يقطعان الغابة قبل حلول الظلام، كانت تسير خلفه، وكلّما حاول أن يقدّمها أمامه ليطمئن عليها تتأخر خلفه لبطء خطواتها، فطلب منها أخيرًا أن تسير بجواره ففعلت، سألته على استحياء:

- كم عمر أختك"حبيبة"

- تصغرك بعام؟

ثُمّ أردف بعد أن رنا إليها سريعًا:

- وتشبهك كثيرًا.

أخجلتها ملاحظته وارتبكت فتعلّقت بحقيبتها وقبضت عليها بقوّة وكأنّها تستمد منها الأمان وقالت:

- لا شكّ أنّك تفتقدها

- أفتقد كلّ شيء في حياتي، بيتي، وأهلي، رائحة عطر أبي، حضن أمّي، صوت جدي، دفء البيت، حتى ملابسي وهاتفي الجوال، ورفاقي، وحاسوبي.

- وأنا أفتقد.... الأمان.

التفت إليها وقال بتأثّر:

- "مَرام" سامحيني لأنني أوجعتك مرّتين

- لا عليك، أنا أيضًا ضربتك بالغصن على كتفك كالمجنونة.

قال مازحًا:

- لكنك لم تؤلميني... أيّ محاربة أنت! وأين قوسك البلاستيكي الذي كنت تلعبين به في الغابة!

لاحت على شفتيها ابتسامة خبّأتها بكفّها المضمّدة بجزء من قميصه، كانت كلّما رفعت كفّها وتأملته وهو ملفوف بشيء يخصّ "أنس" شعرت بارتباك، وكأنّه يمسك يدها بنفسه! سارت بجواره وفي صدرها يتلجلج صراع بين رفضها للسير مع شاب غريب عنها، وبين اضطرارها لهذا لتعود إلى القصر، فهي لم تختر تلك الظروف، هي مجبرة عليها لا ريب، بدأت تتمتم بالدعاء ألا يتركها الله، وأن يكفيها شرّ نفسها ونفس "أنس".

قال وعلى وجهه ابتسامة مشرقة بينما كانا يعبران تحت أشجار الياسمين حيث هطل عليهما الياسمين وكأنّه يرحّب بهما:

- أعشق رائحة الياسمين.



قالت وهي تحمل بين كفيها حفنة من زهور الياسمين التي تراكمت على الأرض وتقرّبها من أنفها:

- وأنا، ليتني أستطيع الحديث مع زهراته كما تفعل السيدة "ناردين" فهي تسمع أنين النباتات وتسبيحها وتنصت لحكاياها العجيبة.

- معقول!

- ألا تعرف قصّة السيدة "ناردين" مع الغابة هنا؟

- لا

- حسنًا... سأخبرك بها

بدأت "مَرام" تقصّ عليه ما حدث مع السيدة "ناردين"، أشفق على العجوز عندما علم بما فعلته معها زوجة ابنها، وتعجّب عندما علم بحديثها إلى النباتات وكيف تنصت إلى أنينها وتحاورها، بينما كانت"مَرام" تحكي له عنها كان يقاوم ضجّة أحدثتها "مَرام" في عقله ووجدانه، طريقتها في الكلام راقت له، ذاك الهدوء وتلك السكينة التي حلّت عليها بعد أن انتهت تلك العاصفة التي أصابتها عندما اختفى من أمامها فجأة يعجبه، وهذا الضعف الأنثوي الرفيق الذي فيها أثّر في نفسه، وقارها واحتشامها أسَرَا فؤاده، أما دموعها فقد صوّبت تجاه قلبه الضربة القاضية! سألها وقد اقتربا من بيت "ناردين":

- أتساءل هل ظهرت العبارات في كتابي أم ليس بعد!

- لا أدري هل سيطلق كتاب "إيكادولي"سراح الكلمات وهو بعيد عن يديك يا "أنس" أم لا!

- كيف كانت العبارات تظهر في كتابك؟

- كان يهتزّ وأحيانًا يتحرّك في مكانه فكنت أنتبه، وكانت تنبثق الحروف تباعًا وكأنّها تُنقشُ بريشة ومحبرة حرفًا حرفًا على السّطر، أحيانًا كنت أشعر أن الكتاب يتنفّس وله قلب ينبض وهو يظهر الكلمات، تلك الكتب حيّة يا "أنس"!

- كنت أفكّر أنه ربما يكون "كلودة" و"أشريا" هما بطلا قصّتي، أليس كذلك؟

تمتمت بضيق ثُمّ قالت:

- أرى "كلودة" لا يستحق أن يكون بطلًا لأي قصة حبّ!

- لماذا؟

تجاهلت سؤاله حتى لا تضطر لفضح "كلودة".... ثُمّ قالت:

- ربّما بطل قصّة كتابك هو "كُومبو" وفتاة أخرى! ولم لا؟

هزّ كتفيه قائلًا:

- أو ربّما "أُونتي" وأي شخص آخر!

- لا تذكّرني بـ"أُونتي" أرجوك...

- لماذا؟

هزّت رأسها في ضيق وقالت:

- لا شيء.. فلننس أمرها.

كانت العجوز "ناردين" تجلس أمام الكوخ وتستند بذقنها على كفيها المعقودتين فوق عكازها الذي أصبح صديقًا لا يفارقها أبدًا عندما تهلل وجهها وبرقت أساريرها من الفرح وهي تراهما يقتربان، أصابتها السعادة وتهللت أساريرها عندما رأتهما معًا، لم تتمكن من منع نفسها من الضحك بصوت عالٍ وكأنّها طفلة صغيرة سرّت بقطعة من الحلوى أهديت إليها، جلسا عن يمينها وشمالها بينما احتضنت كفّ "مَرام" بحنان فور أن رأت ضمادتها وجلست تسألها عمّا أصابها، ثمّ سألتهما كيف كان الطريق، وماذا حدث لهما حتى الآن.



مرّ الوقت لطيفًا حيث استأنست "مَرام" بالعجوز "ناردين" وكذلك سرّ "أنس"، وسعدت هي بزيارتهما، وقفت "مَرام" تودّعها، كانت العجوز تبكي، فتلك هي المرّة الأخيرة التي ستراها فيها، كانت قد ودّعتها من قبل بعد انتهاء



مهمتها، وها هي لحظة الوداع تتكرر، وكانت "ناردين" تحمل همّ تلك اللحظات، فهي تشعر بالألم في صدرها عندما يغادرها من تحبّهم، تكره الوداع، سارت معهما قليلًا حتى أصبح الطريق أمامها مكشوفًا وحتى حدود الغابة، حيث كان الفاصل الحجري يحيط بالغابة، ابتعدا وكلاهما يتلفّت من آن لآخر ويلوح لها، وما أن لوّحت لـ"ناردين" آخر مرّة وفور أن خطت "مَرام" خارج الغابة شعرت وكأنّ سهمًا ناريًا يخترق رأسها، سقطت على الأرض وعيناها معلّقتان بالسماء، ثُمّ فقدت الوعي.

صبّ "أنس" الماء المتبقي معه على رأسها لكنها لم تفق، تحسس نبض يدها ليتأكد أنها لم تفارق الحياة، ثُمّ حملها وعاد للغابة وأسرع وخلفه العجوز "ناردين" تجاه كوخها، وضعها على فراش "ناردين" التي أسرعت تربّت على جبهتها لعلّها تفيق، أحضرت زجاجة بها سائل نفّاذ الرائحة وقرّبته من أنفها فأفاقت "مَرام" وبدأت تسعل، كانت تشعر بدوار شديد، أخبرتهم أنها تشعر أنّ دماءها تغلي في عروقها، تحسست "ناردين" جبهتها ففوجئت بأنّ حرارتها مرتفعة! قامت تطحن عشبًا ما وأشارت لـ"أنس" ليحضر بعضًا من الماء وبدأت تذيبه في القليل منه، وسقتها منه شيئًا فشيئًا، بعد قليل بدأت "مَرام" ترتجف فدثّرتها العجوز وجلست تحنو عليها وتتمتم بالدعاء، وعندما بدأت المسكينة تتعرّق قالت "ناردين" بثقة وهي تطالع وجه "أنس" الذي استبدّ به القلق عليها:

- ستكون بخير إن شاء الله

قال مستغربًا:

- لا أدري ما الذي حدث لها! كانت بخير!

فتحت "مَرام" عينيها وطالعته بنظرة تعني ألّا تتركني وحيدة هنا، لم تتمكن من فتح فمها لتحدّثه، لكنه فطن لما ترمي إليه وقال يطمئنها:

- لا تخافي يا "مَرام"

أغمضت عينيها وخرج من الكوخ، جلس على الدرج الحجري يتفكّر فيما آل إليه الأمر الآن! اقتربت "ناردين" وربّتت على كتفه، همس إليها قائلًا:

- هل أستطيع الذهاب إلى القصر دون أن تخبريها؟

- نعم تستطيع، ولكنك ستعود إليها بالتأكيد، أليس كذلك؟

- بالطبع سأفعل إن شاء الله، وددت فقط أن أسأل "سامي كول" عن شيء ما

- سأغلق باب الكوخ علينا ولن أخبرها، فلا تتأخر، أراها تخشى أن تغادر وتتركها وحيدة

- لا تقلقي يا أمي

تأثّرت العجوز مرّة أخرى بندائه، لم يُدرك أنه يربّت على قلبها بتلك الكلمة... يا "أمي"! كانت نظراتها له تقطر حنانًا وهي تراقبه وهو يستلّ خنجره ويحرّكه في طبقات الهواء، انبثقت الفجوة تتلاعب وكأنّها تناديه، قفز داخلها بينما أسرعت العجوز ودلفت إلى الكوخ وأغلقت الباب، كانت "مَرام" تئن وترتجف وقد غمر العرق جبينها، فبدأت العجوز تربّت على كتفها بحنان.



كانت "الحوراء" تعلم بأخبار "أنس"، فالرياح تحمل إليها كلّ همسة تخرج من بين شفتيه، وقفت تنتظر وصوله وهي تطرق بأصابعها على الطاولة في قلق، ظهر أخيرًا فقامت فور أن رأته وسارت نحوه بخطوات سريعة، كان القلق باديًا على محياها:

- كيف هي "مَرام" الآن؟ وما الذي أصابها؟

- لا أدري! فور أن خرجنا من الغابة سقطت على الأرض، تركتها في كوخ العجوز"ناردين"

- كان مُتوقعًا أن يحدث هذا

- لماذا؟

- أخبرني أبي أنها لن تستطيع الرحيل إلّا بعد استعادة كتابك، كلاكما شريكان في كتاب "إيكادولي" بطريقة ما، حتى لو وافقت أن تنتقل معك من خلال الفجوات كنا سنعيدكما إلى القرية، وددت أن أخبرها هذا بنفسي لأخفف عنها فهي تثق بي وأنا أعلم كيف تشتاق الآن للعودة لديارها



ولأمّها، لكن يبدو أنّها صارت ضعيفة جدًا بعد أن فقدت مميزاتها كمحاربة، أرجوك يا "أنس" عد إليها سريعًا، واعتن بها.. أرجوك.

- سأفعل ولكن هل من الممكن أن أطلب من الحكيم "سامي كول" أن يسمح لها بالعودة إلى بيتها، وسأتحمل وحدي مسئولية استرداد كتاب "إيكادولي"؟

- للأسف يا "أنس"، لا تسير الأمور بتلك الطريقة، ليس أبي من يحدد

- لقد تعبت "مَرام" وتعرّضت للكثير من الأمور، وهي فتاة رقيقة وضعيفة، أخشى عليها

- إذن فلتحمِها وترعَها حتى تسترد كتابك

- مولاتي..

أغمضت "الحوراء" عينيها وكسا وجهها تعبير أدرك منه "أنس" أنه لا مجال للنقاش في أمر رحيل "مَرام"، كاد ينصرف لكنّه استدار وسألها:

- هل من دواء لها أستطيع حمله معي على الأقل!

ابتسمت "الحوراء" وقالت بثقة:

- أنت في بيت طبيبة بارعة، "ناردين" ستعتني بأمر الدواء، لا تقلق يا "أنس"، عد الآن لتكون بجوار "مَرام"... أرجوك.

استدار "أنس" بعد أن حيّاها، وأخرج خنجره بعد أن توقّف وتأمّله للحظات تذكّر فيها وجه جدّه وهو يسلّمه إليه ويخبره أنّه سيقطع به مسافات كبيرة! لم يفطن وقتها لهذا المعنى، لكنّه يدركه الآن، حرّكه في الهواء وعاد إلى الكوخ، حيث كانت "مَرام" ترتجف، طرق على الباب بخفّة ففتحته "ناردين" ودلف محتميًا من الأمطار الغزيرة التي سقطت فجأة، هذا المكان عجيب!

اشتدّ البرد واشتدت قوة الرياح، البروق تنقدح في السماء، ستار سميك من المطر حجب الرؤية، انحنت الأشجار وتعانقت فوق سطح الكوخ تظلله وتبعد سيول الأمطار عنه، والتفت وشائج الأشجار وأحاطت بأركان البيت تمنع تسرّب الرياح من فتحات الكوخ، كانت النباتات تعتني بـ"ناردين" لسنوات طويلة، وها هي تعتني بها وبضيفيها، كانت "مَرام" تنتفض من آن لآخر فما زالت

حرارتها مرتفعة، وكانت العجوز تغفو بجوارها وهي جالسة فتسقط رأسها فتنتبه وترفعه ثُمّ تعود فتغفو مرّة أخرى، بينما جلس "أنس" في ركن الكوخ مستندًا بظهره على الجدار. وبدأ يحدّث نفسه..

عمرها ثمانية عشر عامًا! ما زالت "مَرام" في بداية مرحلتها الجامعية، لا شك أن خبرتها قليلة في معاملة الشباب، لهذا تصدّه وتعامله بنوع من العدوانية أحيانًا، ربّما هي ترى أنها هكذا تحمي نفسها كما تظن الكثير من الفتيات! تحتاج وقتًا لتنضج وتصبح أكثر انضباطًا في ردود أفعالها حتى لا تحرج من يتعامل معها، ولكنها تبدو فتاة خلوقة ومهذّبة و... جميلة، نعم هي جميلة، هكذا يراها، فهي تعجبه وتروق له، وعلى كلّ حال ذلك ليس حبًّا كما يقولون، فليس من المعقول أن يحبّها بتلك السرعة! لماذا يفكّر فيها كثيرًا! فليحاول الآن التفكير في طريقة يصل بها إلى كتابه، أما هي وبأي حال من الأحوال سترافقه طوال رحلته مع كتابه، ولكن...كيف سيتعامل معها؟ كانت الأفكار تتناطح في رأسه وهو يراقب انعكاسات أضواء الشموع وهي تتراقص وتتشابك على الجدران، تكوّر على الأرض وتوسّد ذراعه واستسلم للنوم، فقد أخبرته العجوز أخيرًا أن حرارة "مَرام" قد انخفضت، وأنها تستبشر بكثرة تعرّقها لأن تلك علامة خير. دثّرته العجوز بغطاء من الصّوف، وعادت حيث كانت "مَرام" ترنو إلى "أنس" بعينيها الكليلتين.



على استحياء أشرقت الشمس وأقبلت زرقة السماء وفتّتت الغيوم فأضاءت أرجاء الغابة، نفحتهم بعض الدفء فأطلق الريحان عبيره الفوّاح، كانت نباتات الغابة تتألّق بخضارها الزاهي بعد أن غسلتها الأمطار طوال الليل، قالت "ناردين" وهي ترشف بتلذذ المشروب الساخن من كوبها الذي تحتضنه بكفّيها:

- إذن أخبرتك "الحوراء" أن "مَرام" لن تغادر الآن، وستلازمك حتى تستردّ كتاب "إيكادولي".. غريب!

- وما الغريب؟



- عادة لكلّ كتاب محارب واحد يتدخل بطريقة ما حتى يمنع من يريدون تغيير محتوى الكتاب ليخدم أفكارهم الشاذّة

- ترى... من يريد تغيير قصة كتاب "إيكادولي"؟

- الكتاب عن الحبّ، هناك حبيبين، ربّما هناك من يقهرهما ويفعل الأفاعيل ليمنع اجتماعهما.

وضع "أنس" كوبه برفق وقال:

- أو قد يخطئان عندما تغلب الشهوة فوق الفضيلة، وتسقط الروح فيغلب الجسد!

قالت العجوز وهي تتلذذ بالمشروب:

- الحبّ فضيلة؛ جزء منها نولد به، فهي مغروسة في أنفسنا، وجزء آخر من تلك الفضيلة نجاهد لنصل إليه.

قال "أنس":

- من يحب الطعام سيشتهيه وسيجد لذّته في تناوله بأي طريقة، ولو تخلّى عن الفضيلة سيسرق الطعام! وكذلك من يحبّ ويعشق أيضًا سيجد لذّته في النظر إلى حبيبه بأيّ طريقة، ولو تخلّى عن الفضيلة سيسقط في الحرام."

قالت "ناردين" وقد أعجبتها كلماته:

- نحن لا نعرف ما تحمله لنا الأيام القادمة!

هزّ "أنس" كتفيه وقال:

- ليس الحبّ مقصورًا بين حبيبين فقط! قد يكون الحب من نوع آخر، حبّ الله، الأمومة والأبوّة، حبّ الصديق، وحبّ الخير كما يفعل المغاتير.

كان الهواء عذبًا وكانت تنظر إليه بحنوّ، ابتسمت وقالت:

- أنت شابٌ طيّب القلب يا "أنس"

طالعها بإشفاق وقال لها:

- وأنتِ أمٌ رائعة وحنونة.

دنا منها وقبّل رأسها وأحاط كتفيها بذراعه، كادت العجوز تبكي، كانت تشتاق إلى ابنها الحبيب، أرادت أن تبوح لـ"أنس" ببعض مما حملته بين ضلوعها لسنين طويلة، لكنّ عطسة "مَرام" وهي تقف متدثّرة بشال "ناردين" وهي تستند برأسها على حافّة باب الكوخ انتشلتهما من حديثهما، هشّ "أنس" فور أن رآها أمام عينيه، قال برفق وهو يبتسم:

- يرحمك الله!

كان على وجهها ابتسامة متعبة، اقترب منها مع العجوز "ناردين"، والتي قالت بعد أن تمعّنت في عينيها:

- أنت اليوم أفضل، سأعدّ لكما حساء شهيًا في الحال.

أسرعت تجمع بعض الأعشاب والثّمار لتعدّه بينما كان "أنس" يحاول ترتيب الكلمات، لا بدّ أن "مَرام" ستحزن عندما تعرف أنها لن ترحل إلّا بعد استرداد كتابه، قال متلعثمًا:

- لقد ذهبت إلى قصر الحوراء

رفعت عينيها إليه ثُمّ كسرت نظرتها سريعًا، كان جفناها يرفّان من الحبّ، قالت تلومه:

- تركتني إذن!

- لم أغب طويلًا كما تعلمين، كما أنّك كنتِ مع السيدة "ناردين"، وأنا أثق بها

ثبتت نظراتها على الأرض أمامها وقالت:

- وأنا أيضًا أثق بها

- المهم، أخبرتني "الحوراء" أنّ "قطرة الدمع" لن تتمكن من إعادتك إلى بيتك الآن يا "مَرام"

- لماذا؟



- لأن لك دورًا في كتابي، ولهذا كانت صورتي تظهر لك في كتاب "هيلا"، لا بدّ أن تبقي معي حتى أستردّه

شدّت "مَرام" الشال على كتفيها وهزّت رأسها برفق ولم تثُر كما فعلت من قبل، كان ينتظر منها الهستيريا والصراخ في تلك اللحظة!، لكنّه رآها ساكنة راضية بما سمعته منه، حتى أنّها لم تسأله عن التفاصيل، ولم تسأله عن خطوتهما التالية، سألها باهتمام:

- كيف هي يدك؟

- ما زالت تؤلمني

- آسف.. أنا السبب!

- لا عليك، بدأت أعتاد الألم

انسحب بلطف وتركها وانضم يساعد "ناردين" التي كانت تحاول إشعال النار تحت القدر، ووقفت "مَرام" تراقبهما في هدوء شديد. كانت كل عظام جسدها تؤلمها، أرادت أن تعود للفراش لترقد وترتاح، لكنّها كانت تستمتع بمراقبتهما من بعيد، كانت العجوز سعيدة، فابتسامتها ومزاجها الرائق يمتعان الناظر إليها، وكان "أنس" يرفق بها ويكثر المزاح معها، يبدو أنّه أشفق عليها عندما علم بقصّتها، فصار يهوّن عليها ويقصّ عليها الطرائف مما أدخل السرور على قلبها، واهتزّت لتلك الأحاديث النديّة أشجار الياسمين وبعثرت عبيرها فاختلط برائحة الحب.

❒❒❒

مر يومان، كانت "مَرام" أفضل حالًا، قررا أن يعودا إلى القرية، وجلسا ليخبرا "ناردين" التي أصابها الضيق عندما أدركت أن تلك اللحظات السعيدة مرّت وانتهت، كانت قد بدأت تأنس بهما، فهي تفتقد الشعور بهذا الجو الأسري الدافئ، مارست أمومتها خلال يومين بشكل عميق، كانت تستمتع بهذا وكانا يستمتعان بكلّ لحظة معها، راقبتهما كثيرًا وهما يتحاوران بهدوء، قبل انصرافهما وقفت أمامهما وقالت وهي تستند إلى عكّازها:

- هو الوداع الأخير إذن هذه المرة...

لم يتمكنا من التعقيب سوى بنظرات عاجزة مرتبكة ملؤها الأسى..

قالت سريعا لتتخطى لحظات الحزن المؤلمة تلك:

- ليس من الضروري أن تقطعا المسافة سيرًا على الأقدام

ابتسم "أنس" وقال:

- لا تحاولي، "مَرام" تصاب بالهلع عندما ترى الفجوات.

- لم أقصد الفجوات التي تصنعها بخنجرك!

- إذن ماذا تقصدين؟

رفعت حاجبيها وقالت في كياسة:

- النهر!

سارت العجوز "ناردين" وسارا خلفها حتى اقتربا من ضفّة النهر الأخضر، وقفت تراقب الماء ووقفا خلف كتفيها وطالعت إنعكاس صورتهما وتأملت الصقر الكبير على يمينها، وذاك الصقر اللطيف على يسارها وضحكت قائلة:

- صقر قصير مصاب في جناحه، كم أنت قصيرة يا "مَرام"!

ابتسمت "مَرام" وعادت تسألها:

- كيف سنعود من خلال النهر؟

ضربت العجوز الأرض بعكّازها فبدأت الرياح تدور ثُمّ دفعت سطح ماء النهر ليتدفّق بسرعة شديدة تجاه الطريق الذي جاء منه "أنس" و"مَرام" منذ يومين، كانت المياه تسير بسرعة شديدة محدثة تموجات تشكل أنصاف دوائر متوازية في اتجاه واحد، ضربت العجوز الأرض مرّة أخرى فتساقطت أوراق الشجر بكثافة وتحرّكت وكأنّ هناك أيادٍ تتلاعب بها وارتصّت فوق بعضها البعض وشكلت بساطًا أخضر فوق سطح الماء، أشارت إليهما وقالت بهدوء:

- اصعدا فوق الماء وستنقلكما أوراق الأشجار إلى نهاية الغابة.



قالت "مَرام" باندهاش شديد:

- أتمزحين يا خالة!

مدّت العجوز ساقها وخطت فوق البساط الذي شكلته أوراق الأشجار، استقرّت عليه وكأنّها تقف فوق أرض صلبة! وقفت تطالعهما وعلى وجهها ابتسامة واسعة، قالت تشجعهما:

- تعاليا، هيّا سأسير معكما حتى نهاية الغابة

صعد "أنس" فوق البساط، ومدّت العجوز يدها لـ "مَرام" التي كانت ترتجف وهي تنقل ساقيها، صرخت عندما بدأ البساط يسير بسرعة فوق الماء وتمسّكت بذراع "ناردين" كان الهواء البارد يصافح وجوههم ويموج بثيابهم، وثلاثتهم يضحكون وكأنّهم في مدينة الملاهي، منظر فردوسي بدا على الأفق أمامهم، وصلوا سريعًا إلى الجهة الأخرى من الغابة، قفز "أنس" وخلفه "مَرام"، والتفتا نحو "ناردين" التي لوّحت لهما وودعتهما ثمّ انطلق بساط الأوراق الأخضر عائدًا بها إلى حيث كوخها في أقصى الغابة، فهي لا تستطيع تخطي الحاجز الحجري الذي يحيط بها أبدًا.



دلفت "نَبرة" بخطوات متسارعة تكاد تشق الأرض بحذائها، كانت تجرّ ثوبها خيلاء وتسير بغطرسةٍ أمام أخيها"كِمشاق"، تجاهلت "حليم" كالعادة وقالت بغضب:

- أين الساحر "قرجة"، أريده في الحال

- أرسلت أستدعيه، اهدئي يا "نَبرة"، لا بدّ أن الكتاب في القصر، ألم تراودك رؤى عنه؟

- لا ، عن المحارب فقط، كنت قد رأيته أكثر من مرّة مع ذاك الشاب، ما زال يقيم بداره، لم يظهر الكتاب معه بعد، لكن الرؤى لم تراودني منذ ليلتين، لا أدري أين اختفت البومة!!

وجّه "حليم" كلامه إليها قائلًا:

- ربما يظهره نهارًا، فأنت لا تراودك الرؤى إلا ليلًا.

رمقته بازدراء وقالت:

- المحاربون يديمون النظر في الكتاب ليلًا ونهارًا ليراقبوا ظهور الكلمات فيه، وذاك المحارب يحمل حقيبة لا يبدو أن الكتاب فيها.

ثُم استدارت وأشارت بعنجهية إلى أحد الحراس وقالت:

- احضروا الساحر "قرجة" حالًا

انصرف أحد الحراس مهرولًا ليستدعي الساحر "قرجة" ذا الستة أصابع، والذي يخشاه الجميع، حيث كان يستعين بالجان ويقوم بأفاعيل يشيب لها الولدان، جلست "نَبرة" تفرقع أصابعها وتقرض شفتيها في غضب، لم يجرؤ أخوها "كِمشاق" على لومها فالكتاب قد سُرق من غرفتها وهي التي أصرّت على الاحتفاظ به عندها، لكنّه كان غاضبًا منها بشدّة.

عادت لجناحها فإذا بجارية تهرول نحوها وهي تحمل عشًّا أحضره بستاني القصر من فوق الشجرة، كان يحوي صغار بومتها البيضاء، اتسعت حدقتاها وكانت في غاية الغضب، قالت "نَبرة" بحنق شديد:

- ألهذا انشغلت عني تلك البومة الحقيرة!

مدّت كفيها وخنقت الصغيرين داخل العش، كانت الجارية ترتجف وهي تراقب أنفاسهما وهي تتباطأ ثُمّ تنقطع، هرولت باكية وأعادت العش للبستاني الذي أعادة لمكانه في وجل وإشفاق، واختبأ مع الجارية يراقبان البومة المسكينة عندما عادت وقد فُجعت في صغارها.



(١٨)

خوف!

عاد "أنس" إلى دكان "كلودة" بعد أن ترك "مَرام" أمام بيت "أشريا" واطمأنّ أنّها دلفت إلى الدار بأمان، استقبله "كُومبو" بالعناق وكان في غاية السعادة بعودته، أمّا "كلودة" فبدا ساهمًا وكأنّ هناك ما يشغل فكره، حتى أنّه لم يسأل "أنس" عمّا فعله في الغابة، واكتفى بمتابعة حواره مع "كُومبو"، قرر "أنس" أن يبدأ رحلة بحثه عن كتابه، أخرج الخريطة التي أعطتها له "الحوراء" وعاد يتفحّصها بإمعان، كان يتفكّر في الأرقام المدوّنة عليها، ترى ما الذي تعنيه! حاول أن يجري بعض الحسابات ليربط بينها، اجترّ كلّ المعادلات التي درسها بالجامعة، لعلّه يفكّ تلك الشفرة، لكنّه لم يصل إلى شيء واضح ومحدد! يبدو أنّه سيعود إلى المكتبة العظمى، لا مجال لتأجيل زيارتها ليسألهم عن مصير الكتاب، بينما هو غارق في أفكاره فوجيء بها تقف أمامه! قال متعجبًا:

- "مَرام"! ما الذي أتي بك إلى هنا؟ ألم نتفق على أن تبقي في دار "أشريا" ولا تخرجي إلّا للضرورة؟

- أصابني الخوف

- من ماذا؟

قالت بصوت تخنقه العبرات:

- لا أدري، أشعر أنني لن أعود إلى بيتي، لقد انتهى أمري وسأظلّ هنا للأبد

- بل ستعودين إن شاء الله.. ثقي بالله!

- ونعم بالله. حسنًا.. ماذا سنفعل؟ ما خطوتنا التالية؟

- كما اتفقنا، سأحاول البحث عن الكتاب

- إذن سأذهب معك.

- لكنني سأذهب إلى المكتبة العظمى، وسأنتقل من خلال فجوة

- ولم الفجوات! هل من الممكن أن نسير معًا؟

- المسافة طويلة جدًا يا "مَرام"، لقد حاولت من قبل، كما أنّ المكان هناك مهيب ويكاد يكون خاليًا من البشر! هنا في القرية أنتِ بأمان، وكونك في دار "أشريا" سيجعلني مطمئنًا عليك عندما أغيب عن القرية، أرجوك عودي إلى هناك.

قالت بتضجّر:

- يبدو أنّك نسيت أنني كنت أعيش هنا وحدي قبل مجيئك، ووصولك لا يعني أنك وصيّ عليّ! لقد علقت معك رغم أنفي!

ثُمّ استدارت وسارت بعصبية فلاحقها وسار بجوارها وقال يلومها:

- ظننتك توقفت عن هذا!

استدارت بعصبية وسألته:

- ظننتني توقفت عن ماذا؟

- عن الغضب فجأة وبلا سبب.. كما تفعل أختي"حبيبة" أحيانًا! كُنتِ أكثر هدوئًا عندما كنّا مع "ناردين" في الغابة

شعرت بالحرج منه، قالت بتلعثم:

- لست غاضبة، أنا فقط..

قاطعها قائلًا:



- أعلم أنّك قلقة وخائفة، وأنّ فقدك لميزاتك كمحاربة جعلك أكثر حساسية عن ذي قبل، ولكنك الآن مجبرة على التعامل مع الأمور كما هي، فهوني على نفسك، ودعيني أقوم بمهمتي وساعديني بأن تجعليني مطمئنًا عليك وأنا أؤديها.

راقت لها كلماته البسيطة، وسارت بجواره تغمرها حالة من السكون الجميل، تحتاج من آن لآخر لبعض الطمأنة لا أكثر، فالوضع مربك وهي ترزح تحت ضغوط نفسية متشابكة. أعادها إلى بيت "أشريا"، ودّعها بعد أن وعدته ألّا تغادر البيت مرّة أخرى حتى يعود إليها. ثُمّ أسرع إلى أحد البساتين بعيدًا عن أعين الناس، أخرج خنجره وحرّكه في الهواء، انتقل إلى المكتبة العظمى، تكررّ الأمر! وتكرر ما حدث له مع الرمال المتحرّكة، كادت الرمال تبتلعه لولا أنّه فعل كما فعل في المرّة السابقة ليخلّص نفسه منها، سحبته الفجوة وعاد إلى بيت "كلودة"، يبدو أن الانتقال إلى المكتبة العظمي أصعب من الانتقال إلى كلّ الأماكن في تلك المملكة، كان متعبًا ومرهقًا ففضل أن يرتاح قليلًا، مكث هناك حتى عاد "كلودة" ليلًا، وكان لهما حديث طويل، استسلما بعده لنوم عميق.



ما زالت السماء مظلمة، لم يبسط الفجر رداءه كاملًا بعد! أفاق "أنس" على صوت الباب وهو يُغلق، وثب وتبع "كلودة" حيث خرج قبل أن تشرق الشّمس بدقائق، كان يسير نحو السهول متوجهًا للقصر للقاء "أُونتي"، لحقه "أنس" دون أن يشعر به وضربه على كتفه، أجفل "كلودة" واستدار غاضبًا، سأله "أنس" وعيناه تتهمانه:

- هل عدت للقائها؟

- أنا فقط أريد أن...

هربت منه الكلمات، لم يجد ما يقوله!، سأله "أنس":

- ألم تخبرني أنّك ندمت وتبت يا "كلودة"؟

- كنت فقط أودّ أن أتحدث إليها لأخبرها أنني لم أقصد أن أجرحها أو أسيء إليها.

- تشفق عليها.. أليس كذلك؟

- وأشعر بالذّنب الشديد، كان الصواب أن أصدّها من البداية.

- لكنّك إن التقيت بها ستضعف وتعود.

- لن أعود لذلك يا "أنس"، صدقني، أنا فقط..

- انظر لنفسك! تستدرجك شهوتك لتنزلق مرّة أخرى.

- لا..أنا ذاهب فقط لكي يرتاح ضميري ولست ذاهبًا لإرضاء شهوتي، اتركني يا "أنس" أرجوك.

واستدار وترك "أنس" وأكمل طريقه تجاه القصر، لاحقه "أنس" وسبقه ووقف يعترض طريقه وقال وهو يمسك بكتفيه:

- عد معي، وأغلق تلك الصفحة تمامًا، ولتنس أمرها وتسلّمه لله، هو يكفيها، وادع لها في صلاتك هي وكل من يخطئ، توبتك تحتاج منك أن تقطع صلتك بالماضي إلى الأبد، مجرّد عودتك إلى نفس المكان ستنبش الذكريات، ستضغط على بقايا علقت بنفسك ولم تزل بعد أدرانها، ما زالت روحك تتأرجح، فشدّها بعيدًا واضرب خيمتك في فلاة واربأ بنفسك عن هذا واستغفر واستعصم، وعضّ على بنانك إن استبدت بك الشهوة وأصابك الحنين إلى العودة إلى هنا.

- أشعر أحيانًا أنني قوي، وأحيانًا أخرى أنني قبيح وقذر ونفسي متسخة... ولن أتغير أبدًا، وسأظل كما أنا، لن يغفر لي الناس، ستظل بقايا الماضي عالقة بي، وستطاردني.

- المهم أن يغفر لك ربّ الناس

- أخشى أن...

- لا تكملها... ظن به خيرًا!، سيغفر لك، وسيستجيب، أتظن أن كلّ من حولك ملائكة! كلهم يخطئون ويذنبون يا "كلودة".



- لعلهم يذنبون ذنوبًا خفيفة، أمّا أنا فخطئي أكبر! ابتليت في شهوتي يا "أنس"

- كل الذنوب شهوات، شهوة جسد، لذّة جوارح مادية، تذوقها أعضاؤك فقط، أما روحك...فلها ملكوت آخر، جرّب أن تتلذذ وأشبع روحك بذكر الله، سيغادرك هذا الإحساس بالدونية، وستكون أقوى... جرّب.

- وددت أن أكون إنسانًا فاضلًا يا "أنس"... ولكن فات الأوان!

- من قال هذا؟ أن تكون فاضلًا تعني أن تكون إنسانًا طيّبًا ونقيًا، أَمِنَ الآخرون أذاه.

- ويحب مكارم الأخلاق وتتمثل فيه، أنا أخطأت.. كيف سأعود نقيًّا؟

- لكنك ندمت! كلّ سيئة ستقلب برحمة الله إلى حسنة، وكل ظلمة ستضيء، وكل نكتة سوداء ستبيضّ، أنت بشر ولست نبيًا معصومًا، أنت تخطئ لكنك تداركت الأخطاء، قد تذنب، لكنّك تريد التوبة، يكفي أن يكون معظمك فاضلًا يا "كلودة"، لسنا ملائكة يا صديقي

ظللتهما السكينة ووقفا للحظات، انتهى الكلام لكن معانيه لم تنتهِ، نفرت دمعة من عين "كلودة" فاستقبلها "أنس" بكفّه واحتضنه ثُمّ سار يتأبّط ذراعه نحو البيت، عاد كلاهما لفراشه لينعم بساعة يغفو فيها قبل أن ينطلقا للعمل.

طرقات خفيفة على باب الدار أيقظته من غفوته، كان "كلودة" غارقًا في النوم عندما أفاق "أنس" وسار نحو الباب، فتحه فأصدر الباب أزيزًا غريبًا وامتلأت الدار بضوء ذهبي قويّ رفع "أنس" كفيه ليحجبه عن عينيه، خرج من باب الدار ليرى إن كان مصباحًا أو ماذا! اختفى الضوء فجأة وظهر أمامه الأمير "أواوا" الذي كان قد رآه من قبل في النفق تحت الماء، كانت عليه ثياب كتّانية مصبوغة بلون برتقالي فاقع ومحفورة بخيوط ذهبية على أطرافها، على رأسه كان التاج يومض تحت ضوء الشمس عاكسًا ألوان فصوص الياقوت التي تطعّم التاج، فغر "أنس" فاه وهو يتأمل هيئة الأمير الساحرة بقامته المديدة وملامحه المستضيئة، أجفل عندما رآه ينزع التاج عن رأسه ويركض وكأنّ هناك من يطارده، تلقّت "أنس" ثُمّ تبعه حيث دار خلف البيت وأسرع

يختبي خلف جذع شجرة، رأى الأمير "أواوا" ينحني حيث كانت هناك كومة من الأغصان وبدأ يزيلها ثُمّ بدأ يحفر الأرض بأصابعه حتى تغبّرت رموشه وحاجباه و ملابسه، نفض يديه وأخرج صندوقًا خشبيًا وجلس بجواره وأخرج منه كتابًا ما، فتحه فدار وتقلّب في الهواء وانفصلت ورقاته وطارت في الهواء وحلّقت حول الأمير "أواوا"، عاد الأمير يكرر العبارات التي رددها على مسامع "أنس" في الممر تحت الماء بينما تدور الصفحات حوله، وبعد أن انتهى عادت تستقر بانتظام بين دفّتي الكتاب، أغلقه بحرص شديد وحمله وكأنّه يحمل رضيعًا وتأمّله بامتنان ومد يديه بالكتاب لـ"أنس"، تلاقت عيناهما فشعر "أنس" وكأنّ روحه تنسحب من بين جنبيه، استيقظ على صوت "كلودة" وهو يهزّه بقوّة ويقول له:

- ما بك يا "أنس"؟ لماذا تشهق بتلك الطريق؟

في تلك اللحظة، كان "كُومبو" يقف ويصيح عليهما بصوته الجهوري من أمام باب البيت، ولمّا لم يفتحا ركل الباب بقدمه ودلف بعينيه الضاحكتين، قال بمرح:

- أعدّت أمي لكما إفطارًا شهيًّا، فطيرة محشوّة بالتفاح والعسل.

في ثوانٍ معدودة كانت الغرفة تعبق برائحة الفطير الشهي، وثب "أنس" من فراشه، كان يشعر أن عظام جسده تكاد تتفتت، جلس ساكنًا كالصنم للحظات ثُمّ قال لهما:

- سأعود بعد لحظات.

خرج راكضًا ودار خلف البيت يتفحّص الأشجار، عثر على كومة الأغصان تحت شجرة جذعها عريض، أسرع "أنس" يحفر تحت الشجرة كما فعل الأمير "أواوا" في الحلم الذي رآه، انحنى وسحب صندوقًا ممتلئًا بالكتب، جلس والتراب يغطي رأسه وثيابه ثُم أخرج منه كتابه الذي يبحث عنه، لقد دلّه الأمير "أواوا" على مكانه!

عاد بالكتاب لرفيقيه، فور أن رآه "كلودة" شهق وألقى الفطيرة من يده وقال:



- إنّه كتابي!!

- بل كتابي... "إيكادولي"

- كيف عرفت مكانه!!

- لن تصدّق... بعد أن عدنا غفوت لدقائق ورأيت رؤيا تدلّني على المكان تحت الشّجرة، دلّني عليها الأمير "أواوا"

قال "كُومبو":

- يا الله! إذن الكتاب من ضمن كتاباته العظيمة يا "أنس"!

ارتبك "كلودة" وبدا عليه التوتر، لم يتخيل أن يكون الكتاب الذي أهدته له الأميرة "أُونتي" هو كتاب "أنس"، قال بتحرّج:

- لم أكن أعلم، فقد أهدته لي "أُونتي"، وجدت صفحاته خالية فكتبت به! كانت تلك الهدية التي أرسلت إليّ مع "مَرام" لتطلب مني أن أتخلص منها.

- إذن كانت "مَرام" قريبة من الكتاب وهي لا تعلم!

قلّب "أنس" صفحاته فلم يجد شيئًا، تعجّب "كلودة" وأخذ يبحث عمّا كتبه فيه، ثُمّ قال متعجبًا:

- كنت قد كتبت بعض الكلمات، لا أدري أين اختفت!

أغلق "أنس" كتابه وقال:

- الكتاب لا يقبل ما يكتب عليه، يبتلع الكلمات ويرفضها، ستظهر الكلمات تباعًا في وقت ما، هذا ما أعرفه!

قال "كُومبو" بفمٍ ممتلئ بالفطير وكان يتابعهما بفضول شديد :

- هكذا إذن تحدث الأمور، حسنًا أيها المحارب، ها أنت قد استعدت كتابك، فهل سترحل عنّا؟

قالها وفي عينيه مسحة حزن تشي بأنّه قد تعلّق بـ"أنس" ويصعب عليه أن يغادرهما، قال "أنس" يلاطفه:

- لا أيها السمين! سأبقى معكما وسأظل بالقرية حتى يسترد الكتاب كلماته.

- لست سمينًا

- ألست "كُومبو"؟

- نعم أنا "كُومبو"!

- إذن أنت سمين

انطلق الثلاثة إلى دكان العطارة، كان "أنس" سعيدًا باسترداد كتابه،، ظلّ يشاكس "كُومبو" طوال الطريق، بينما البسمة المتعبة لم تغادر وجه "كلودة"، الذي كان يتعافى من الماضي، وقد بدأ يسترد روحه النقيّة، عاد يسبح، قال بصوت مكسور:

- سبحانك سبحانك، ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله!



بأنف عريضٍ مثقوب تتخلله حلقة ذهبية رفيعة، وأذنين يتدلّى منهما فصّان من الياقوت الأحمر، وبوجه ضامر مغبّر تثقبه عينان ضيقتان، وعليه ثياب سوداء مشبوحة باللون الأصفر دلف الساحر "قرجة" وعلى رأسه قبّعة غريبة تنفر منها ضفائره المجدولة بحبال تتدلى منها أجراس صغيرة ، جلس أمام الأميرة "نَبرة" وقال بصوت أجشّ:

- مولاتي الأميرة "نَبرة"

كانت "نَبرة" تخافه لكنها تأبى أن تظهر هذا، لم تجرؤ على إطالة النظر إلى عينيه أكثر من ثانيتين، كانت تركز على أصابع يده الستة وهي تتحدث إليه قائلة:

- أيها الساحر العظيم، أرسلت إليك لتساعدني.

نظر إليها بعينيه المتلصصتين تحت حواجبه المرتعشة على نحو شائن وقال:



- طوع أمرك مولاتي.

- هناك كتاب ثمين يخصّني سُرق من غرفتي، وأنا أبحث عمن سرقه.

مد "قرجة" يده فجأة وأمسك بيدها فانتفضت وركزَ عينيه في عينيها فارتجفت وراعتها نظراته، ترك يدها فتراجعت وقبضتها نحو صدرها وقالت له:

- سأعطيك ما تطلبه، ودلني على السارق.

صفّق "قرجة" فاقترب مساعده، ووضع إنائين أمام نبره، صبّ في أحدهما الماء، ووضع في الآخر طينًا أسود، وبدأ يتمتم بكلمات لم تفهمها "نَبرة"، ظلّ يرددها وكانت تشعر بالجو حولها يزداد حرارة، طلب منها أن تختار إناء وتحمله، حملت "نَبرة" إناء الماء فانسكب عليها، غضن الساحر حاجبيه ثم أغمض عينيه في غضب، صرخ صرخة ارتجّت لها أركان الغرفة، وأحسّت هي بأنّ هناك ألف إبرة رشقت في ذراعها، طلب منها أن تحمل الإناء الآخر الممتلئ بالطين الأسود، حملته بين يديها بحرص شديد، بدأ الساحر يحدّق فيه، وبدأت الصور تتمثّل أمام عينيه حيّة مرّة أخرى ورأى فتاة تفتش في خزانة "نَبرة" وتسرق الكتاب، كان ينتظر أن تستدير ليرى وجهها، وكانت "نَبرة" تتابع تعابير وجهه بتركيز شديد وتنصت إليه وهو يصف ما يراه من مشاهد أمام عينيه لتعرف مصير الكتاب، ولكنّ الطين الأسود ماج في بعضه ثُمّ تصلّب فجأة وتحوّل إلى حجر صلد، فشهق الساحر وأغمض عينيه، صاحت "نَبرة" بعصبية:

- ما الذي حدث؟ من هي الفتاة؟

أمسك الساحر بالإناء وسحب منه الحجر الأسود الذي تكون وقال لها:

- أغلق الطين عينه!

- ما هذا الهراء! أعد ما قلته ولتحضر المزيد من الطين وأخبرني إلى أين ذهب الكتاب؟

- هذا الكتاب ليس لك.

- وما أدراك؟

- الكتاب مسروق من صاحبه.

وقفت وسارت خطوتين ثمّ التفتت إليه وخلعت خواتمها وكلّ ما ترتديه من جواهر وألقتها أمام الساحر وقالت:

- ولك المزيد، فقط دلّني على مكانه.

- لن أستطيع

- لماذا؟

- منعنى "المجاهيم" من تتبع مكان الكتاب

- ومن هؤلاء

- قبيلة من قبائل الجان، يبدو أن الكتاب يهمهم، لماذا تريدين هذا الكتاب؟

- أريده لأتمكن من السيطرة على المحارب، أريده... أتفهم؟

رفع حاجبيه وقال وهو يرشقها بنظرة خبيثة:

- يبدو أنّك تريدين المحارب لا الكتاب يا مولاتي!

عضّت الأميرة "نَبرة" على شفتيها بغيظ، كادت تنصرف لولا أن "قرجة" قال لها بصوت يشبه الفحيح:

- قد أساعدك في السيطرة على المحارب نفسه.

- كيف؟

- أحضري لي شيئًا يخصّه، واتركي الأمر لي.



أشرقت الشمس تكنس بقايا الليل، تنزع أدرانًا علقت بثوب الصُبح، فتنفّس تائبًا منيبًا، وأناركلّ شيء بنور الله، صفحة من ليل بهيم ولّت تطوي ذنوبًا غسلتها دموع التائبين، نسمات الهواء تهمس شكرًا لله على ستره للخاطئين، فهو لم يفضحهم ولم ينزع الغطاء عنهم لأنه أراد أن يمهلهم ليتوبوا.



كان أنس يتفحّص كتابه باطمئنان وهو يجلس في ركن هادئ بدكان "كلودة"، كان يتفكّر كيف ستظهر الكلمات، وكيف ستكون؟ هل هي قصة؟ أم مجموعة من النصائح والحكم في شكل قصصي؟ أم ماذا!! هو لا يحتاج الآن إلى الذهاب إلى المكتبة العظمى ليسألهم عن الكتاب، بل يحتاج لمخالطة الناس حتى يظهر أبطال قصّة كتابه، ألقى عصا التّسيار في القرية التي امتلأت طرقاتها بالغائدين والرائحين، مرّ الوقت فعاد وكان قد قرر أن يعاون "كلودة" و"كُومبو" في عملهما بدلًا من الجلوس معهما في الدكّان بلا فائدة، بعد يوم طويل مر الثلاثة ببيت أشريا"، دعتهم الأم الكريمة كعادتها لتناول الطعام، كانت تلك المرأة النوبية تجد متعة في الحياة الاجتماعية، مهما ازدادت مسئولياته لا تتأخر عن إطعام الطعام، أعدّت لهم "الكابد" حيث كانت تعدّه أحيانًا بعد أن يختمر ليتناولوه في الإفطار مع العسل واللبن، كانت تجيد صنعه من دقيق الذرة والشعير، كما كانت تطعمهم "الدوركد"، و"الشطيطة"، و"المرجيجة"، و"الشيلد"، والعديد من أصناف الأكلات النوبية الشهيّة.

اقترب "أنس" من "مَرام" وأخرج الكتاب لتراه، قالت وهي تمرّ بيدها على غلافه:

- يا إلهي! كان الكتاب قريبًا منّي طوال الوقت وأنا في القصر!

- نعم وفي نفس الغرفة، وكنتِ تطلبين من "كلودة" أن يتخلّص منه! ماذا لو حرقه "كلودة" مثلًا!.. تخيلي!

- تلك الكتب تدافع عن نفسها يا "أنس" لا تقلق

ثُمّ أضافت مقطبة جبينها:

- إنها تشعر بكلّ شيء!

- بالمناسبة، لا تخبري "أشريا" بأمر الأميرة "أُونتي" وعلاقتها السابقة بـ "كلودة"

- لن أخبرها...

- أعلم أنّك ساخطة عليه، لكنني أشعر أنّه و "أشريا" أبطال قصّة كتابي.

- هو لا يستحق "أشريا"!

- يا "مَرام"، "كلودة" كان قد اتخذ قرارًا بالتوقف عن رؤيتها من قبل أن تصلي إليه برسالتها، كما أنه كان سيرسلك شخصيًا لها لتخبريها بهذا.

هزّت كتفيها وهي تجلس وقالت:

- أوقال لك هذا!

- نعم، ولكنّك أخبرته أنّك حرّة ولن تعودي للقصر

أشاحت بوجهها وقالت:

- أشك في صدقه

- لقد ذهب بالفعل وأخبرها أنه لن يذهب إليها مرّة أخرى.

كانت "مَرام" غاضبة وهي تنصت إليه، فقد رأت "كلودة" بعينها مع "أُونتي" وكانت تكره فعلهما حيث كانت مجبرة على الذهاب معها، لم تكن قد شهدت بكاء "كلودة" ولم تسمع كلامه الذي أثر في "أنس" و"كُومبو"، وعدته أن تكتم السر، بعد لحظات وبشكل فجائي انطلقت أم "أشريا" تزغرد في فرح فقد طلب "كلودة" الزواج من أشريا" مرة أخرى ووافقت أخيرًا الفتاة على الزواج! تذكّرت "مَرام" حديثها معها في غرفتها وأدركت أنّها قررت أن تقف بجوار "كلودة" وتثبّته وتتقبله بعيوبه لأنّها تحبّه، كانت "مَرام" ترى تلك مجازفة وحماقة! ما زالت "مَرام" لا تثق في "كلودة"، لكنها لا تستطيع أن تفتح فمها! اقتربت منها وهنأتها، وكذلك فعل "أنس" مع "كلودة"، وعادا إلى أماكنهما يتحدثان، همست "مَرام" لـ"أنس":

- لماذا يفعلون هذا!

- من هم؟

- الرجال!

- ما بهم؟

- أترى "كلودة"! يعربد مع فتاة ويتزوج بأخرى عفيفة! أُشفق على "أشريا" لكنني لا أستطيع البوح لها بشيء.



- شش... كفي عن هذا! لا تفضحيه!

- لا أدري كيف تدافع عنه!

- لقد تاب، وهو نادم على ما فعله بشدّة.

غمغمت قائلة:

- وما أدراك؟

- أعرف، فأنا شاب مثله، مرّت أيام قليلة لكنّ ما شهدته فيها يكفي.

- لا يوجد شاب بكر العواطف على وجه الأرض...لماذا لا تكون الزوجة أول حب لزوجها؟

- وما أدراك أن كل الأزواج هكذا؟

- لا أدري... مجرّد ظنّ.

- أتحسبين أن أي خاطرة ترد على فكر رجل أو شاب تعتبر حبًا؟ الأمر ليس بتلك السهولة، ربّما هناك إعجاب، وربّما يفكر الشاب في فتاة ويتراجع كما تفعل هي أيضًا، حتى الفتاة العفيفة تعرض على عقلها صورة الخاطب لها، وتمر بخاطرها، لكنها وإن انصرف كلّ منهما لحاله تستخلص نفسها من حالة الفكر تلك، ولا يحسب هذا عليها حبًّا.. أليس كذلك؟

- لو فتّشت في قلب أي شاب ستجده مغارة علي بابا، ممتلئة بآلاف قصص الحب لكل الفتيات اللاتي التقى بهنّ في حياته.

- لا تقعي في فخّ التعميم، فليست كلّ الفتيات تملك قلبًا كمدينة الملاهي التي يستطيع أي شاب تلتقي به أن يتنزّه فيها.

أطبقت فمها، وعادت تتحفز له، كانت تشعر بالغضب تجاه "كلودة"، وكانت تصبّ غضبها على "أنس"، وكأنّه مسئول عن أخطاء غيره! لاحظ توترها، أراد أن يخفف عنها فقال بهدوء:

- لم يكن قلبي يومًا كمغارة علي بابا، كنت أتعامل مع زميلاتي في الجامعة بتحفظ حتى أن البعض كان يظنني شخصًا باردًا لا يجيد فنون التعامل

معهن بلياقة ولطف، لكنني كنت دومًا أرى أنه في يوم ما سألتقي بفتاة مميزة، وكما أنني حفظت قلبي من أجلها سيحفظها الله من أجلي.

- ولكن! انظر ها هي "أشريا" حفظت قلبها! وها هي ستتزوج من شاب....

- ربّما لصدقه حفظها الله له، وربّما لنقائها أصلحه الله لها!، لا يوجد شخص مثالي يا "مَرام"، كلنا نخطئ، وأخطاؤنا متفاوتة.

ابتلعه صمت خفيف بعد أن أنصت لنفسه! كان يسترجع فيه ما كان يفعله مع رفاقه سابقًا، كيف كان يلغي صداقته بمن يخطئ خطأ واحدا راوده شعور بالذنب تجاه كلّ من أقصاهم من حياته، لماذا لم يتراجع ويعطيهم فرصة! أو حتى يسأل عنهم ويكون هناك عندما يحتاجونه، فربما يثبتهم ولا يعودون للخطأ، انتشلته من فقاعة الصمت التي لاذ بها وهي تقول:

- نعم... ربما أصلحه الله من أجلها يا "أنس"... أرجو هذا.

ازدحم البيت في الحال، أقبل الجيران يفدون إلى الدار يهنئونهم، وكان "كُومبو" يهلل فرحًا ويقفز هنا وهناك يسلّم على الناس وكأنّه هو صاحب العرس، بينما وقف "أنس" و"مَرام" في حالة سكون لطيف يسترقان النظر خلسة لبعضهما، ويراقبان ميلاد حب جديد، كانت الفرحة تطل من عيني "أشريا"، وكان "كلودة" يشعر بفرحة ممزوجة بالخوف والوجل.

في لحظة ما تلاقت عيناها بعيني "أنس" فأسرعت تصرفهما، شعرت بدقّات قلبها تتواثب، هو الحب لا ريب، هكذا كانت تطقطق الكلمات في ذهنه هو الآخر، وكلاهما يشيح بنظره عن الآخر بينما القلبان يتبادلان النظرات، اهتزّ كتاب "إيكادولي" في حقيبة "أنس"، فأخرجه وفتحه واقتربت "مَرام" عندما لاحظت ارتباكه والكتاب بين يديه، لقد ظهرت أوّل عبارات الكتاب، وقف كلاهما يقرؤها بفضولٍ شديد:

"ذات ليلة، وحيث السماء يظللها جريد النخل وكأنّه سحاب أخضر، أطلّ قمرٌ طاهر على أرض لا يعرفها إلّا ساكنوها فأضاء جنبات نفس أخرى بالنور، فباح الريحان بعطره وملأ الكون عطرًا لأجلهما، وتعانقت أوراق الورد، ورقصت



الفراشات على حواف الزهر، ودارت الرياح تهنئ بعضها البعض، وسكن ماء النهر لينصت على استحياء، فهمَس المحب في نفسه، وكان لحبّه صوت لم يسمعه إلّا حبيبه..في نفسه! وحمل القلبان الحبّ كما يحمل الغمام المطر، في بقعة ما بين الشرق والغرب، حيث تتأرجح الحياة بنا، يحكى أنّ، ذات مرّة،..ولد حبّ!"

تبادل "أنس" مع "مَرام" نظرة خاطفة على استحياء، وعادا يتابعان ما يدور أمامهما في صمت وسكون جميل.



(١٩)

فرحة!

انقلب البيت رأسًا على عقب، الزواج اليوم! كانت تلك مفاجأة لـ"أنس"، كما كانت مفاجأة ل "مَرام"، فهما من عالم يستغرق الزواج فيه شهورًا طويلة، وربما عامًا أو عامين حتى يتم! كان الإسراع في الزواج وتسهيله من عادات أهل القرية، وخاصّة إن كانا أبناء عم أو خال، كانوا يعاونون بعضهم البعض وكأنّهم أهل بيت واحد، حمل بعض الأهالي أثاثًا بسيطًا لبيت "كلودة" كل منهم ينفحه هدية، كما أسرعت النساء بإعداد الطعام كل منهن تعد صنفًا شهيًا، أما الفتيات فتجمعن في بيت "أشريا" التي كانت مشغولة بشيء ما تتفحصّه بينما كانت صديقاتها يمشّطن لها شعرها، سألتها "مَرام" عنه فأخبرتها أنه "متّكأ الحبيب"، وهو نوع من البروش مصنوع من سيقان القمح ومشغول بقماش بديع الألوان شغلته "أشريا" ليعلّق خلف العريس "كلودة"، وكذلك تفعل كلّ عروس بالقرية، ابتسمت "مَرام" بينما كانت تتابع ضحكات الفتيات، وأحاديثهن الخجولة، وتلك الهمسات واللكمات الخفيفة على الظهور في جو من الفضول والخجل، ستتزوج "أشريا" أخيرًا من حبيبها الذي تعففت حتى طلبها.

مرّ اليوم جميلًا، وبسطت الفرحة رداءها على الجميع، انتقل "أنس" لبيت "كُومبو" وبات ليلته عنده، بينما عادت "مَرام" مع أم "أشريا" تكفكف لها دموعها فقد غادرت قرّة عينها لبيتها الجديد، كان كلّ منهما في مساحة أخرى، لكنّهما كانا يحلّقان معًا في سماء الحبّ، همس "أنس" لنفسه والكرى يعقد بمعاقل جفنيه وقال:

- سأتزوجها...ولم لا؟



بينما كانت "مَرام" ساهمة وهي تحدّق في الفراغ وتقول:

- "إيكادولي"

❐❐❐

انتصف الليل، لكنّ السكينة والهدوء لا يزوران القصر حتى يطلع الفجر، كالعادة يحتفل الملك "كِمشاق" ورفاقه بأي شيء، ليس ضروريًا أن يكون هناك سبب محدد، ولكنهم يحتفلون! أمّا"نَبرة" فما زالت غاضبة، لكن غضبها لم يمنعها من الجلوس وسط الاحتفال لتستمتع وتتلذذ بمراقبة العيون لقوامها وجمالها.

في غرفتها كانت "أُونتي" تفرك يديها في غضب وهي تسترجع آخر حوار لها مع "كلودة"، تذكرت عندما قال لها (ربما لا ترينني مرّة أخرى)، لكنّ هذا لم يكن ما يقضّ مضجعها بل تلك المقاومة التي لاقتها وهي تحاول أن تقترب منه كالمرة السابقة! كان يمسك بذراعيها بقسوة! ويدفعها وهي ترغب فيه وتحبّه! حتى أنه عاد وظهر من بين الأشجار بعد أن انصرفت الجارية وأخبرها بوضوح وبكلمات مقتضبة أنه سيتوقف عن لقائها، وأنه نادم على كل لحظة رآها فيها، وأنه يخشى الله ويرجو مغفرته! شعرت بطعنة وكأنه وجه إليها إهانة شديدة.. لم يترك لها الفرصة وأسرع هاربًا منها وكأنّها الموت يلاحقه.

- فليذهب للجحيم ذاك الحقير!

قالتها بمرارة وكل خلية في جسدها تنفر غاضبة، فتحت خزانتها وأخرجت أحسن أثوابها وأكثرها إظهارًا لمفاتنها وارتدته ونزلت في كامل زينتها للحفل، أرادت أن ترضي غرورها بشكل ما، شيء ما يعيد إليها كرامتها التي أهدرها "كلودة" بنفوره بتلك الطريقة، فور دخولها ران صمت مفاجئ على الحضور، لو ألقى أحدهم إبرة لاستمع الجميع لرنينها، كان جمالها في تلك اللحظة يفوق جمال "نَبرة" التي استشاطت غضبًا عندما رأتها، فهي لا تقبل بوجود من ينازعها عرش الجمال في ذلك القصر، حتى أختها الشقيقة، انضمت "أُونتي" للحضور، وعاد الصخب للقاعة.

❐❐❐

كان كل شيء يبدورائعًا في عيني "مَرام" وهي تسير بتؤده نحو الدكّان، كانت تراودها أحلام يقظة خاطفة وهي تسير، وكانت تبتسم وهي شاردة كطفلة صغيرة، تخيّلت نفسها عروسًا ترتدي فستانًا أبيض واسعًا وتزفّ إليه، تخيّلت كلّ شيء حتى لون ربطة عنقه، كل تلك التفاصيل الصغيرة التي لم تكن تعلم أنها ستدقق فيها حتى وهي تحلم به وتتخيله، حمدت الله أنه لا أحد يرى ما يدور برأسها. اقتربت منهما بانضباط وحيتهما بوقار ثمّ وضعت سلّة ممتلئة بالطعام أعدتها أم "أشريا" للعروسين أمام "كُومبو" و"أنس" وسألتهما:

- من منكما سيحمل الطعام للعروسين؟

قهقه "كُومبو" قائلًا:

- ما زلت لا أصدق أن "كلودة" تزوج!

كان "أنس" على غير عادته، لقد بدأ يرتبك في حضور "مَرام"! كان يشعر أن نفسه التي بين جنبيه ترتج كالجرس، هربت الكلمات منه، شعر أنه لا يستطيع الكلام، وكأن الوهن أصابه! تذكّر كيف كان يرى "كلودة" وهو يتحدّث إلى "أشريا"، وكيف كان يتهمه بالهوان والضعف، اخترقت "مَرام" فقاعة الصمت التي كان لائذًا بها وسألته:

- هل ستحمل أنت الطعام يا "أنس"؟

- يبدو هذا لأن "كُومبو" لن يستطيع ترك الدكان، هل من الممكن أن تسيري معي؟

فاجأته بردها الذي نزل عليه كالصاعقة عندما قالت:

- لا!

رد بتحرّج:

- يبدو أنني أزعجتك.

قالت بارتباك:

- لا..لا..لم تزعجني ولكنني، أفضل أن أعود لأم "أشريا" فهي حزينة لفراق ابنتها كما تعلم.



- حسنًا سأذهب الآن.

- لا تنس أن تنقل سلامي إليهما.

استدار كلاهما وافترقا، كانت "مَرام" قد قررت ألا تسير معه وحدها مرّة أخرى، لا تدري كيف في تلك الظروف العجيبة! وفي تلك المملكة الغريبة! لكنها أرادت أن تحتفظ بتلك المنطقة المحظورة التي تربت على أن تحيط نفسها وقلبها بها، فلا تسمح لغريب بأن يقتحمها، حتى لوكانت..... تحبه!، اجترّت ذلك الحوار الذي دار بينها وبين "أُونتي" التي أخبرتها أنها لن تستطيع السيطرة على مشاعرها ونفسها إن وقعت في الحبّ، وأنّها ستخطئ، وكان ردها أنها ستستعصم.

سار "أنس" نحو بيت "كلودة"، شاردًا يفكر كيف أصابه سهم الحب فجعله هشًا بتلك الطريقة! في تلك اللحظة شعر باهتزاز في حقيبته فأدرك أن هناك عبارة جديدة ظهرت في الكتاب....

"عندما أحبّها، ارتقى معها فوق مستوى اللذة، لم يدع الفرصة لجسده لكي يمتطي روحه ويقودها إلى الهاوية، ترك العنان لروحه لتحلّق فوق جسده فروضته وارتقت به نحو الجنان، كان يحبّها، ويعشقها، لكنه يخشى من نفسه، ويخشى عليها من نفسه!"

أكمل "أنس" طريقه يتفكّر في الكلمات، وبعد أن وصل لبيت "كلودة" والتقى به وعانقه طويلًا، ثُمّ أعطاه الطعام طلب منه الدعاء، شعر "كلودة" لأول مرّة أن "أنس" أصابه شيء ما! لكنّه أسرع يغادر على استحياء وعاد من حيث أتى.

أغمض "أنس" عينيه، وجال في نفسه، وكأنّه يتعرّف عليها لأوّل مرّة! هناك اشتياق لحالة من الشفافية مرّت به ربّما في لحظات عديدة في أيام مضت، أحيانًا وهو ساجد، وكثيرًا لحظة إفطاره بعد صيام رقّ فيه قلبه، وربما عندما كان يقرأ القرآن، تنفّس بعمق ثمّ فتح عينيه، وسار وهو يطالع كل شيء حوله بعين أخرى، ومن منظور مختلف.

عاد إلى الدكان حيث كان "كُومبو" يوزع الابتسامات، ذاك الشاب لديه روح تضج بالسعادة، يفرقها على الآخرين، وكأنه لا يخشى الحزن أبدًا.



مرّ أسبوع عاش فيه "كلودة" أسعد لحظات حياته مع حبيبة قلبه "أشريا"، كانت كل لحظة تمر بهما تزيدهما قربا، وكانت هادئة كقطة وديعة اطمأنت أخيرًا لجوار صاحبها وسيّدها فسكنت له. ما زال البرد شديدًا وكأنّ تلك المملكة فصولها الأربعة شتاء! كانت "أشريا" ترتجف عندما أخبرها "كلودة" وهو يحتضن كفيها بين كفيه أنه سيعود للعمل، وإن أحبّت أن تسير معه لبيت أمها فلتستعد في الحال، هبّت واثبة ووضعت على رأسها خمارًا فضفاضا وسارت ترفل فيه خلف زوجها، استدار يحتضن كفّها بكفّه وسارا معًا نحو بيت أمها التي أغرقت دموع فرحتها وجهها فور أن رأتها، توجه إلى الدكان حيث كان "أنس" يقرأ في كتابه بتمعّن، كان قد استقرّ في نفس "أنس" أن "كلودة" و"أشريا" هما بطلا قصة الكتاب بالفعل، أخفى عنه ما كان يقرؤه وبعد أن سلّم عليه انخرط كلاهما في العمل، مرّ اليوم لطيفًا على الجميع، واجتمعوا على الطعام كالعادة، وقف "أنس" بجوار "مَرام" غير ناظر إليها وقال وقد بدا عليه التحرّج:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم أنا بخير.

- كيف هي عينك ويدك؟

- عيني أفضل، وبدأ الجرح في كفّي يتحسّن والحمد لله.

كانت وكلما تنظف جرح يدها تعيد تضميده بتلك القماشة التي مزّقها من قميصه، ودّت أن تخبره بالكثير من الأشياء، عن خوفها فما زالت خائفة، لكنها أصبحت تخجل من أن تخبره أنها تخاف أن يختفي فجأة، أو أن يحدث له خطب ما، مضى "أنس" بخياله يطوي الأيام وقال فجأة:

- عندما نعود لديارنا... ما رأيك أن تتعرّفي بأختي "حبيبة".

بدا على وجهها الاستبشار وقالت:

- أود ذلك بالفعل.

افترّت شفتاه عن ابتسامة وقال:



- ستسعد بهذا، فهي قليلة الأصدقاء، كما أنّها تشبهك كثيرًا.

- أخبرتني بهذا من قبل.

نسى وجودهما في بيت أشريا ووسط الجميع وبدأ يحدّثها بصوتٍ عالٍ عن نفسه أمام الجميع، حدّثها عن أيام الجامعة، ورفاقه، وطبيعة دراسته، حتى أنّه أخبرها عن طفولته، كانت تنصت إليه مستمتعة بحديثه، قالت مبتهجة:

- يبدو أنّ دراسة الهندسة ممتعة، أظنك درستها بحبّ وشغف.

أومأ موافقًا وأكمل حديثه، وكأنّه اليوم لا يريدها أن تتحدث، بل أن تنصت إليه وحسب، فهو يودّ أن يخبرها بكلّ شاردة وواردة عن حياته، كانت حريصة على أن تبدو هادئة منضبطة في تصرفاتها وأقوالها لتداري بهذا المظهر ما يضطرب في نفسها من نوازع. وكان يحدّثها وفي عينيه وهج جميلٌ تطل منه إشراقة مسحورة. كان يراها قريبة منه جدا وبعيدة عنه جدا، فهو يتعجّل الخروج من تلك المملكة ليطمئن أنها موجودة بالفعل، وأنها واقع في حياته يستطيع أن يجعلها جزءًا منه، أصبح يخشى أن تكون "مَرام" حلمًا يراوده!

لو تنبهت لعينيه لرأتهما تقطران حبًا لكنها كانت تخفض الطرف، وكان هو يتحدّث إليها طويلًا ثمّ يختلس نظرة ويعود فيخفض الطرف عنها، كانت هناك معركة تدور في صدره، كان يستجيب فيصمت ويسكن، ثمّ يجد نفسه وقد عاد يحدّثها وكأن لسانه كان محبوسًا لسنوات وأطلق سراحه للتو، وكانت كلّها آذان صاغية، بينما كان "كُومبو" يراقبما في سكينة وهدوء شديد. جاء وقت الفراق، وكان ثقيلًا على قلبه كما لم يكن من قبل، ودعها وانصرف مع "كُومبو" وأمّه إلى بيتهما ترف كل جوارحه هوى إليها. اهتزّ الكتاب في حقيبته، فأخرجه وقرأ ما كتب فيه:

"وأُسرت روحها لديه، وعلق قلبه لديها، ومضى كلّ منهما يملك في نفسه شيئًا من الآخر، يحلمان بلحظة يسكب كلّ منهما رحيق الحب الطاهر في فؤاد الآخر"

رفع رأسه وتأمّل "كلودة" و"أشريا" وهما يسيران أمامه نحو بيتهما، ثُمّ أغلقه وأعاده إلى حقيبته ومضى مع صديقه "كُومبو".

أمّا "مَرام" فجلست هادئة القلب راضية النفس نشوانة الخيال، لكنّها شعرت بضيق فجأة، كانت تعلم أنه لا بدّ من صراع قبل أن يُسترد الكتاب، ولا بدّ أن وقته اقترب.



في الصباح التالي وفي غرفتها وحيث كانت "أُونتي" تتلوى من الغيظ دلفت عليها شقيقتها "نَبرة" وجلست بعد أن أشارت للجواري ليتركنهما وحدهما، قالت بلهجة آمرة:

- هناك شيء ما! أنتِ لست "أُونتي" التي أعرفها، أخبريني ما الذي يحدث؟

- لا شيء!! لم تقولين هذا الكلام

قامت وسارت نحوها وامسكت بالمقعد حيث غطست "أُونتي" فيه خوفًا ورعبًا منها، وألصقت جبهتها بجبهة أختها وقالت:

- إن لم تنطقي فسأستخرج منك الكلام بطريقتي الخاصّة.

تمتمت "أُونتي" بخوف وقالت بصوت مخنوق:

- ماذا تريدين؟

- الكتاب.. أنتِ سرقتِه أليس كذلك؟

شعرت "أُونتي" بقشعريرة تجتاح جسدها كلّه وبعد أن ابتعدت عنها أختها وقفت ترتجف كورقة شجرة تتلاعب بها الرياح وقالت بصوت مرتعش:

- بل سرقته تلك الجارية.

- من؟

- "مَرام"

- تلك المريضة؟



- لم تكن مريضة، كانت مصابة في عينها فقط، أحضرها "حليم"..اسأليه عنها، فقد دثّرها بوشاحه عندما أحضرها، وكانت سعيدة بهذا! هي سرقت الكتاب من غرفتك وفرّت بعد أن سرقت المال من خزانتي.

كطلقة مدفع خرجت "نَبرة" من غرفة أختها وهي تهمهم بعبارات توعّد وتهديد لها لأنها لم تخبرها في الحال، كما بدأت تسب وتلعن في "حليم"، انحدرت ككرة من النار على الدرج واقتحمت ديوان أخيها "كِمشاق" وقذفت بكلماتها في وجه "حليم" الذي كان يقف بجواره:

- أنت السبب، تلك الجارية التي أحضرتها هي التي سرقت الكتاب من غرفتي وهربت من القصر بعد أن سرقت المال من "أُونتي"

- أي جارية؟

- "مَرام"

- أيهم؟ أنا لا أذكرها!

- تلك التي غطيتها بوشاحك أيها الـ...

صاح "كِمشاق" يستوقفها قبل أن تسبّه، فهو يكره أن يغضبه لأنّه ساعده الأيمن، وألقت بجسدها على الكرسي وكأن صاعقة أصابتها، قال "حليم" بجدّية:

- ليس هذا بوجه سارقة.

- يبدو أنك عاشق أيها الحليم.

قالتها باستهزاء، فتجاهل ملاحظتها وقال:

- لست بسفيه أو أحمق حتى أُخدع! تلك الفتاة ليست سارقة، وهي فتاة شريفة لم يمسّها رجل من قبل، عودي لأختك "أُونتي" فهناك شيء ما وراء اختفاء تلك الجارية، وهناك سرّ وراء اختفاء الكتاب.

عادت "نَبرة" إلى غرفة أختها "أُونتي" ودار بينهما حوار أدارته بطريقتها الخاصّة حتى استخلصت منها القصة بحذافيرها من البداية وحتى تلك

اللحظة التي ماتت فيها روحها عندما لفظها "كلودة" ورفض غرامها، انكشف الأمر لـ"نَبرة"، لكنّها لم تخبر أخاها ولم تخبر "حليم" بما عرفته، فهي تود رؤية "أنس" أولًا!

انطلق بعض الحراس الخاصّين بها بعد طلوع الفجر يبحثون عن "كلودة" وعثروا عليه سريعًا فالوصول إلى بيته سهل عليهم، وانتزعوه من حضن بيته وأمنه وزوجته "أشريا" التي مادت الأرض تحت قدميها وسقطت مغشيًا عليها في الحال.

❒ ❒ ❒

عادت "أشريا" إلى بيت "أمها" وأخبرتها و "مَرام" بما حدث بعبارات قليلة يتخللها بكاء شديد بنشيج مسموع، كانت لا تعرف لماذا أخذوه! سألت "مَرام" مرارًا وتكرارًا فهي الوحيدة التي كانت في ذاك القصر، وكانت "مَرام" في حيرة من أمرها أتخبرها بأمر الأميرة "أُونتي" وقصّتها مع "كلودة" أم لا. آثرت الصمت، وخرجت لتخبر "كُومبو" و "أنس" الّلذين أغلقا الدكان وتوجها فورًا لبيت "أشريا"، هدّأها "أنس"، وأخبرها أن "كلودة" يعشق الكتب كما تعرف هي، وأنّ كتابه كان عنده، وحراس الملك يطاردون المحاربين، ويطلبون كتبهم، ولأن الخبر وصلهم بأن الكتاب عنده اعتقلوه، بكت وتعلّقت بكمّه وتوسلت إليه أن يعطيهم الكتاب ويعيد إليها زوجها "كلودة"، وعدها أن يعيده وخرج حائرًا، لا يدري ماذا يفعل!

❒ ❒ ❒

كانت ضربات السياط على ظهر "كلودة" متواليه حتى أنه فقد وعيه، كان خائرًا مضعضع القوى حيث علّقوه من قدميه فشعر بأن رأسه سينفجر، كرروا عليه السؤال:

- أين الكتاب؟

وكانت إجابته واحدة لا تتغير:



- الكتاب مع "أنس".

لكنهم كانوا يتلذذون بتعذيبه، كانت "نَبرة" تراقبهم وهم يضربونه، وجلست تفكّر فقد أخبروها أنه تزوج منذ أسبوع، فهل هو بطل قصة الكتاب؟، وهل إن حصلوا على الكتاب الآن وثقبوا قلبه سيستطيعون كتابة ما يريدون بدمه حسب هواهم! يغيرون ما يحبّون، ويثبتون ما يريدون أن يثبّتوه في عقول الناس! رفعت كفّها فتوقفوا عن جلده، واقتربت منه ووقفت أمام وجهه المقلوب حيث كان لا يزال معلقًا في الهواء، كانت علامات الألم بادية في عينيه الذابلتين وسحنته الشاحبة، سألته مهدده له:

- إن لم تخبرنا أين "أنس" الآن سأجعلهم يخلعون عينًا من عينيك.

أخبرها عن مكانه، كان منهارًا لا يحتمل نفخة هواء أخرى تمر على صفحة وجهه، فوصف لها العنوان بالتفصيل، أشارت لرجالها ليحضروا قلمًا وقرطاسًا، وكتبت لـ"أنس" تستدعيه لتراه بطريقة أدبية راقية، وأرسلتهم إليه، أرادت أن تلتقي به لتحاربه بطريقتها الخاصّة.



مرضت"أشريا" مرضًا شديدًا، كانت تنتفض وجبينها يتفصّد عرقًا، فسيرها في ذاك الطقس البارد بعد أن سلبوها زوجها صباحًا من بيتها لبيت أمها أضر بصحتها، أصابتها الحمى وكانت كسيرة ومهزومة النفس بسبب ما حدث لزوجها وحبيبها، جلست مَرام تمسح جبينها بالماء، أما أمها فكانت لا تتوقف عن البكاء، في غرفة أخرى من الدار كان "أنس" يجلس مع "كُومبو" يفكّر هل يذهب إلى قصر "كِمشاق" الآن ويستخدم خنجره أم يذهب أولا للحوراء ويسألها! تناهى إلى سمعهما صهيل خيول، فانتفض "كُومبو" وخرج يرى من بالباب فإذا برجل مهيب الطلعة قال بطريقة رسمية:

- معي رسالة من الأميرة "نَبرة".

كانت طريقته في الكلام توحي بالتوقير الشديد، يبدو أنّ "نَبرة" أوصته بذلك، اقترب "أنس" وتسلّم الرسالة، ثُمّ قرأها وقال:

- إنّها تدعوني للقائها.

اقتربت "مَرام" في قلق وقالت:

- لا تذهب.

لحظ "أنس" أن يدها ترتعش ونظر فإذا دمعة تند من عينيها، قال بهدوء:

- لماذا؟

غامت على وجهها سحابة من الأسى وقالت:

- أرجوك لا تذهب، إنّها "نَبرة"!

قال يطمئنها:

- هي تطلب اللقاء في مكان بعيد عن القصر، وليست الرسالة من الملك "كِمشاق" نفسه، وبأيّ حال لا بدّ أن أساعد "كلودة"، سأساومها على الكتاب.

وضع "أنس" في حقيبته كتابًا آخرًا ليوهمهم أنه يحمل كتابه في حقيبته، ذاك ما تبادر إلى ذهنه بعد أن فكّر سريعًا ليجبرهم على عدم قتله. قالت "مَرام" وهي تحبس دموعها:

- وماذا إن لم تعد؟

أجابها بثقة:

- سأعود إن شاء الله

شعرت بشوكة حادة تنغرز في فؤادها، قالت بخفوت:

- وماذا لو... لم نلتقِ مرّة أخرى هنا على أرض تلك المملكة؟

اضطربت في دمه الكلمات ثمّ قال:



- دعينا نتعاهد على شيء، إن لم يُكتب لنا اللقاء هنا، وعاد كلّ منا لأهله، فلنلتقِ في الإسكندرية، في مكان محدد.

- فليكن

واتفقا على المكان، وودعها "أنس" وهو يقرأ الألم على وجهها وفي عينيها، كان لا بدّ من إطلاع "كُومبو" على بعض الأمور، استأمنه على "مَرام" وشدّ على يديه وهو يصافحه، وابتعد مع الحراس يتلفّت من آن لآخر مشيرًا إلى "مَرام" التي انخلع قلبها لرحيله.



(٢٠)

خطر!

على حصان كستنائي اللون وتحت ستار الليل، كانت الأميرة "نَبرة" متجهة صوب مكان بعيد عن القصر وبعيدًا عن عين أخيها الملك "كِمشاق"، ترجلت بثوب فتّان وأقبلت ترفل في زينتها حيث كان "أنس"، عندما رأت وجه "أنس" أحسّت بقلبها ينسحق لكنّها نجحت في السيطرة على مشاعرها، كان يقف بكبرياء، تأملت فتوته بإعجاب، قطراتُ العرق كانت تتلألأ على جبينه رغم برودة الجو! فأدركت أنه كالبركان داخله يغلي رغم القوة والثبات الذي يحاول الظهور بهما، كان قد أغمض عينيه وأرخى ذراعيه يبدو منهمكًا في التفكير بعمق، وقفت لدقيقة تتأمله وتراقبه، فُتنت به فنسيت من هي وأين هي ولم جاءت، بينما كانت تراقب كلّ لفتة منه وكلّ حركة يقوم بها بإعجاب، كانت تقترب بخطوات هادئة، أشارت للحراس الذين حيوها بإجلال، انتبه "أنس" ورفع عينيه ورنا نحوها بنظرة خاطفة وقال وهو يطوف في الأرجاء بعينيه:

- أين "كلودة"؟

اقتربت ووقفت قبالته حتى اخترق عطرها القويّ أنفه وقالت وهي ترمقه بجرأة:

- أنت قويّ، وجريء! كيف لبيت دعوتي بتلك السهولة! ألا تخشى أن أقتلك؟

لم يرد عليها مثيرًا لديها شعورًا بغيضًا بأنّها تتحدث إلى الفراغ. كادت تصرخ في وجهه كما اعتادت، تنهره، تصفعه ليرفع عينيه ويحدّثها، لكنّها وقفت أمامه كالقط الصغير، قالت بنَبرة مرهفة:

- اسمي..."نَبرة".



لائذًا بفقاعة من الصمت انصرف مبتعدًا عنها بينما وقفت تتابع خطواته، لم يتسنّ لها التنفس، وكأنّ نبض قلبها يتردد في صدغيها، لقد فُتنت "نَبرة" ولأوّل مرّة في حياتها! فتنت بالمحارب الذي جاء خصيصًا ليسترد نهاية كتاب ستنازعه عليه!

جلست على مقعد قرّبه إليها أحد حرّاسها ووضعت ساقًا على ساق وقالت بخضوع:

- "إيكادولي".. هل تعرف معناها؟

لم يلتفت "أنس" ، قالت هامسة:

- أحبك

لم يرف له جفن، كان ثابتًا كالطود فشعرت بانزعاج وأردفت:

- أين الكتاب؟

- ليس معي

- وأين هو؟

- في أمان.

قالت بهدوء:

- لماذا لم تحضره معك، ألا تثق بي؟

- وما الذي يدعوني للثقة بك! لقد خطفتم صديقي!

كانت تحاول أن تمدّ حبائلها حوله ببطء، قالت وهي توقّع كلماتها:

- وما الذي جعلك تثق بـ"الحوراء"؟ أليس من الغريب أن تمنح ثقتك لغرباء دون آخرين، أتيت إلى مملكتنا غريبًا عنا، لا تعرف عن ماضينا فما لك تحكم على الناس دون أن تسمع منهم؟

- كان جدي هنا من قبل وكذلك أبي، وأنا أثق بهما وبمن وثقا به من قبل.

ابتسمت وقالت:

- وهل لا بدّ أن نفعل كل ما فعله أباؤنا وأجدادنا دون تفكير!

بدأت كلماتها تستفزّه، قال بعصبية:

- لا.. ولكنني أثق في حكمهما على الأشخاص، ولكل منهما تاريخه وتجربته هنا.

تحولت ابتسامتها إلى تقلّص مريع على جانبي فمها وقالت:

- أين عقلك، أليس لك عقل تفكّر به وتحكم على الصواب والخطأ، وتختار بإرادتك؟ أم أنت تساق كالأعمى!

بدأ الوريد في جبهته ينبض، ردّ بحدّة:

- اخترت بإرادتي وعقلي أن أثق بأبي وجدي.

تلونت سريعًا كالحرباء ونظرت إليه نظرة فيها كل معاني الاستسلام والغزل وقالت:

- لماذا أنت غاضب؟ هل ضايقناك في شيء؟ أنت تعلم أنني كنت أستطيع أن أطلب منهم إحضارك بنفس الطريقة التي أحضروا بها "كلودة"، لكنني أعلم أنك مختلف عنه، أنت شريف... لكنه خائن غدر بـ"أُونتي" المسكينة، وكانت تحبّه.

- هو ليس بخائن!

قالها وهو يمرّ على وجهها سريعًا حيث رمشت عندما التقطت مقلتيه فأردف مدافعًا عن "كلودة":

- كانت تطارده، لم يكن ليفكر في أميرة وهو شاب بسيط وفقير، هي التي فتحت له الأبواب، وكانت تستدرجه وتغويه، وقد ندم وتراجع وأنهى علاقته بها وأخبرها بنفسه.

لم يكن أمر "أُونتي" يشكل أهمية لدى "نَبرة"، كان جلّ تركيزها على "أنس"، شعرت للحظات أنها فهمته، هو من ذاك النوع من الشباب المهذّب الذي يسهل الطريق إلى قلبه عن طريق معاملته بذوق وأدب، لا بأس من إظهار



بعض الضعف حتى تستميله، وربما تشهر أسلحة أنوثتها لاحقًا، قالت بعد صمت خفيف:

- أنت على صواب، أهلكتني أختي "أُونتي"، كنت أنصحها كثيرًا لكنها كانت تسيء إلى أسرتنا بأفعالها، لا أدري كيف أتصرف معها.

ثُمّ سألته:

- هل هما أبطال قصّة كتابك؟ هل ظهرت العبارات بعد أن التقيت بهما؟

- ربّما... ربما "كلودة"و زوجته.

- أو "كلودة" و "أُونتي"!

- لا أظن.

- الكتب هنا تفاجئنا، تكون عكس كل التوقعات! ربما أنا وأنت أبطال هذه القصّة.

ارتبك "أنس" عندما قالت هذا ورنا إليها حيث اقتنصت نظرة منه، ابتعدت عنه خطوات ثُمّ استدارت فجأة قائلة:

- هل أحببت من قبل؟

- ولم تسألين؟

هزّت كتفيها وقالت:

- طالما قلت هذا فأنت عاشق، من لا يحب يجيب نافيًا بثقة في الحال، ترى من هي؟

أشاح "أنس" بوجهه بعيدًا عنها وقال:

- أتيت لأتحدّث عن "كلودة"، أين هو الآن؟

- لا بأس بحديث جانبي، وسنعرج للحديث عنه فلا تقلق.

- لا... لا مجال لحديث آخر.

قام يسير بغضب فعلق قميصه بمسمار بارز من خشب الجدار، نزعه منه بعصبية فتمزّقت منه قطعة وعلقت بالمسمار فابتعد وهو يفرك ذراعه حيث أصابه المسمار بجرح، بينما اتجهت"نَبرة" والتقطت قطعة القماش التي تمزّقت من قميصه وكورتها في كفّها، أومأت لكبير الحراس فقد اتفقت معه أن ينزع عن "أنس" قميصه قبل رحليه لتعطيه للساحر "قرجة"، لكنها الآن ستكتفي بهذا الجزء الممزق، فهمها الحارس في الحال.

كرر "أنس" كلامه باستياء شديد:

- أريد أن أرى "كلودة" حالًا.

كان يتحدّث بثقة، فهو لا يهابها ولا يخشاها، حتى أنه لم ينظر إليها! شعرت "نَبرة" أن هناك من رشق كومة من الإبر في جسدها، انتفضت وسارت نحو حصانها حيث ساعدها أحد الحراس في ركوبه، ثُمّ التفتت نحو "أنس" وقالت بعنجهية:

- أحضر كتاب "إيكادولي" واستبدله بصديقك، وأسرع قبل أن يقتله الملك.

انصرفت "نَبرة" والغيرة تتأجج في صدرها، ذاك الشاب عاشق لا محالة، لم يرف له جفن وهي من هي تتألق في زينتها أمامه، وكأنه قد عمي وهي بقربه!



كان اللصوص ومنذ خروجهم من قصر الملك "كِمشاق" يبحثون عن "أنس" في كل مكان، توزعوا بين القرى يبحثون عنه، على حين غفلة منه، وبينما هو عائد من لقاء "نَبرة"، وبعد أن تتبعوه نجحوا في أسره بعد اشتباك عسير مع رجالهم، فقد كان "أنس" من ذاك النوع الذي يصعب أن تغلبه إلّا بالكثرة، فهو خصم قويّ وعنيد. أسرعوا به نحو قصر الملك ، ودخلوا به مقيّدًا، وقدموه لـ "حليم"، ركلوا "أنس" بقسوة ليخرّ مرغمًا على ركبتيه أمامه، لكنّه وثب بقيوده واقفًا وأبى أن ينحني، فانهالوا عليه بالركلات حتى فقد وعيه.



استيقظ على أثر ضرب السياط وقد كان معلّقًا من ساقيه، كان يشعر أن دماءه التي تجمّعت في رأسه المتدلّي تكاد تخرج من عينيه، كان الجلّاد ينهال على جذعه بالسياط، بينما كان "حليم" يتمشّى أمامه، أشـــار للجلاد ليتوقف

عن ضربه، أخرج خنجرًا رفيعًا واقترب من قلبه ليثقبه، وقال يهدده:

- أتعلم أنني أستطيع الآن أن أثقب قلبك؟

- وماذا بعد؟

- ستموت.

- وهل أنا على قيد الحياة الآن!

قالها "أنس" وكان يعنيها، فقد بدأت الأمور تختلط عليه، ملّ من تلك المملكة، وبدأ يكره كلّ ركن فيها. كاد "حليم" يشير للجلاد ليعود لجلده، لكن "أنس" باغته سائلًا:

- في أي عام نحن الآن؟

- ماذا!

- وددت أن أعرف... في أي عام نحن؟

- مائه وثلاثة وأربعون.

- ماذا!

- كما قلت لك مائة وثلاثة وأربعون، لماذا تتعجب؟

- معقول!

كاد "أنس" يقول شيئًا ما، فقد تذكّر نصيحة الأمير "أواوا" التي أخبره بها في الممر تحت الماء في تلك الرؤيا، أن ينتبه للأرقام! لولا دخول "نَبرة" التي صرخت فالتفت "حليم" تجاهها وقال:

- "نَبرة"! صحيح، نسيت أن أدعوك لتشهدي تلك اللحظة، ها هو المحارب وسنثقب قلبه الآن.

اقتربت وهمست وهي ترشقه بنظراتها:

- وكيف ستثقب قلبه والكتاب ليس معنا أيها الأحمق!

زمجر غاضبًا حيث استفزته كلماتها وقال بصوت جهوري ليسمعه ويخيفه:

- سنجمع دماءه في وعاء لوقت لاحق وعندما نعثر على الكتاب سنكتب ما يليق بملكنا العظيم "كِمشاق".

- وما أدراك أن هذا صواب؟ لم يحدث هذا من قبل.

التفتت "نَبرة" نحو وجه "أنس" فسحبت "حليم" من ذراعه بعيدًا حتى لا يسمعهما وأردفت قائلة:

- أرى أن نستبقيه حيًّا حتى نحصل على الكتاب، لقد كنت سببًا في ضياعه يا "حليم"، ألم تعثر على تلك الجارية التي اشتريتها من السوق...التي سرقت الكتاب؟

- ليس بعد، لكنني سأعثر عليها.

انصرفا معًا وتركا "أنس" بعد أن أمر "حليم" الجلّاد أن ينزله ويقيد ساقيه بالسلاسل.

وبعد نحو ساعتين، وتحت جنح الليل تسللت "نَبرة" إلى زنزانته وهي تخفي وجهها. كان ثمن صمت الحراس غاليًا، لكنها ولأنها تعرف عن زعيمهم الكثير من الأسرار بسبب عيني بومتها كان التهديد وسيلة لتصل إلى ما أرادته، استطاعت أن تحرر "أنس"، وقفت تلتقط أنفاسها وقالت هامسة:

- سنذهب الآن إلى غرفتي، سأخفيك حتى أرتب أمر هروبك مع الحراس.

- لا

- لماذا؟

- ولماذا أذهب معك وأنا استطيع الفرار الآن!



كان "أنس" لا يثق بها، لكنها كانت سببًا لكي يهرب، ما زال لا يفهمها! ربّما فيها بعض الضعف الذي يراه في عينيها، أو ربما هي فعلا ذات قلب طيب، لكن جرأتها وسفورها عظّما في قلبه الامتعاض والحذر منها، كان محتارًا في أمرها، وهو بالتأكيد لن يبيت في غرفة امرأة! لا سيما التي لا حياء لها! قال محاولًا أن يستشف ما وراء أفعالها:

- كيف استطعتِ دخول زنزانتي؟

قالت في دلال وقد تملكها الزهو:

- لي عيون ورجال، لا تستهن بي!

ران عليهما الصمت للحظات كانت تفكّر في مخرج ما، يبدو أنه صعب المراس، رأت أن تتركه يرحل لتكتسب ثقته مؤقتا، وتستدعيه مرّة أخرى وقتما شاءت، سمعت صوتًا أربكها، فأسرعت تجاه أحد رجالها، وكلّفته أن يدله على الطريق لكي يخرج من القصر بسلام.

هرب في الظلام مهتديًا بضوء القمر، قطع المسافة ركضًا وكأنّه يهرب من الموت، كان غضبه هادرًا وشديدًا، هدّأ من ركضه عندما اقترب من بيت "أشريا"، في تلك الساعة كانت القرية قد خلت إلا من أواخر الناس وطوارق الليل وبقيّة من الأنفاس تحبو في الطرقات ذاهبة إلى مضاجعها، وضعت "مَرام" يدها على صدرها وتنهّدت باطمئنان عندما رأته يقترب، حيث كانت تتنقل بين "أشريا" وهي تنتفض بين يدي أمها، وبين النافذة تراقب الطريق وتنتظر عودته، أسرع "كُومبو" مهرولًا نحوه فور أن رآه ليسأله عن "كلوده"، طلب منه أن ينتظر حتى تنضم إليهما"مَرام"، فهو لا يودّ إزعاج "أشريا" لأنه لا يحمل خبرًا جديدًا عن زوجها، وبعد أن خرجت "مَرام" قصّ عليهما ما حدث بالتفصيل، وفور أن انتهى أطبق عليه الصّمت كأنّ كلّ الكلام قد تلاشى وتبخّر على شفتيه.كان متعبًا تؤلمه آثار السياط على جذعه، فارقه نشاطه وخفته وبدأ يجثم على صدره نوع من الكآبة، قالت "مَرام" وهي تسقيه الماء:

- "أنس" ما بك؟ هل تخفي عنّا شيئًا ما؟

كانت تلك المرّة الأولى في حياته التي يجلد ويضرب فيها بتلك الطريقة، وكان يشعر بالإهانة، أمسك الكوب وفي يده بقية من اضطراب وقال:

- لا... ولكنني أشعر أن الأمور قد بدأت تتعقّد.

اختلس نظرة واقتبس شيئًا من عينيها ليسترد شيئا من إرادته ثُمّ خفض طرفه وقال:

- لكنّ تلك الأزمة ستمرّ إن شاء الله، وسنعود إلى ديارنا يا "مَرام".

حاولت أن تمنحه ابتسامة مغتصبة لتشجّعه وتخفف عنه، لكنّها لمحت في وجهه مرارة وفي قسماته وجومًا أخافها. انصرف مع "كُومبو" ليطبب له جراح ظهره في بيته، وعادت "مَرام" وسهرت ليلتها بجوار "أشريا".

❒❒❒

يقولون إنّ تحت البحر نار، وإن جوف الأرض يتلجلج بجحيم يتلظى، وهناك تحت هذا الرماد شظيات تختبئ، وهنا تحت بشرة تلك الأميرة التي تبدو للناظرين باردة دماء تغلي وقلب يحترق... كانت "نَبرة" تتساءل في نفسها، كيف تجاهلها "أنس"؟، كيف لم يُفتن بجمالها؟، كان يشبه تلك التماثيل الخالية من النقوش، يتحدث معها وكأنّه لا يقول شيئًا، ينظر إليها وكأنّه لا يراها! قررت أن ترسل إليه مرّة أخرى، وكان قد مرّ يومان على رحيله من القصر، والذي أحدث ضجّة بين الحرّاس كلفتها الكثير من المال، واضطرت لقتل أحد رجال "حليم" حيث ذبحه رجالها لأنه كاد يشي بأمر تهريبها لـ "أنس"، لم يكن "حليم" يعلم بأنّها تعرف عنوان "أنس"، وظلّت تخطط لكي لا ينكشف أمره لأخيها ولـ "حليم" ففي نفسها شيء تجاهه، ترى أنه يصلح أن يكون حبيبًا لها، وربما تغير أمورًا كثيرة في تلك المملكة!
كانت تتعجل رؤيته، أرسلت إليه رسالة تطلب منه أن يلتقي بها لأمر هام وضروري، أرسلتها في الخفاء مع أحد رجالها.

وسط النهار، وبينما يفكّر في طريقة ما يعرف بها أخبار "كلودة"، حيث حاول أكثر من مرّة أن ينتقل بالخنجر لبلاط القصر ليبحث عنه، كان يدلف إلى الفجوة ويعود لنفس المكان! هناك شيء غريب! لا ينجح الأمر مع قصر الملك "كِمشاق" كما نجح مع غيره! وأصابه إرهاق شديد. جاءته الرسالة معطّرة بعطرها وملفوفة بشكل أنيق وكأنها رسالة حبّ مما



جعله يتعجّب! أرادت "نَبرة" أن تلتقي به بالقرب من بيت "كلودة"! تعجب للمكان الذي اختارته، أخبر "مَرام" و"كُومبو" وأسرع إلى هناك، مرّة أخرى ذهب للقائها دون الكتاب، ومرّة أخرى تركه والخنجر مع "مَرام" التي ماتت على لسانها الكلمات، فهي تشعر أن الأميرة "نَبرة" تدبّر لشيء ما، وكانت تخشى على "أنس".

فور أن وصل إلى البيت انطلق يفتش بعينيه هنا وهناك، لا حراس ولا خيول! فأين هي؟ خلف البيت، وفي بستان كثيف الأشجار فوجئ بصقر مهيب الطلعة ينتظره مع "نَبرة" التي رحّبت به في شيء من الحرارة، وقفت أمامه بزينتها وكأنها قطعة من الفتنة المتحركة.

قدّمته له بإجلال، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يرى فيها "القرناس"! ذاك الصقر الذي سمع عنه الكثير، كان يختلف في هيئته عن "الرمادي"، كان "القرناس" ذا ظهر أسود، والجسد أبيض يخرج منه جناحين مبرقشين، وذيل طويل، وعريض، ومدبب عند نهايته، ذو طرف أزرق وعلامة بيضاء على أقصاه. يظهر أعلى رأسه السوداء كما الشارب الذي يمتد على الوجنتين بلون أردوازي يتباين بشكل حاد مع جانبيّ العنق الداكنين والحلق الأبيض. اهتزّ فور أن رأى "أنس" وقال بصوت أجشّ:

- مرحبًا أيها المحارب!

- مرحبا أيها "القرناس".

- أين كتابك؟

- ليس معي.

- من الخطأ أن تسير بلا كتابك.

- أعرف هذا جيّدًا، والآن.. ماذا تريدان مني؟

تقدّمت "نَبرة" تجاهه وطالعته بشغفٍ و إعجاب وقالت:

- صفقة!

- أي صفقة؟

أشارت بارتباك للقرناس الذي قال بثقة:

- أنت تعلم أننا نحن الصقور نعرف عن التاريخ والكتب ما لا تعرفونه، فدعني أطلعك على السر.

- أي سر؟

- كتابك يتحدّث عن الحب، "إيكادولي" يحكي قصّة حبّ أميرة ومحارب، الأميرة وقعت في حبّه منذ النظرة الأولى، أنت محارب وها هي الأميرة.

ثُمّ بسط جناحه مشيرًا إلى "نَبرة" وأردف قائلًا:

- القصّة كانت تنتهي بموت المحارب، حيث سيقتله أحد الأمراء غيرة عليها، ولأن الأميرة "نَبرة" تكره هذا وتخشاه، والصفقة هنا أعرضها عليك بنفسي، فأنا لي مكانتي بين باقي الصقور. الأميرة "نَبرة" تعرض عليك أن تسلّمها الكتاب بنفسك، وتكتبا معًا قصتكما على صفحاته بدماء جرح بسيط على كفيكما، وتسلّمك نفسها وتسلمها نفسك، ليخلد حبكما إلى الأبد.

حرّك "أنس" رأسه وقال ساخرًا:

- أتعني أن أتزوجها!

تطلعت إليه بنظرة كلها نداء وقالت:

- ولماذا نتزوج! أنت تعلم أن زواجنا مستحيل لأنّك محارب، يكفينا الحبّ

قال باشمئزاز:

- أي حبّ هذا!!

قالت بتهدّج:

- الحب لا يحتاج إلى زواج!

قال غاضبًا:

- ما هذا الهراء! أنت تخرفين..



ثارت "نَبرة" ومادت الأرض تحت قدميها، وبدلا من أن تصرخ في وجهه غطت وجهها بكفيها وبدأت تبكي، رفرف "القرناس" بجناحيه وحلّق مبتعدًا، كان الصقر يفهم ما تقدم على فعله الأميرة "نَبرة"، فانصرف وترك لها الساحة لتكمل دورها، بينما هرولت هي نحو "أنس" وقالت بخفوت:

- أنت لا تصدّق أليس كذلك؟

- أصدق ماذا؟

- أنني أحبك!.. أرجوك... أنا أحبك!

شعر "أنس" بكارثة تظلله، تراجع للخلف مستعجبًا وهو يراقب عينيها المغرورقتين بالدموع وقال:

- الحبّ لا يأتي بالتوسّل والرجاء

- لكنه يقع على الإنسان بغير اختياره، لا أريد منك سوى القرب، دعني أسكب روحي بروحك، اسمح لي أن أحبك.

أنهت كلماتها وعادت تبكي، كانت ماهرة في استجلاب دموعها، وبارعة في توظيف إيماءاتها ونظراتها. أقبلت عليه فقال في صوت غائر كأنما ينبعث من أعماق هاوية:

- اتركيني.. ابتعدي عنّي.

شعر "أنس" بالخطر عندما بدأ يتعاطف معها! وعندما بدأت كلماتها تؤثر فيه، أسرع مهرولًا خارج البستان، وعاد والأفكار تتناطح في رأسه. وكأن عاصفة تجتاح نفسه فتحطمها وتوشك أن تحطم حياته كلها.



حلّ الليل وأطلّ القمر مختنقًا، في ضوء واهن لشمعة أوشكت أن تنطفئ ويحترق فتيلها، وكانت هناك ظلال صغيرة قد ظهرت وانعكست على الأرض يراقب أصحابها وجه "أشريا". في ركن يلفه الظلام إلا من بصيص مصباح صغير، كان جبينها مغمورًا بالعرق وهي تجلس في هوانٍ وبجوارها أمّها تمسح

رأسها بالماء من آنٍ لآخر وهي ترتجف. شدّت الغطاء الصوفي على جسد ابنتها المتكورة بجوارها قبل تسقيها الدواء..

خرج "أنس" ومعه "كُومبو" و "مَرام" يتحاورون، كان "أنس" قد قصّ عليهما ما حدث مع الأميرة "نَبرة، كان "أنس" متعبًا وكأنه خرج للتو من حرب، مرّت البومة البيضاء من فوقهم فصرخت "مَرام"، أخبرت "أنس" أن "نَبرة" تراقبهم وأخبرته عن تلك البومة وكيف تمنح "نَبرة" رؤى ليلية وها هي ستنقل إليها أنهم التقوا هنا ومعهم الكتاب، لاحق "كُومبو" البومة وطاردها بالقاء الأحجار عليها حتى ابتعدت، قرروا الانتقال مع "أشريا " وأمها إلى مكان أمين، حتى أم "كُومبو" ذهبت معهم، بعيدًا عن أعين الناس، وعن عيني "نَبرة" وبومتها قضوا ليلتهم غير مطمئنين، فالقلق يستبد بهم على "كلودة" المسكين، وكان الانتقال بـ"أشريا" وهي مريضة أمرًا لم تستحسنه أمها لهذا قاومتهم كثيرًا لكنهم في النهاية اضطروا إلى هذا، خوفًا من حراس "نَبرة". وكانت "أشريا" لا تزال تعاني من الحمّى، لم يخرج أحد منهم، وكانوا الثلاثة "أنس" و "مَرام" و "كُومبو" يفكرون في طريقة للوصول إلى "كلودة"، قرروا أن يحاولوا الذهاب سيرًا على الأقدام في اليوم التالي، فـ"مَرام" تعرف الطريق إلى القصر، وربّما تستطيع مساعدتهم للتسلل من أحد الأبواب. أرخى الظلام ستره، وسكنوا حيث هم، وبعد أن عانت "نَبرة" طوال النهار من نفسها التي تتقلب بين جنبيها وعاودت البكاء، فقد شغفها "أنس" حبًا وباتت مغرمة به، وقد بدأ ذاك الشغف منذ رأته بعيني بومتها في الغابة.

خرجت ومعها تلك القطعة التي تمزّقت من قميصه، كانت تشمها وتقبّلها. وصلت في مكان ما حيث اجتمعت زمرة من النساء غليظات الملامح، لديهن أجسادُ ضخمة، ووجوه كستها صفرة كالحة. ساهمات الخدود، كأنّما تدلين على الأرض من مشنقة. جلست كلّ منهن بجوار الأخرى وشكلوا حلقةً حول الأميرة "نَبرة"، وعليهن ثياب سوداء طويلة مطبوع عليها رموز خضراء وصفراء فاقعة، كتابات غريبة ترمز لشيء ما!

ذهبت إليهن "نَبرة" حيث أخبرتها الوصيفة أنهن سيساعدنها على استجلاب الحب لقلب "أنس"، وأنّه سيغرم بها إن نادت عليه الليلة وهن يرتلن ترانيما معيّنة بينما تعقد كبيرتهن عقدة على قطعة من قميص "أنس" الذي يحمل



عرقه. وكانت "نَبرة" تؤمن أنّ السحر هو الحل! فقد فشلت في إغوائه بجمالها، فشلت لأوّل مرّة أمام رجل! وهي التي لا يصمد أمام جمالها الرجال!

من خلفهن كان هناك بعض الغلمان يعلّقون الطبول على رقابهم، أمّا النساء الغلاظ فقد استقرّت بين أيديهن أوعية من الفخّار مجوفّة تصدر دويًا مكتومًا عندما يطرقونها بكفوفهن. رفع زعيمهم عصاه فبدأ القرع على الطبول بانتظام، امتزج صوت قرع الطبول بأصواتهم الغليظة، همهم الرجال وهم يقرعون أجراسًا نحاسية في أيديهم، ثُمّ بدأت النساء بترديد ترانيم حزينة، كان للصوت وقع مهيب ومخيف، بدأت الترانيم تتغير لنَبرة غاضبة، وتسارع إيقاع القرع على الطبول والأجراس، بدأت "نَبرة" تنفعل، اهتزّ جسدها كلّه وكأنّها أُصيبت بصاعقةٍ من السماء، وبكت بنشيج مسموع، التفّت حولها بعض النساء وقمن بحركات منتظمة، حرّكن رءوسهن وأكتفاهن بطريقة غريبة، إنّها رقصة النّار، شهقت "نَبرة" ثم قالت بصوت مخنوق وكأنّه يصدر من بئرٍ عميق، وقد نبع من سويداء قلبها:

- "إيكادولي"

تعالت أصوات النساء يردون عليها بنفس الكلمة، مصحوبة بنغمة حزينة:

- "إيكادولي...... إيكادولي"

كانوا يطيلون الصوت بالحرف الأخير وكأنهن يَنُحنَ معها ويستجلبن البكاء، علا صوت "نَبرة" شيئًا فشيئًا، بدأت تصرخ كالمذبوحة، مرّات ومرّات، دموعها أغرقت وجنتيها، ضمّت يديها لصدرها، كانت رغبتها الجامحة إليه تستنفض على وجهها، وتسوقها في عنان الغيظ، دارت حول نفسها وكأنّها غابت عنهم، حتى انهارت وغرقت في يأسها وانحنت متقوقعةً وكأنّها تتلقى طعنة في فؤادها، تلوّت من الألم، سقطت على الأرض وهي تكررها "إيكادولي....إيكادولي"، بينما كان "أنس" في مكان آخر مشغولًا بحديثه مع "كُومبو" شعر وكأنّ أحدهم غرز في قلبه شوكة. حاول الوقوف على قدميه، بدأ يتقدّم ببطء كما لو كان بصدد غطسة انقطع نفسه لها ثُمّ غاب عن الوعي فجأة.

❐❐❐

(٢١)

سحرا!

لم ينم "أنس" تلك الليلة، كان شارد اللب ذاهل الحسّ تجيء به الخواطر وتذهب، يرى الناس حوله وكأنّهم أخيلة تتراقص، وأشباح تضطرب، كان يتصفّح وجوه "مَرام" و"كُومبو" وأمّه، و"أشريا" وأمها فينكرها ولا يعرف فيها وجها! كانت صورة "نَبرة" تتمثّل أمامه بزينتها، صوتها كان يهمس في أّذنيه نفس الكلمة التي كانت تصرخ بها وسط النساء وهي تتلوى... "إيكادولي"، حتى عندما أغمض عينيه رأى عينيها أمامه، رائحة عطرها التي عرفها يوم رآها كانت تخترق أنفه! انفصل عن الواقع وبدا وكأنّه قد سُلب عقله!

سأله "كُومبو" باهتمام:

- ما بك يا "أنس"؟

ابتسم ابتسامة ممزقة يُخالطها الأسى، وقال:

- أشعر وكأنّي لست أنا!

- ربّما أصابتك الحمّى.

تحسس رأسه فانتفض "أنس" وأبعد كفّه بانزعاج، تراجع "كُومبو" ورمقه بنظرة فاحصة ثُمّ قال:

- هل هناك شيء ما تودّ أن تُخبرني به؟

باضطراب ووجل طاف "أنس" بنظراته في المكان ثُمّ قال:

- لا...لا...لا يوجد شيء.



ثُمّ أردف متمتمًا بصوت متقطع:

- "نَبرة".... أُريد "نَبرة".

فغر "كُومبو" فاه وقال باندهاش:

- نَبرة!

- نعم... أُريدها!

أغمض "كُومبو" عينيه وحاول أن يُعيد أفكاره إلى نصابها .. اقتربت أم "كُومبو" وكانت تراقبهما، قالت وهي تشير إليه بأصابع ترتجف:

- إنّه مسحور...

قال "كُومبو":

- كيف؟ كيف يا أمي؟

- ألا ترى عينيه!.. وكيف يردد اسمها!

قال "كُومبو" بتوتّر شديد:

- قميصه! نعم..قميصه كان ممزّقًا يا أمي، وعندما سألته عنه و طلبت منه الجزء الممزّق لأرقعه له أخبرني بما حدث وقال إنه ترك الجزء المقطوع وراءه هناك، لا بدّ أن الخبيثة "نَبرة" أخذته وعقدت عليه سحرًا.

خرج "أنس" من البيت القديم الذي كانوا يختفون فيه هائمًا على وجهه، حتى أنّه لم يتحدّث إلى "مَرام"، ركض وهو يترنح نحو السهول حول بيت "كلودة"، ولاحقه "كُومبو" الذي صاح فور أن رآه يتجه إلى هناك:

- كنت فريسة سهلة، انشغلت بخنجرك وانتقالك عبر الفجوات، وكتابك العجيب، وأصابك العجب بنفسك، نسيت أنّ كلّ هذا هباء إن لم تستعصم بالله!

قال له هذا محاولًا أن يكبح جماح تلك الوساوس والخواطر التي تجتاح صديقه الذي كان يقف أمامه منكسرًا بحلق جافّ ووجه ملتهب وهو يُردد:

- وماذا سأفعل الآن... ساعدني.

- ماذا تريد؟

- أن أذهب إلى "نَبرة"

- لن تذهب! ولن أتركك.

دفعه "أنس" بعنف، وصارعه للحظات، كان أكثر منه قوّة فتراجع "كُومبو" قليلًا ثم ظلّ يلاحقه ويحدّثه، قال يذكّره:

- أترى؟ أنت الآن تفعل ما كان يفعله "كلودة".

- لا

- أنت تسعى إلى الرذيلة.

- لا... أنا سألتقي بها فقط، سأتحدث إليها.

- عد يا "أنس" أرجوك، أفق قبل أن تتمزّق هيبتك

طالعة "أنس" بعينين محتقنتين وقال صارخًا:

- اغرب عن وجهي.

اعترضه "كومبو" بصدره وثبّت ساقيه بالأرض وقال له:

- إذن... تخطني أولًا إن أردت صعود ذلك السهل.

ووقف "كُومبو" مكانه ولم يتزحزح قيد أنملة وظلّ يدفعه ويمنعه، ثُمّ أرهق كلاهما من دفع الآخر له، هرب "أنس" من "كُومبو" الذي كان يلاحقه ويمنعه من الذهاب لـ "نَبرة"، حاول أن يستخدم الخنجر ليصل إليها سريعًا وحرّكه في الهواء، ظهرت الفجوة فوقف أمامها وجرّب أن يردد اسم القصر، وجرّب أن يردد اسمها... "نَبرة"، لكنّ الخنجر لم ينقله إليها!

ولمّا ملّ من ملاحقة "كُومبو" له انتقل إلى الغابة، فأسرع "كُومبو" وأخبر "مَرام" بما حدث، فهي وحدها تستطيع الدخول إلى الغابة. كانت "مَرام" تركض خلفه محاولة اللحاق به، بينما كان يسير بخطوات متعرّجة وبلا هدف



وسط الغابة، وكأنّ هناك من يسوقه بحبل، وصلت أخيرًا حيث استطاعت أن تنادي عليه فسمعها والتفت ورمقها بعينين ذابلتين وسألها في حنق:

- ماذا تريدين.

كانت أنفاسها المتلاحقة تمنعها من الكلام، دقّات قلبها كانت تتواثب بسبب ركضها المتواصل من بيت "أشريا" وحتى مكان "أنس"، بصعوبة قالت:

- لا تذهب إليها يا "أنس".. أرجوك.

- لا أستطيع، لا بدّ أن أراها.

- لا...لا

صرخت فالتفت إليها غاضبًا كما لم يفعل من قبل وقال بغضبٍ هادر:

- مرّة أخرى تصرخين؟... هيا انتحبي بالبكاء واضربيني بغصن شجرة كالأطفال..

كانت "مَرام" تدرك أنه ليس "أنس" الذي تعرفه، حاولت أن تتماسك وقالت بهدوء:

- أنت لست بوعيك يا "أنس"، أرجوك عد معي وسنحاول الخروج من تلك الأزمة معًا.

- عودي أنت واتركيني، أو سيري في الغابة وحدك..

- أرجوك يا "أنس".

- ابتعدي عني.

دفعها فسقطت على الأرض بينما أكمل طريقه غير مبالٍ بنداءاتها المتتالية، صاحت قائلة:

- "نَبرة" لا تحبك.. ذاك ليس حبًّا يا "أنس"، وأنت لا تحبّها

- ومن أخبرك أنني لا أحبّها؟

انسحقت روحها وقالت بخفوت:

- أنا أعرف.

- وما أدراكِ؟ هل قرأتِ أفكاري؟

ثمّ ضحك ساخرًا وقال:

- هل عادت لك تلك الموهبة؟

وقفت وسارت نحوه بهدوء وقالت وهي تحدّق في وجهه بعين منطفئة:

- لم أقرأ أفكارك... لكنني شعرت بك!

حرّك عيناه كالمجنون وقال:

- أنت لا تعلمين شيئًا يا "مَرام"، عودي إلى الغابة، إلى "ناردين" واتركيني لحالي.

رفعت صوتها قائلة:

- "نَبرة" تريد الكتاب.. "إيكادولي" وفور أن تحصل عليه ستقتلك.

صارت عيناه تقدحان شررًا مخيفًا، بحركة فجائية عنيفة أخرج "أنس" الكتاب والتفت نحو "مَرام" وألقاه في وجهها فأحدث الكتاب خدشًا بطول خدّها الأيمن وسقط أمامها على الأرض، تحسست وجهها وكان الخدش يحرقها، كادت تبكي لكنها تماسكت، قال دون أن ينظر إليها:

- أنا ذاهب لأجلها... لأجل "نَبرة"، خذي الكتاب واتركيني لحالي.

رفع خنجره في الهواء، أراد أن يقول شيئًا لكنّه كان في حالة من الهوان والضعف حتى أنّه لم يتمكن من نطق حرف واحد، كان غارقًا في غياهب فكره وكأنه قد شُلّ فجأة، اقتربت "مَرام" بسرعة وتحلّت بالشجاعة واستجمعت كلّ ما لديها من قوة وعزيمة وحدّقت في الفجوة وهي تتلاعب أمامهما في الهواء وقالت:

- البيت القديم مع "كُومبو".



ثُمّ دفعته بأقصى قوّة أمامها فالتقمته الفجوة، وقفزت خلفه لأوّل مـــرّة تبتلع خوفها من أجل إنقاذه، وفور أن وصلا وراَه "كُومبو" حيث كان ينتظرهما وهو في غاية القلق أمسك بـ"أنس" وأسنده حيث كان يترنّح وصبّ على رأسه الماء، فهدأ "أنس" وقال له بخفوت:

- ساعدني أرجوك.

رمقه مبتسمًا وحاول جاهدًا أن يظهر رباطة جأشه ليثبته وقال له:

- ما أنا إلّا عبدٌ ضعيف الحيلة إن لم تقوَ أنت على الأمر بنفسك.

- أرجوك....

- ولم ترجُوني يا "أنس"! وما أملك لك أنا! اطلبها من الله!

خرّ "أنس" على ركبتيه مسحوقًا مكسورًا، مرّت الدقائق ثقيلة عليه، كان يقاوم رغبة تنازعه وتدفعه للركوض إليها، وكان جسده يؤلمه وكأنّ هناك من يدّق كلّ جزء فيه بمطرقة من حديد، وقفت "مَرام" تبكي وهي تراه في تلك الحالة، غربت الشمس فاضطرت لتركهما، قبل انصرافها قالت له:

- "أنس" سأرحل الآن، أرجوك تماسك.

- ساعديني.

- ليتني أستطيع.

نخر الحزن قلبها بلا هوادة، أرادت أن تخبره أنّها تحبّه، كانت تغربل ذهنها باحثة عن كلمة تبثّ فيها ما تشعر به، لكنّها ضلّت الطريق إلى كلّ المعاني والكلمات! وأرادت أن تطلب منه أن يحفظ نفسه لها فكل راجفة من رواجف قلبها تهتف باسمه.. لكنها لا تستطيع أن تخبره بكلّ هذا!

أحدث صمتها ضجيجًا في نفسه، وتكلّم كلّ شيء فيهما دون أن يتكلّما، وانصرفت تمشي على استحياء تجرّ قلبها الممزق خلفها، وعادت حيث "أشريا". لازمه "كُومبو" ولم يفارقه، تعاهدا على اجتياز تلك الضربة القاسية معًا، قرر ألّا يتركه، وقف "كُومبو" يقلّب الأفكار في رأسه، الأحداث تتسارع، لا بدّ أن

يزول أثر السحر، بينما هو غارق في الاحتمالات كلّها زفر "أنس" وكأنّ روحة تتفلت من بين جنبيه وقال بعد جهد شديد:

- قيّدني يا أخي.

- ماذا!.. لم أُقيّدك يا "أنس"؟

- قيّدني أرجوك...

- اجلس واذكر الله.

- قيّدني أولًا، حتى لا أركض نحوها، لا أُريد أن أقع فيما لا يرضي ربّي.

- حسنًا فلننتقل إذًا إلى مكان آخر حيث أستطيع أن أغلق عليك بابا يا "أنس".

وانتقلا معًا إلى مكان آخر، أسرع "كُومبو" بتقييد "أنس" بسلسلة من حديد، طلب "أنس" منه أن يقيد قدميه أيضًا ففعل على مضض، أغلق النوافذ، ثُمّ تراجع للخلف وهو يراقب "أنس"، وجلس على الأرض أمامه وبدأ في تلاوة ما يحفظه من القرآن، لم يكن "كُومبو" شيخًا ولا ناسكًا يتحدّث عنه الناس ويشيرون إليه، لكنه كان يحمل في قلبه يقينًا قد لا يحمله شيخ فقيه، كان ينهي القراءة ويعود للبداية فيقرأ مرّة أخرى، لم يملّ ولم يكلّ طوال الليل، بينما كان "أنس" كالوحش الكاسر يزوم في قيده، انطفأ بريق عينيه، وتسارعت دقّات قلبه، كان في الماضي مستريح النفس، خالي الفكر، لا تملكه شهوة وكان يبكي من خشية الله، فماذا سيفعل الآن وقد تبرّجت له الدنيا!...أين تلك اللوعة التي كان يشعر بها عند ذكر الله؟

أغمض عينيه ودفع بآخر قواه في أتون المعركة الداخلية التي من شأنها أن تعيد نفسه إليه، دارت بين نفسه العفيفة ونفسه التي أسرتها الشهوة حرب عنيفة ملتهبة كان وقود نارها من روحه وجسمه، كان صدره ضيّقا وكأنّه يصّعّد في السماء، جرّ أقدامه وتقدّم ببطء، ارتعدت أوصاله.

مرّت ثلاثة أيّام وهو على حاله، ينازع في قيده الذي أدمى ساقيه، يطعمه "كُومبو" ويرقيه بالقرآن ويعتني به، ويتركه لساعة يزور فيها أمه و"أشريا" وأمها، و"مَرام"، بدأ ينتشل نفسه من غيابة الجب الذي أُلقي فيه، وداس على



الشهوة التي تتأجج في صدره مخافة ربّه. لم يتسنّ له التنفّس وسقط مغشيًا عليه. شعر أخيرًا وكأنّ روحه قد عُتقت من رق الجسد وارتفعت عن الأرض فهامت في السماء.

❐ ❐ ❐

ثلاثة أيام بلياليها مضت تملّس على بعضها البعض، بنهارها العكر وليلها البهيم، وأخيرًا جلس "كُومبو" أمامه بابتسامة متعبة حزينة، عندما شعر أن "أنس" قد استرد نفسه التي رآه بها أوّل مرّة التقى به فيها، كان "أنس" ثابتًا ساكنًا بعد أن داس على الشهوة التي كانت تتأرجح في صدره مخافة ربه.

أراد "كومبو" أن يخبره بما دار خلال الأيام الثلاثة الماضية، حيث كانت تحمل الكثير من الألم، فقد داهم الحراس ذاك البيت القديم الذي كانوا يختبئون فيه، سرقوا الكتاب "إيكادولي" من "مَرام"، وأسروا "مَرام" عندما تعرّف عليها أحد الحراس حيث كان بصحبة "حليم" عندما اشترى الجواري وكانت من ضمنهم، عادت "أشريا" مع أمها لدارهما، ما زالت أم "كُومبو" تلازمهما. أنهى "كُومبو" سرد التفاصيل على "أنس"، ووضع أمامه خنجره وذاك الكيس الذي يحتوي على قطع الكريستال التي تحوّلت إلى قطع فحم مرّة أخرى، وبجوارهما بسط الخريطة التي أعطتها "الحوراء" لأنس، ثُمّ خلع قلادة "أنس" وأعادها له فقد كان يرتديها لأن "أنس" كان قد ألقاها على الأرض في إحدى المرّات، وأخرج من جيبة الزجاجة الزرقاء الصغيرة وقال وهو يطرق عليها بأطراف أصابعه:

- ذاك نوع من الحبر المعتّق، نوع نادر مصنوع من مسحوق حجر أسودٍ نفيس ما عاد يصنع الآن، أظنه معك لسبب وجيه.

- ظننته دواء!!

همس "أنس" بكلماته الأخيرة وهو في حالة انهزام نفسي وهوان شديد، أشفق عليه "كُومبو" فانطلق يحثّه ويشجعه:

- هيا يا "أنس"، قم أيها المحارب، لا بد أن تستعيد كل شيء.

- وكيف هذا؟

- فكّر، فما كان "إيكادولي" ليختارك إن لم تكن أهلا لاسترداده، أشعر أنك اقتربت من النهاية، ستسترد الكتاب، وتحرر "كلودة" ليعود لعروسه، وتنقذ "مَرام" من أيديهم.

ران عليهما صمت ثقيل، قطعه صوت "كُومبو" الذي حاول أن يخرجه من شروده عندما أشار إلى الخريطة وهو يسأله:

- ماذا تعني تلك الأرقام التي على الخريطة؟

بدأ يقرؤها وهو يشير إلى كلّ بقعة في الخريطة، كان يحكي موقفًا مرّ بهم معا هنا وهناك، وهناك. وبينما يتحدث بعفوية كان "أنس" ينظر في الخريطة، وثب فجأة وقد بدأ يتضح له شيء ما! تلك الأرقام تعني الكثير، وهي المفتاح، وقف وقد بدت في عينيه نظرة واثقة ولاح على شفتيه شبح ابتسامة، فسأله "كُومبو"بفضول:

- أشعر أنك اكتشفت للتو شيئًا ما؟ أليس كذلك؟

- بلى، أنت رائع يا "كُومبو".

قالها وطلب منه ألا يغادر مكانه، وبدأ يحرّك خنجره في الهواء، تارة يقول قصر "الحوراء"، وتارة يقول الغابة، وتارة يقول بيت كلودة، كان يختفي لدقائق ثُمّ يعود وينبثق من الهواء، وكان الأمر يبدو لـ"كُومبو" مضحكًا ومخيفًا في الوقت نفسه.

وبينما يتنقل "أنس" ويتحدّث مع "الحوراء" و"سامي كول" و"المغاتير" والعجوز "ناردين" و"المجاهيم"، وخلال فجوة منهم ظهر له فجأة "شهاب" وجذبه من قميصه بعنف إلى بيته الذي زاره فيه بالغابة والذي لم يعثر عليه مرّة أخرى، كان غاضبًا للغاية، ألصقه بالجدار وغرس عينيه في عيني "أنس" وصرخ في وجهه قائلا:

- أتظن أنّك ستغيّر شيئًا أيّها الأحمق؟ أنت مجرد حرف لا قيمة له..أنت مجرّد علامة، رمز لا يلتفت إليه من يعيش هنا، وجودك غير هام بالمرّة، أنت لا شيء... ولن تغير شيئًا.



- ما كنت لأغيّر الماضي، أنا فقط سأجاهد لكي أستعيد الحقيقة كما كتبها صاحبها أوّل مرّة.

- أنت أضعف من أن تعيد الحروف، وعقلك أضيق من أن يستوعب تلك الكلمات، أنت بلا فائدة.

- سأكون علامة ترقيم تزيد المعنى وضوحًا، حرف عطف يقرّب بين معنيين، وفاصلة تفصل بين كذبتين، ونقطة تنهي بعض الجمل المؤلمة، وعلامة استفهام بعد سؤالٍ بليغ، وربّما قوسين يضمّان الحقيقة التي أؤمن بها، أو قوسًا يغلق جملة ما فينهي حقبة بأكملها!

- لن تفعل يا "أنس".

- بل سأفعل إن شاء الله يا "شهاب".

- مستحيل.

- كلّ شيء ممكن طالما أنّك تسعى وراءه وتطلبه.

- لن تستطيع.

- راقبني إذن.

- سأراقبك... ولن أسمح لك بإفساد كلّ شيء.

أفلت منه "أنس" وغاص في الفجوة، ثُمّ عاد إلى حيث كان "كُومبو" مستلقيًا على الأرض ينتظره، سأله بملل وهو يتثاءب:

- لماذا تأخّرت هذا المرّة يا "أنس"؟

بصوت واثق ونظرة ثاقبة سحبه من ذراعه وقال له:

- الآن يا "كُومبو" ستنتقل معي خلال الفجوات، وسنذهب جميعًا لإنقاذ "كلودة" و"مَرام"، هل أنت مستعد؟

ازدرد "كُومبو" ريقه بصعوبة، وهمس بخفوت:

- أنا مستعد.

قال "أنس" وقد تألّقت عيناه وأطلّ منهما بريق روح المحارب التي تسكنه:

- الآن نعالج الأمور على طريقة عالمكم العجيب بإذن الله، هيّا بنا.

حرّك "أنس" خنجره في الهواء، فانبثقت فجوة تتلاعب وتموج ألوانها في بعضها البعض، ثُمّ دلف فيها ساحبًا معه صديقه "كُومبو".



(٢٢)

روح المحارب

كانت العجوز "ناردين" جالسة أمام كوخها عندما ظهر "أنس" وبصحبته "كُومبو" من خلال فجوة أمامها، حيّاها بإجلال ومدّ يده فأعطته عكازها الذي تتكئ عليه، وكأنّها تسلمه شيئًا عظيمًا أو تقلّده وسامًا! كان عكازها يعني لها الكثير، غصن شجرة غليظ ومتين سحبته يوم ألقت بها زوجة ابنها في الغابة، كانت تنصت لأنينه، وينصت لهمساتها، يؤنسها الغصن وتستأنس به، ومنحها سرًا عظيمًا. قالت بصوت مرتعش تصاحبه بحّة لطيفة:

- لا تنس يا "أنس"، ثلاث طرقات ثُم انتظر، وأتبعهم بطرقة وسيكونون طوع أمرك.

حياها بحبورٍ، وعاد يحرّك خنجره في الهواء، انتقلا إلى قصر "الحوراء"، كان "كُومبو" يرتعد، تلك كانت أول مرة يرى فيها "المغاتير"، كانوا يقفون في صفوف منتظمة وهم يمتطون خيولهم بكبرياء وعلى رءوسهم قلنسوات زرقاء وقد تلثّموا بمناديل بيضاء تخفي ملامحهم عن الناظرين، توقفوا أمامه وترجل أحدهم مقتربًا من "أنس" وحيّاه بوقار قائلًا:

- طوع أمرك أيها المحارب.

كان ذاك الزاجل الأزرق"، والذي كان لحضوره أثر عميق في نفس "أنس"، فقد شعر بالطمأنينة بعدما تحدّث معه في مرّة سابقة من تلك المرّات التي كان يلج فيها خلال الفجوات منتقلًا إلى القصر. رفعت "الحوراء" يدها وأصدرت لهم الأمر، وفور أن حرّك "أنس" خنجره في طبقات الهواء وردد اسم قصر الملك "كِمشاق" ..انبثقت الفجوة، وبدأ المغاتير يقفزون فيها واحدًا تلو الآخر بخيولهم، تبعهم "أنس" ومعه "كُومبو" وعندما اطمأن أنهم يقفون على

السهول قريبًا من القصر ترك "كُومبو" معهم وانتقل من خلال فجوة أخرى حيث "المجاهيم"، وطلب منهم الأمان، وتعاهد معهم أن ينقلهم من خلال فجوات خنجره إلى حيث يستطيعون السيطرة على ما تحت أرض قصر الملك "كِمشاق"، لتتوسع مملكتهم، فتلك هي الطريقة الوحيدة لكي يتمكنوا من عبور الفاصل الحجري الذي يحبسهم في الغابة وبسببه لا يخرجون منها، مقابل أن يعينوه على اقتحام القصر وتحرير صديقه "كلودة"، و"مَرام" التي كان يتحرّق شوقًا للاطمئنان عليها، وافق زعيم "المجاهيم"، وأعطاه الأمان له ولرفاقه وللمغاتير، فسمح لهم "أنس" بالانتقال عبر الفجوة، لم يرهم "المغاتير" ولا "كُومبو"، لكنهم سمعوا أصواتهم فقط بجوارهم فأصابهم الرعب الشديد وقد كانوا حولهم في كلّ مكان، لكن "أنس" وحده كان يستطيع رؤيتهم، في الجهة المقابلة غير بعيد ظهرت كوكبة من الفرسان يتقدمها أحدهم يبدو كأنّ له شأنًا عظيمًا بينهم، ربّما فارس عال المرتبة، كان وشاحه من قماش فخم محفور بفراء ثمين مختلف ومميز عن بقية الفرسان، كان ذاك "حليم" يستعد للدفاع عن قصر الملك الذي يفديه بحياته، والذي يثق به ثقة عمياء، فقد أربكهم ذاك الحشد وهو يقترب.

كان فارع الطول، له وجه يشع مهابة، ينفث الرعب في قلب أي غريب. تقدم وحيدًا بجواده ثُمّ توقف، استعار "أنس" جواد "الزاجل الأزرق" وامتطاه بقفزة واحدة، وسار وحيدًا حتى وقف في مواجهة "حليم" الذي أومأ يحييه وقال:

- هربت مني المرّة السابقة، ليتني ثقبت قلبك ولم أستمع لنصيحة الأميرة "نَبرة".

- كان من حسن حظي أن حررتني بنفسها من أسرك لتنكشف لي نواياها.

- ماذا! أنت كاذب!

- لست بكاذب، ولك أن تسأل حرّاسها الذين يلازمونها، واسألها أيضًا عن كتاب "إيكادولي" فهو معها الآن.

- أنت كاذب!



- أنا لا أكذب، وأستطيع أن أكشف لك الحقيقة كلها، وما لا تعرفه أيضًا! ولتعلم أن اقتحامنا للقصر سيتم لا ريب! وسأكون بعد قليل في ديوان الملك، وسأضرب عنقه.

شهر "حليم" سيفه وقال وهو يشير إليه به:

- لن تمرّ... سأقتلك قبل أن تفكر في الأمر.

تفحّص "أنس" بهدوء ملامح "حليم"، ثُمّ قال له:

- أتذكر عندما سألتك عندما وقعت في أسرك عن أي عام نحن فيه؟

- نعم .. أذكر.

- حسنًا... إلى أي حد أنت مغامر؟

- ماذا تعني؟

- لو رأيتني أقفز في الهواء بجوادي هذا خلال فجوة معلّقة في الهواء، هل ستقبل أن تقفز إليها بجوادك خلفي؟

تردد قليلًا ثُمّ شدد قبضته على سيفه وقال متحفّزًا:

- ولو قفزت للجحيم سأقفز خلفك.

ابتسم "أنس" بعد أن سمع جملته الأخيرة، وتراجع بجواده إلى الخلف خطوتين ثُمّ حرّك خنجره في الهواء وقال "مملكة الجنوب"... ثلاثة وعشرون...

انبثقت الفجوة وتعلّقت في الهواء، التفت نحو "حليم" ودعاه ليتبعه، وقفز خلالها قبله، وخلفه وقف"حليم" مترددًا للحظات، ثُمّ قفز واختفى كلاهما لوقت تعدى النصف ساعة. ظنّ المغاتير أن "أنس" لن يعود، ووقف "كُومبو" يقرض أظافره، وأخيرًا عاد وكأنه يقفز من رحم الهواء وتبعه "حليم"، دار كلاهما حول الآخر بفرسه، ثُم توقف "حليم" ونكّس رأسه لوقت وجيزٍ كان كافيًا لاتخاذ أهم قرار في حياته، قالها بثقة وهو يحدّق في رأس جواده:

- كما اتفقنا... اتركه لي يا "أنس"، واهتم أنت بصديقك.

قال "أنس":

- و"مَرام"؟

- عندما تنقذ صديقك، وعندما أفعل ما عليّ أن أفعله، سأقلب القصر بحثًا عنها، وسأنقذها بنفسي.

- كلمة شرف؟

- نعم أيها المحارب.. كلمة شرف!

حدث كلّ ذلك و"المغاتير" و"كومبو" وحتى "المجاهيم" كانوا في دهشةٍ شديدة. تراجع "حليم" وأمر الجنود بالبقاء في أماكنهم على بوابات القصر وفوق سطحه، ودلف إلى داخل ديوان الملك "كِمشاق، وعلى عينيه تستقر نظرة غريبة. كان "أنس" يلملم شتات فكره، ويحاول التركيز على إنجاح خطّته، بقي أن يستدعي الصقور، وقبل أن يحرّك خنجره في الهواء، كانوا يفدون أفواجًا فوقهم حتى أظلمت السماء، تحرّك "المغاتير" وتبعهم "المجاهيم" وأحاطوا القصر من جهاته الأربعة، وارتفعت الصقور فوقه فحجبت ضوء الشمس عنه فارتج الملك "كِمشاق" وحاشيته، وخرج الجميع بأسلحتهم، وغطت الغربان القصر فاسودّت نوافذه من الخارج، وارتص الحراس بالنبال واتخذ عدد من الرّماة أوضاع التصويب نحو "المغاتير"، ووقف جند القصر شاهرين سيوفهم وحرابهم أمام البوابات، وبدأ صدام عنيف.



كان "أنس" يقف أمام القصر بثقة حيث رفع صوته وصرخ بأقصى ما أوتي من قوّة مناديًا على الملك "كِمشاق"، لم يخرج إليه أحد، كان يمسك بعصاة العجوز "ناردين" التي سلمتها له، رفعها في الهواء ثُمّ ضرب الأرض ثلاث ضربات متتاليات فأحدث دويًا خلع قلوب كلّ من بالقصر، وانتظر قليلًا ثم قال :

- اخرجي بأمر الله.



ثُمّ ضرب ضربة قويّة فانغرست العصاة في الأرض التي بدأت تنشق وتتفتح جنباتها بسرعة، وبرزت وشائج أشجار متشابكة ظلّت ترتفع وتتشابك وتسير كما تسير الأفاعي هنا وهناك، شلّت أركان القصر، وسحبت الجنود والتفت على سيقانهم ثُمّ سحبتهم لباطن الأرض فابتلعتهم جميعًا فارتبكت الغربان وانتفضت تتخبط في بعضها البعض محلّقة بعيدًا وسقط منها ما سقط. التفت تجاه "الزاجل الأزرق" وتبادل معه نظرة ذات معنى فاقترب منه، ثم استدار نحو زعيم "المجاهيم" الذي دنا منه في الحال، ثُم أشار للرمادي فاقترب، كاد "كُومبو" أن ينضم إليهم، فقال له "أنس":

- "كُومبو" انتظر أنت، من أجل أمك و"أشريا" وأمها، ولو لم أعد وكتب الله لـ"مَرام" النجاة، عاهدني أن تساعدها على العودة لقصر "الحوراء" إن لم ينجُ أحد من "المغاتير" ليعود بها.

أومأ "كُومبو" برأسه في صمت ووجوم، شدّ على كفّه متأثرًا حتى أن عينيه الضاحكتين امتلأتا بالدموع، خشي أن يكون هذا الوداع! ووقف في رهبة يراقب "أنس" الذي حرّك خنجره في طبقات الهواء قائلًا:

- ديوان الملك "كِمشاق"

انبثقت الفجوة فدلف منها "أنس" مع "الزاجل الأزرق" وزعيم " المجاهيم" الذي لا يراه إلا "أنس" ومعهم الرمادي، فوجيء الملك "كِمشاق" ومن حوله بظهورهم أمامهم، كان أول ما روع "أنس" هو رؤيته لـ"كلودة" وهو معلق من قدميه، كان الساحر "قرجة" يجلس تحت رأسه، وبين يديه كتاب "إيكادولي"، يستعد لكتابة أول عبارات فيه على طريقتهم بدماء كلودة بعد أن يثقبوا قلبه، وكانت "نَبرة" تمسك بسهم وتستعد، اهتزّت يدها عندما رأت "أنس"، لكنها عادت تطالعه كذئبة جريحة ما زال بها بعض خبث ودهاء، كان الغل والغضب يطغى على مشاعرها، إن لم يكن هو لها، فالكتاب سيكون!

وإن كُتب على صفحاته باسمها واسم أخيها وعلى شريعتهما التي تكفر بكل شيء إلا ملكهما، فذاك سيجعل "أنس" أسيرًا لديها لأنه فشل في استرداد كتابه، ستسيطر على كل شيء، هكذا كانت تظن، أسرعت نحو "كلودة" ورشقت السهم في قلبه، فصرخ صرخة مدوية وبدأت الدماء تسيل منه، وبدأ الساحر يجمعها في إناء صغير و يكتب بها في صفحة من الكتاب، بينما وقف

أمامه رجل ضخم الجثّة يحمل سيفًا ويحرّكه مهددًا في الهواء أي شخص يفكر في الاقتراب من الساحر، صرخ "أنس" مطلقًا إشارة الهجوم فانقض "المجاهيم" على بقية الجنود واحدًا تلو الآخر وفور أن رأى المغاتير سقوط الجنود أمامهم، انطلقوا وبدأوا يقتحمون القصر بالتدريج، بينما انقض "الزاجل الأزرق" على الفارس الذي كان يحمي الساحر وهو يكتب وبارزه حتى جندله بسيفه وصرعه فأحاط به آخرون، استمر يضرب ويجندل، وحوله زعيم "المجاهيم" يصرع بعضهم هنا وبعضهم هناك يخنقهم ويحبس أنفاسهم ، من بينهما وهما يساعدانه تسلل "أنس" مقتربًا من الساحر وضربه ضربة بالسيف فقطع ذراعه التي كان يكتب بها، ثُمّ قطع الحبال التي كان "كلودة" معلقًا بها من قدميه، كان "كلودة" يتألّم وبدا وكأنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة، نظر إليه "أنس" فألفاه ساكن الأطراف، شاخص البصر، وصدره يرتفع وينخفض وشفتيه تختلجان، فالتفت واستلّ خنجره وحركه في الهواء لينتقل به إلى الغابة حيث العجوز "ناردين"، وسحبه معه خلال الفجوة، هرولت العجوز تجاههما وفور أن رأت "كلودة" شهقت وانحنت تتحسس السهم المرشوق في قلبه، رفعت عينيها تجاه "أنس" وقالت له:

- هل أحضرت الزجاجة التي سألتك عنها؟

- نعم.. ها هي، ولكن هل أنت على يقين مما أخبرتني به؟ لقد أخبرني "كُومبو" أنّها حبر معتّق!

ابتسمت العجوز، وهزّت رأسها بثقة، ثُم سحبت زجاجة الحبر الزرقاء من يدي "أنس"، وفتحتها بحرص، قرّبتها لأنفها أوّلًا وشمّتها ثُمّ قالت بصوت واثق:

- الآن يا "أنس"

قبض "أنس" على السهم الذي رشقته "نَبرة" في قلب "كلودة"، وانتزعه بقوّة، فانفجرت الدماء من الجرح، كانت الدماء حالكة السواد! ارتجّ قلب "أنس" فزعًا وهو يراها تسيل، وضعت العجوز كفّها عليها وهمست:

- يكفي.. يكفي.

فتوقفت الدماء عن السيلان وبدأت تقطر من الزجاجة داخل الجرح نقطة نقطة، ورفعت رأسها تجاه "أنس" قائلة:



- اتركه الآن ولا تقلق عليه، وعُد لتنقذ "مَرام". فلن أستطيع علاج جراحها هنا!

انتفض "أنس" وشعر بالخوف يعتصر قلبه، حرّك خنجره في الهواء وعاد لقصر "كِمشاق"، كانت المعركة ما زالت مستمرة، وكانت "نَبرة" والتي كانت تكفكف دماء "كلودة" التي استحالت سوادًا على الأرض وتكتب بنفسها في كتاب "إيكادولي"، فور أن رأته يقترب احتضنت الكتاب وفرت به. بينما كان "حليم" يغرس سيفه في قلب أخيها "كِمشاق"!! ويراقبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثمّ سحب سيفه ورفعه وهتف بصوته ممجدًا ذكرى أبيه فهزّ أركان القصر، هنا يعلو سلطان الملك على سلطان الصداقة، كانت نظراته كالبرق المتطاير من عين جواد مفترس، توقف الجند عن القتال والتفوا حوله يأتمرون بأمره بعدما صارت الغلبة والسلطة له منذ تلك اللحظة، بينما انسحب "المغاتير" بأمر "الزاجل الأزرق" وعادوا أدراجهم على السهول حول القصر، وعادت الصقور تحلّق بعد أن فتكت بمجاميع الغربان التي كانت قد تبقّت حول القصر، كان " القرناس" قد حمل "مَرام" وطار بها بعيدًا دون أن يلتفتوا إليه، وانطلقت "نَبرة" على جوادها وهي تحتضن كتاب "إيكادولي" يحميها رجالها بالنبال ويرشقون كل من يتبعها، كانت تتجه نحو الجبل الأحمر.



بكلمات مقتضبة تحدث "حليم" حيث كانت دماء "كِمشاق" لا تزال على سيفه، لم يجرؤ أحد أن يناقشه، فقد كان قوي الشكيمة، حتى نقطة ضعفه الوحيدة -وهي حبّه لـ"نَبرة"- تلاشت عندما تبعثر تلك الليلة التي اقتحمت فيها "أُونتي" الحفل وتحدّثت معه بكل أريحية وصراحة، وأخبرته بقصتها مع "كلودة" وكيف كانت تحبه لكنها الآن تشعر وكأنه شبح عديم الملامح مرّ بها، كانت تدرك أنها ركضت خلف شهوة، نعم، لقد أطلقت العنان لجسدها ليمتطي روحها وكانت تتصرف كالحيوانات، وها هي نادمة، فالحب لا يأتي بالتوسل. أنصت إليها وتأمّل حال نفسه وما يراه من "نَبرة" من إهانات متوالية، وهي تنفر منه وتهينه وتقاومه، قرر أن يخرجها من قلبه، وكان لكلمات "أُونتي" وقع عظيم في نفسه.

تقدّم "أنس" ووجه الكلام إليه بإجلال أمام الجميع ليثبّت أركان ملكه الجديد، وطلب منه ما وعده به مسبقًا:

- جلالة الملك "حليم".

هزّ "حليم" رأسه وفي عينيه نظرة امتنان على تلك اللمحة التي تركت أثرًا على حاشية الملك البائد "كِمشاق"، وأصدر الأمر لجنوده ليفتشوا القصر بحثًا عن "مَرام"، كانت "أُونتي" تنتحب في غرفتها وتبكي شقيقها "كِمشاق"، وكانت تخشى ما هو قادم. أخبرتهم أن المسكينة "مَرام" الآن بين يدي أختها "نَبرة" وهي في طريقها لتلقي بها من فوق الجبل الأحمر.

كان "حليم" يقف بإجلال أمامها، أراد أن يشرح لها سبب قتله له، والذي صحبه "أنس" خلال فجوة ليكشفه له، ففوجئ بها تعرف السبب! فقد أسرّت لها أمّها به قبل أن تموت، ران عليهما صمت طويل وحولهما بعض المقرّبين، توقفت عن البكاء، وأخبرته أنها سترحل وتترك القصر فرفض بشدّة، وخيرها بين أن تظلّ في القصر معززة مكرّمة، أو أن تختار مكانًا قريبًا ليأمر ببناء قصرٍ جديد يليق بها وتكون تحت رعايته، كانت حائرة ومكلومة فلم تجبه، فتركها لتهدأ، وأمر حراسه بألا يتركوها تغادر القصر، وانصرف وقد بدأ يحمل لها في قلبه من المشاعر ما قد يغير مصيرهما يومًا ما!

❒ ❒ ❒

حرّك "أنس" خنجره في الهواء وشعر وكأنه يشق به صدره وردد بصوت مرتعش:

- قمّة الجبل الأحمر.

انبثقت الفجوة وكان يتعجل ظهورها ودقّات قلبه تتواثب، كان يخشى أن يصل فيراها صريعة وقد فارقت الحياة، كان قلبه ينتفض بين ضلوعه وهو يقفز في الفجوة ليصل إلى هناك، حيث كانت "نَبرة" تقف وقد انحنت تكتب نهاية قصتين، أنهت أولهما بموت المحب "كلودة" الذي كان يعشق "أشريا" لكنّه أخطأ وفطر قلب أختها، وكادت تنهي الأخرى بموت "مَرام"، كانت "مَرام" مقيّدة من يديها بحبل طويل، أوقفها رجال "نَبرة" على حافّة الجبل الذي



غطى الجليد قمّته، وتحلّقت فوقه سحب حمراء، قيل إنها من دماء المحاربين الذين قُتلوا ظلمًا من قبل، على مر السنين، ولم يسمع بهم أحد، كانت "مَرام" تحدّق في السحب وعليها سكينة عجيبة! وكأن روحها قد سقيت صبرًا وثباتًا حتى رضيت واطمأنت.

أما "أنس" فكان يقترب في وجل وحرص شديدين وهو يراقبها ويتلفت ويراقب "نَبرة" وهي تكتب، كان الحراس على مسافة بعيدة منها، يحمون ظهرها و يراقبون الطريق، ووقفوا في حالة استعداد لصدّ أيّ هجوم جديد، حاول "أنس" أن يتخطى "نَبرة" ليقترب من "مَرام" وينقذها، لكنها انتفضت وشعرت به، فأسرعت وركلت "مَرام" من ظهرها فسقطت من فوق قمّة الجبل وهي تصرخ، انطلق "أنس" يركض نحو حافّة القمّة وأغمض عينيه وقفز فحلّق كما أخبرته "مَرام" من قبل..أنّ المحاربين وحدهم يستطيعون التحليق كالصقور حول الجبل وفي نطاق الغابة، لكنها لم تجرؤ يومًا على فعلها، ولأنها فقدت مميزاتها كمحاربة منذ عادت ودخلت الغابة لتتبع "أنس" لم تتمكن من التحليق مثله، كانت تهوي بسرعة شديدة نحو القاع، تذكّر "أنس" ما أخبرته به عن "قطرة الدمع". فضمّ يديه إلى جنبيه وألصق ساقيه ببعضهما وانطلق بسرعة شديدة وسبقها لثقل وزنه عنها ثمّ بحركة خاطفة التقطها من الحبل الذي قيدتها به "نبرة". شقهت عندما شعرت أن هناك من يجذبها وكانت قد أغمضت عينيها بعد أن نطقت بالشهادتين تنتظر الموت والفناء. فتحت عينيها فوجدت نفسها معلّقة في الهواء، رفعت رأسها فرأت "أنس" وهو يمسك بالحبل ويرتفع ويرتقي ويحلّق وكأنّه صقر يطير بجناحين، صعد بها شيئًا فشيئًا وكان يتعجب من قدرته على الانتقال من طبقة لأخرى في الهواء، حتى شعر أنه يستطيع أن يثبّت نفسه معلّقًا كما تفعل الطيور في الهواء، فعلها للحظات وثَبُتَ ونظر إلى معصمها فإذا بالحبل ينغرس في لحمها يكاد يذبح يديها، وكذا كان أثره مؤلما في يده، بدأ يسحب الحبل ليمسك يديها فتأرجحت وكاد الحبل ينفلت من يده فشخصت نحوه وصرخت صرخة انخلع لها قلبه، شدد قبضته على الحبل وأسرع يرفعها حتى وصلا لبروز حجري عريض قُرب قمّة الجبل تعلوه ندف السحاب الأحمر التي تشكل تلك الحلقة الحمراء، رنا إليها بإشفاقٍ وهو يتحسس يده وذراعه حيث كان يلف عليها الحبل، كانت تحرقه بشدّة وتوجعه، وكذلك يداها، أجهشت "مَرام" بالبكاء، قال "أنس" وصوته يقطر حنانًا وحبًا:

- ذكريني بعد أن ينتهي كلّ شيء أن أخبرك بشيء ما، شيء يهمنا معًا... ذكريني يا "مَرام".

بلا كلام، وفي مساحة من الزمن لم تُحسب، وفي عالم عجيب لم يعرفا موقعه لكنه احتل من قلبيهما مكانًا قصيًّا، كان قلبه وقلبها متناغمين في الدقات، فكل دقّة في صدرها صداها قويٌّ في صدره، كانت روحه وروحها منسجمتين بلا عناق، نفسٌ..وأخرى تريد أن تسكن إليها، لكنهما يتعففان رغم كونهما على حافة جبل حيث لا تراهما عيون الناس، لكنهما على يقين أن ربّ الناس يراهما.

أخرج خنجره وحرّكه في الهواء وانتقلت قبله "مَرام" إلى الغابة وتبعها خوفًا عليها، لم يحب أن يتركها وحيدة مرّة أخرى، في تلك اللحظة الخفيفة فور اختفائها داخل الفجوة أمامه بدت وكأنها فجوة تفصل شطري حياته، كان يحبّها حبًا نقيًّا ملائكيًا، وأمام كوخ العجوز "ناردين"كان "كلودة" قد برأ وكأنه لم يُصب بسهم من قبل، أعاده "أنس" لعروسه وداره، وأعاد "كُومبو" إلى أمه، ونقل "المغاتير" إلى قصر "الحوراء" مع "مَرام"، ثُمّ عاد للغابة ليردّ للعجوز "ناردين" عكازها الذي تتكئ عليه، كان الغصن يحنُّ إليها كما كانت هي تحن إليه! وقف "أنس" أمامها وقال بعد أن حيّاها وشكرها:

- ها هو عكّازك يا أمي.

احتضنت العجوز عكّازها وكأنّ عزيزًا كان غائبًا ورُدّ إليها، قرّبته من أذنها وبدت وكأنّها تنصت لشيء ما، ثُمّ رفعت عينيها تجاه وجه "أنس" وقالت:

- كنت أعلم أنّه سيحبّك يا "أنس"، لم يخب ظنّي بك، منذ اللحظة الأولى وأنا أشعر أنّك شاب نقيّ.

ابتسم "أنس" ووضع يده على كتفها وقال بحنان بليغ:

- والآن يا أمي، هل ستقبلين هديتي؟

- أيّ هدية!

- رحلة .



- إلى أين؟!

- مفاجأة!

- أخبرني أرجوك، فأشجار الغابة لن تسمح لي بالرحيل أبدًا.

- حتى من الفجوات التي أحدثها بخنجري؟

- سيسحبونني منها يا ولدي.... سيرفضون.

رفع "أنس" صوته وكأنّه يودّ أن تسمعه كلّ أشجار الغابة وقال:

- سأنقلك إلى بيتك.. إلى ولدك يا أمي.. فأنت تشتاقين لرؤيته وقلبك يتوجّع.

اهتزّت أشجار الغابة وعلا همسها وضجيجها حتى أن "ناردين" رفعت يديها على أذنيها وهي تسأله:

- وكيف عرفت عنوانه!

- سألت أنا و "كومبو" وأخيرًا وصلنا إلى ولدك الحبيب ولقد رأيته يقف أمام داره ويلاعب أبناءه، كم هم رائعون!

شعرت العجوز بارتباك شديد، كانت مشاعرها تتأرجح بين شوقها لرؤية ابنها وبين خوفها من أن يكون قد أقرّ ما فعلته زوجته، كانت تخشى أن تكشف النقاب عن الحقيقة، فهي لم تسمع أيّ خبر عن أنّه جاء ليبحث عنها، حتى عندما تخبرها أشجار ونباتات الغابة عن دخول أحدهم أو حتى وفاته كانت تذهب لتتحرى الأمر وتتصفح الوجوه لعلّها ترى وجه ابنها بينهم، لكنها كانت تصاب دومًا بخيبة الأمل، وتعود مكسورة القلب إلى كوخها.

قالت وقد دمعت عيناها:

- لا يا "أنس".. اتركني هنا كما أنا بين أشجاري.

طربت الأشجار لما سمعته، حلّ السكون وعاد الجميع لينصت لحديثهما، حاول "أنس" أن يشجعها ويبث في قلبها الطمأنينة فقال وهو يبتسم:

- أحد أحفادك يُدعى "بدر" وله وجه كالبدر يا أمي، حقًا إنه خفيف الدم.

ابتسمت العجوز بفمٍ مفضوضٍ وكان لابتسامتها البريئة أثرٌ بليغٌ في قلب "أنس" الذي أردف قائلًا:

- وشقيقته الصغرى تدعى "شموس"! يبدو أن ابنك يكثر من مراقبة السماء! أخشى إن أنجب طفلًا جديدًا أن يسميه "رعد" أو "برق"!

ضحكت "ناردين" وأمسكت بذراع "أنس" وقالت بفضول:

- متى ذهبت.

- قبل أن تظهر عليّ أعراض السحر، وانشغلت بما عرفتِه عنّي فأجَّلت إخبارك حتى اللحظة.

قالت وقد بدت علامات الخوف على وجهها الطيّب:

- وهل... رأيت زوجته؟

- لا، كان هو فقط من يداعب الصغيرين أمام داره، وكان أشقاؤهما الأكبر عمرًا يجلسون في هدوء وسكينة، هيّا بنا، الوقت يمرّ..

- لحظة يا "أنس"، سأرتدي ثوبًا آخر وأغسل وجهي.

أسرعت "ناردين" وقد دبّ النشاط في أوصالها وهرولت تجاه الكوخ وبعد دقائق كانت تقف أمامه بابتسامة رائعة كانت هي أبلغ زينتها، حرّك "أنس" خنجره في الهواء فظهرت الفجوة، امتدت وشائج الأشجار واقتربت من ساقي "ناردين" وكادت تلتف حولها، لكنها لم تجرؤ! توقفت عن الزحف وعادت إلى أماكنها بينما كانت "ناردين" تراقبها بعينين مغرورقتين بالدموع، دلف "أنس" إلى الفجوة بعد أن أمسك بذراع "نادرين" تاركين خلفهما أشجار الغابة تهزّ أغصانها وتئن وتبكي في نشيج عجيب، يخشون أن ترحل للأبد! علت أصوات الأغصان وهي تتشابك وتتخبط وتهتزّ، فهناك خطب جلل قد حدث في تلك الغابة!

رحلت الحبيبة "ناردين"، رحلت تلك التي تمنح الحبّ للجميع، و لكلّ من يمرّ من بين ضلوعها!

كان لا بدّ أن ينقلها "أنس" إلى بيت ابنها فما كانت لتخرج من حدود الغابة



وتتخطى ذاك الحاجز الحجري إلا بواسطة الفجوة التي يفتحها بخنجره، بعد لحظات خرج "أنس" من الفجوة ويده في يد العجوز التي شهقت فور أن رأت أمامها ابنها يقف بقامته المتوسطة الطول ووجهه المستدير، كان يحمل فتاة صغيرة رائعة الجمال، اقترب "أنس" منه وكانت "ناردين" تتأبّط ذراعه بيدها اليسرى بينما تتكئ بيدها اليمنى على عكازها، كان يطعم ابنته حبّات من التوت بحنان ولطف، فور أن وقعت عيناه على وجه أمه انتفض ووضع الصغيرة على الأرض ثُمّ وثب وصرخ كطفل صغير مذهول:

- أمي... إنها أمي!!!

صاحت "ناردين" وقد انهمرت دموعها في الحال:

- "ربيع"!

هرول "ربيع" تجاه أمّه وانكب عليها يقبل يديها تارة ويقبل رأسها تارة أخرى وقد اختلطت دموعه بدموعها، كان يبكي وهو عاجز عن الكلام، لم يجد كلمة تعبّر عمّا يعتمل في صدره، مسحت "ناردين" وجهه بكفّيها وقالت بصوت تقطعه الدموع:

- اشتقت إليك يا حبيبي، دعني أشمّك يا "ربيع"، أشتاق رائحتك.

أجهش "ربيع" بالبكاء، وعانقها وظلّت تشمّ عنقه وهو يبكي في حضنها، قال بعد أن تحامل على نفسه:

- بحثت عنك كثيرًا في كلّ مكان، ظننت أنك هربت من الدار، كُنت أعلم أن زوجتي لا تحبّك.

وضعت العجوز يدها على فم ابنها لتسكته وقالت:

- هسس... لا ترفع صوتك يا "ربيع" حتى لا تسمعك.

- لا تخافي يا أُمّي، لقد طلّقتها.

- ماذا!

- قلبت حياتي جحيمًا فطلّقتها وتركتْ الصغار بكلّ قسوة وتخلّت عن أمومتها.

قالت العجوز بألم:

- وحرمتني من أمومتي ومنك.

احتواها "ربيع" في حضنه وقال بحنان:

- لا يا أمي، لن يحرمك أحد مني أبدًا بعد الآن.

ثُمّ حمل صغيرته وقرّبها من وجهها وقال لها:

- لقد تزوجت "سندس" أتذكرينها، وأنجبنا "بدر" و"شموس"، انظري يا أمّي.. هيّا هيّا احمليها.

ورفع صوته ينادي زوجته التي كانت تخبز فوق سطح الدار، أجابت زوجته النداء وهبطت الدرج على عجل وأسرعت تجاهه بوجهها الطيب، تذكّرتها في الحال فقد كانت تقطن في البناية المجاورة مع أمها التي كانت أعزّ صديقة لـ "ناردين"، عانقتها طويلًا وجلس الجميع داخل الدار، إن للماضي حنينًا يتغلغل في القلوب ويتمكن منها، عادت "ناردين" بذاكرتها إلى سنين مضت، كانت تقلّب عينيها بين أحفادها بفرحة وحبور، مضت ساعة وهم على تلك الحال، وحولهم الصغار يلعبون ويراقبون جدّتهم والفرحة تطلّ من أعينهم، وقف "أنس" ليستعد للرحيل، وبعد أن ودّعهم كاد يحرّك خنجره لولا تعلّق "ناردين" فجأة بذراعه! كانت في هلع وكأنها طفل يتيم سيرحل من يرعاه ويتركه في بيت غريب!

تعجّب عندما توسلت إليه ليعيدها إلى كوخها في الغابة، قالت بتوتّر:

- أرجوك يا "أنس" أعدني إلى الغابة.

صاح "ربيع" متعجبًا وقد سمعها:

- كيف يا أمي! كيف!!

- أرجوك يا "ربيع"، لن أستطيع البقاء هنا.. سأموت.



- غير معقول يا أمي! أتفضلين وحدتك في غابة موحشة على البقاء معي أنا وأبنائي!

- عشت لسنوات هناك فلا تقلق.

- أنت تعلمين أنني لن أستطيع دخول تلك الغابة أبدًا ولن أتمكن من عبور ذاك الحاجز الحجري! أنا حتى لا أعلم كيف تعيشين في تلك الغابة المخيفة وحدك!

- اتركني يا ولدي لأعود .. أرجوك؟

قال "أنس" محاولًا إقناعها بالبقاء مع ابنها "ربيع":

- أنت تحتاجين للسيد "ربيع" وهو لن يستغني عنك يا أمّي، أرجوك ابقي هنا معهم.

قالت بعد صمت ثقيل:

- أصبح الكوخ بيتي، وأنا لا أرتاح إلّا في بيتي.

ثُمّ جذبت "أنس" بلطف من ذراعه فانحني لتهمس في أذنه:

- دعني أرحل حتى لا تتغير نظرة الحب التي رأيتها في عيني "سندس" اليوم، فإن بقيت ستتغير، الإنسان ثقيل يا ولدي، وأنا أكره أن أكون حملًا يستثقله الآخرون.

لم يفلح أحد في إقناعها، أصرّت وأخبرتهم أنها ستسير إلى هناك إن لم ينقلها "أنس"، لم يطب لها البقاء بين أحفادها، حتى دموع ابنها لم تشفع لديها، ستكتفي برؤيته كلّ أسبوع على أطراف الغابة!، أخبرت "ربيع" أن الأشجار ستتركها تتخطى الحاجز الحجري بأمان ولن تعيدها كالعادة طالما أنّها ستراها اليوم وقد عادت لتقيم هناك للأبد، هكذا همس لها عكازها. خضع "ربيع" على مضضٍ وودعها بالدموع. استجاب "أنس" لرغبتها وأعادها إلى الغابة حيث كوخها فهاجت الأشجار وماجت وعلا الضجيج، وأقيم عرس بالغابة، عادت الحبيبة "ناردين"... عادت الحبيبة "ناردين".



في بقعة أخرى، بسط "المجاهيم" نفوذهم أخيرًا على ما تحت أرض قصر مملكة الجنوب حيث يطلّ قصر الملك "حليم" فوق تلك المساحات الواسعة كوتدٍ ضخم تحيطه السهول الخضراء من كلّ جانب، فتوسعت مملكتهم وانتقل بعضهم إليها للأبد، أصاب "أنس" إرهاق شديد، فكثرة التنقل جعلته يشعر بدوار شديد، أصبح يرى كلّ شيء بالأرقام، وباتت لديه خريطة منحوتة في ذهنه، على كلّ بقعة فيها رقم منقوش له دلالة بات يعرفها، أراد أن يرتاح ولو للحظة لكنه لا يستطيع، ما زال أمامه الأهم وهو أن يسترد كتاب "إيكادولي" من بين مخالب وأنياب الذئاب.

كان "القرناس" قد حمل الكتاب من فوق قمّة الجبل الأحمر بعد أن أنهت "نَبرة"آخر جملة فيه إلى المكتبةالعظمى، تسلّمه منه الحراس بالمكتبة واجتمعوا ليطلعوا على ما فيه، كانت تلك العبارات التي ظهرت بينما كان الكتاب مع "أنس" قد اختفت جميعها، وامتلأ الكتاب بعبارات صاغها الساحر "قرجة" قبل أن يقطع "أنس" يده، وأكملتها الأميرة "نَبرة" بدماء "كلودة" التي كانت على الأرض، فور أن يُختم الكتاب ويضاف إلى رفوف المكتبة سيكون لـ"نَبرة" شأن عظيم، كان حرّاس الكتب بالمكتبة العظمى يتصفحون الكتاب بينما حدث شيء عجيب لم يحدث منذ فترة بعيدة!.



اندفعت حزمة من أشعة الشمس الوردية على أوراق أشجار السنديان الوارفة المحيطة بالبناء العظيم، ثُمّ انسابت على جذوعها المغطّاة بالطحالب والنباتات المتسلّقة، و أخيرًا انزلقت على الأرض وكأنّها ترقص فوق العشب! فوق الممر المؤدي إلى البوابة الرئيسية للمكتبة، كانت الأشجار تتلاحم وتتعانق مع بعضها البعض لتحبس ضوء الشمس عن الوصول إلى الممر، نسمات الهواء كانت باردة، صفان من الحجارة البيضاء كانا على الجانبين مرصوصان بنظام دقيق، كان "أنس" قد انتقل إلى المكتبة عبر فجوة ونجحت المحاولة هذه المرّة، لم يسقط في بحر من الرمال المتحركة ليبتلعه، ولم تصِبه صاعقة من السماء تفتك به. كان من الضروري أن يزور المكتبة العظمى بنفسه، فالكتاب هناك كما أخبروه في قصر "الحوراء"، ولا بدّ أن يكون حاضرًا في تلك



اللحظات الفارقة لعلّه ينجح في استرداده، كان "أنس" يرى كلّ هذا من خلف بوابة ضخمة من الحديد مشغولة بطريقة عجيبة، حاول أن يصدر صوتًا لعلّ هناك من يجيبه، حاول أن يهزّها بيديه لكنها كانت متينة وثقيلة، من بعيد أسرع بعض الرجال الأقوياء نحو البوابة يتعجبون من ذاك الذي وصل إليها ووقف يراقب البناء العظيم، كانوا يتبادلون النظرات التي تشي بتعجبهم، من يجرؤ على الاقتراب من حدود المكتبة العظيمة! قبل أن يصلوا إلى البوابة، وحيث انتهت صفوف الحجارة البيضاء، وقفوا بجوار بعضهم البعض عاقدين أذرعتهم أمام صدورهم، تقدم أحدهم وكان يثقب "أنس" بنظراته، بينما كان يمسك بالبوابة الحديدية ينتظر أن يدنو منه ليسأله، وقبل أن يقترب فُتحت نوافذ البناء من خلفهم فجأة وصرخ أحد ما:

- لا تتحرّك من مكانك نحن في خطر داهم وأنت الملوم!

ثُمّ فجأة ومرّة أخرى صرخ مناديًا كما صرخ منذ قليل:

- أَدخلوه حالًا... أدخلوه.. فلقد حدث ما لم يحدث من قبل!

أسرع الرجال يفتحون البوابة الحديدية وأفسحوا الطريق لـ "أنس" ليدخل، كان يسير وهو يتلفّت يمينًا ويسارًا، فهو يشعر أنّ هناك من يلازمه كتفًا بكتفٍ ويسير معه، يكاد يسمع أنفاسه المتتابعة! بل يشعر بدفئها! لكنّه لايراه!

دلف إلى البناء فأحاط به شعور بالسكينة رغم ارتباك الجميع وازدحام المكان بوجوه تطالعه باهتمام، بدا وكأنّ كل من بالبناء تخطوا الستين من أعمارهم، كانت السقوف مزيّنة بنقوش ذهبية بديعة، مطعّمة بألوان زاهية، تشبه تلك التي رآها في بيت جدّه، تذكّر الآن كيف تشبه بوابة بيت جدّه تلك البوابة الخارجية لكنها تصغرها حجمًا، مرّ بشجرة من خشب الأبنوس تشبه تلك التي سقط فرع منها في غرفة جدّه عندما رأى كتاب "أبادول" لأوّل مرّة، وكأنّه يتجوّل في متحف عريق ممتلئ بالتحف الثمينة كان "أنس" يتجوّل مستمتعًا بما يراه، صعد الدرج خلف كهل متوسّط القامة له لحية كثّة طويلة بيضاء بعد أن رحّب به، وأخيرًا وصل إلى قاعة تتوسطها طاولة مستديرة يحلّق حولها رجال يتشابهون في الخلقة لهم سحنة طيبة مريحة، على رأس الطاولة كان أكبرهم يجلس بوقار تحتل وجهه ابتسامة مشرقة، تلوح

على جبهته الواسعة سجدة رمادية خفيفة لا يشك الناظر إليها أنها جبهة عابد، استند الكهل على حافّة الطاولة ووقف يرحّب بـ"أنس" وأشار إلى بهو كبير تتفرّع منه ممرات طويلة ممتلئة بالرفوف يمينًا ويسارًا حيث تستقرّ عليها الكتب، سارا معًا من بينها حيث كان الكهل يمسك بذراع "أنس" ويشير إليها ثُمّ قال:

- لم تتحرّك الكتب منذ ثلاثين عامًا كما تحرّكت اليوم، لقد أصابنا الرعب، ظننا أن البناء سينهار، كانت أوّل مرّة تخرج من أماكنها وتدور ثُمّ تعود يوم وصول جدّك يا "أنس"، ومن بعدها حين جاء أبوك وها هو الأمر يتكرر اليوم، ثمّ أكمل مبتهجًا:

- الآن يا "أنس".. حان الوقت.

- الآن ماذا؟

- سأتركك هنا لتخلو بصديقك قليلًا.

- صديقي!!

- "إيكادولي"... الكتاب! وسأنتظرك مع حرّاس الكتب، لنتسلّمه منك.

- وأين هو الكتاب؟

- في تلك الغرفة، أرسلناه مع كوكبة من الصقور وغسلوه في ماء النهر الأخضر، فالكتابة بالدماء لا تزول إلا بغسله هناك، أتدري يا "أنس"؟ لو قتلوك لبقيت الكلمات في "إيكادولي" للأبد، وما كان ماء النهر ليمحوها، وكنا سنضطر لقبول الكتاب وضمّه للرفوف.

- وهل حدث هذا من قبل؟

- نعم، لكن لا تقلق، الكتب لا تهدأ وستظل تدافع عن نفسها ، وكلّ كتاب سُرق سيبحث عن محارب جديد ليسترده، عندما يصدّق شخص ما بالقيم التي فيها تسترد عزيمتها وروحها فتبتلع الكلمات، وحتى إن كانت بالدماء، فوجود ذاك المحارب يمنحها القوة لتعافر وتعاني صراعًا حتى يأتي ويساعدها.



ثُم استقرّت عيناه على عيني "أنس" وقال:

- أظنّك تحمل مفتاح الغرفة، أليس كذلك؟

أخرج "أنس" ذاك المفتاح الذي أعطاه له والده، ورفعه ليراه الكهل الذي هشّ حين رآه، ثُمّ أشار تجاه غرفة في صدر ممر يقع على يمينهما وطلب من "أنس" أن يتجه إليها، سار "أنس"تجاه الغرفة وعاوده الشعور بأن هناك من يلازمه ويسير قربًا منه كتفًا بكتف، دسّ المفتاح في الباب وفتحه، ودلف بهدوء.

في غرفة مضيئة جدرانها بيضاء وخالية من النقوش كان كتاب "إيكادولي" يستقرّ على طاولة بيضاء مستديرة تحتل بقعة صغير وسط الغرفة، اقترب "أنس" ولامس الكتاب بأطراف أنامله، فور أن فتح الكتاب شعر بقشعريرة تجتاح جسده، ثم انطلقت صفحات الكتاب هاربة من بين دفّتيه واحدة تلو الأخرى تتعلّق في الهواء، أحاطت الصفحات الخالية بـ"أنس" ودارت عدّة مرات ثُمّ توقفت عن الدوران، ابتعدت عنه وارتفعت وبطريقة فجائية اقترب أولها وانبسط أمام عينيه، ظهرت عليها تباعًا العبارات التي رآها "أنس" في المغارة تحت النهر الأخضر، رآها أولا بنفس اللغة الغريبة التي لم يتمكن من فكّ طلاسمها، ثم تلاشت لتستقرّ معانيها باللغة العربية أمام عينيه، كانت كلّ ورقة تحمل عبارة واحدة، كانت العبارة تظهر وفي نفس الوقت يتردد معها صوت الأمير "أواوا" وهو يقولها باللغة النوبية عندما رآه "أنس" في الممر تحت النهر الأخضر، كان صوته متزامنًا ومتناغمًا مع الكتابة:

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن كل علامات الحب خرجت من خدرها فجأة عندما رأيتك، خصيصًا لك وحدك، بعد أن دثّرتها طويلًا حتى أعثر عليك.

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن أتستر برداء الطهر حتى ألتقي بك على غير موعد، أحفظ لك أمانتك في نفسي دون أن أراك، لتكون أول من يوقّع على شغاف قلبي.

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أنني سأعشق ملامحك يومًا بعد يوم، وسأعيش في تضاريس وجهك حتى أموت، سأحب فيك روحك التي بين جنبيك، ولن ألتفت لغيرك!

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن ترتجف كفّي لأوّل مرّة بين يديك، لأنك أول من يلمسها، فأنت بداية الحبّ، وأنت نهايته، قوسان بينهما حلال، وليس خارج القوسين ثَمّة حبّ!

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن أسكنك، وتعيش أنت بين ضلوعي، وأن أكون لك الأمان، والحصن الذي تلجأ إليه إن أغضبتُك فتشكوني إلى نفسي وأنت أقرب إليَّ من نفسي.

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن أدمن النظر إليك، وأعود فأغض طرفي عنك حتى تكون لي وأكون لك، فأراك في كلّ العالم حولي، و تئنّ كلّ راجفة من رواجف قلبي هاتفةً باسمك، تطلبك من الله، ترجوه أن يمنحني إيّاك مطيبًا بالحلال.



إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن يضيئني قربك ولا يطفئ شعلة روحي، وهنا في قلبي حيث تسكن تتشابك خيوط النور فأبصر في عينيك كلّ الوجود جميلا.

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن أُقبل عليك لأحدّثك بخواطري، ثمّ أدّخر الكلمات فتحدث ضجيجًا في نفسي، فأعقد عليها حتى يضمّنا العشّ وأعطيك الميثاق، فأسكبها لحنًا شجيًا في أذنيك، فيخفت الضجيج وأسكن إليك.

إيكادولي

أُحبُّك؛ تعني أن يكون حبّك حجابًا لي عن المعاصي، فصلاحك يصلحني، وعفافك يلهمني الشرف، فأحبك لما أنت عليه من فضيلة، ولما أكون عليه منها عندما أكون معك، تقرّبني لربي، وتجرّني إليه، فيحبنا الله ونحبّه.

إيكادولي

أحبُّك؛ تعني أن يتكلّم كلّ شيء فينا دون أن نتكلّم، نلتقي دون أن نغرق في بحر الرذيلة، فتسمعني بطهرك، وأنصت إليك باستعفاف، حتى يريد الله.

دارت تلك الصفحات وكانت العبارات العشر قد كُتبت عليها أمام عيني "أنس"، ثُمّ انطوت من جديد بين دفّتي الكتاب المفتوح على الطاولة، وبدأت صفحات أخرى مرقمّة تتوالى أمام عينيه، تحكي ما مرّ به بالتفصيل، كلّ خطوة، كلّ همسة، كل شخص التقى به، حتى "مَرام"، حتى الغابة وما فيها، والقصرين، وبقيت الصفحة الأخيرة، كان يُكتب فيها ما يحدث له في تلك الغرفة بالتحديد، تركت مساحة فارغة !... ثُمّ كُتب أمام عينيه على السطر الأخير:

واسترد الكتاب الذي يحبّه.. "إيكادولي"!

ثُمّ سُحبت الورقة الأخيرة فجأة من الهواء واستقرّت داخل الغلاف، وأُغلق الكتاب بقوّة فأصدر دويًا أجفل منه "أنس"، في تلك اللحظة فتح الكهل ذو اللحية البيضاء الباب خلفه، وحمل الكتاب، وسار معه يربّت على كتفه، ويهنئه باسترداد كتاب "إيكادولي". وبعد أن أنهى "أنس" زيارته إلى المكتبة، أخرج خنجره وحرّكه في الهواء وانتقل إلى قصر "الحوراء"، حيث كان الجميع ينتظرونه، حمله "المغاتير" على الأعناق، كانوا يحتفلون بنجاحه، سقطت حقيبته فالتقطتها "مَرام" وعلّقتها بكتفها كما يفعل "أنس"، ووقفت تراقبه، تخلّص بلطف منهم واقترب على استحياء ليبوح لها بمكنون صدره، كانت دقّات قلبه تتواثب وكذلك كانت هي، كاد يقول شيئًا لولا "الرمادي" الذي ظهر فجأة وانطلق تجاه "أنس" كقذيفة مدفع، وفجأة! انقض عليه بمخلبيه وطار به محلّقًا فوق مملكة البلاغة وسط صياح الجميع، ظلّ الصقر العجيب يخفق بجناحيه ويبتعد... ويبتعد... ثمّ ابتلعتهما سحب السماء. شعر "أنس" بدوار شديد، وغرق في الظلام وشعر وكأنّ ملزمة تضغط على صدره، دوائر يغوص فيها وتتسع.. وتتسع.. وتتسع، صرخ مناديًا باسمها:

- "مرام"..."مرام"





(٢٣)

عودة!

وأخيرًا فتح عينيه ليجد نفسه في بيت جدّه بالفيوم، ممددًا على أرض الغرفة التي التقى فيها بالرمادي لأوّل مرّة، حاول أن يرفع رأسه فإذا بباب الغرفة يفتح ليهرول تجاهه والده وجدّه، لم يتمكن من فتح فمه، أراد أن يقول شيئًا ما! لكنّ والده ربّت على يده بحنان وطالعة بنظرات تعني أن الوقت قد حان لكي ترتاح، ارتخى جفناه واستسلم للنوم لفترة، ثُمّ أفاق فجأة وانتفض وقفز يتلفت يمنة ويسرة وكأنّه يبحث عن شيء ما، قال جدّه الذي دلف للغرفة وهو يحمل في يده الجريدة:

- ما بك يا "أنس"؟ عن أي شيء تبحث؟

- الكتاب... "إيكادولي".. أين هو؟

- اهدأ يا "أنس".

- "مَرام"!

- من "مَرام"؟

- فتاة التقيت بها هناك.

- سيبقى هؤلاء هناك، لا بدّ أن تعلم أنّك الآن انفصلت عن عالمهم.

- ولكن.

طالعه أبوه الذي كان يراقب حوارهما بتأثّر وقال بصوت غلبته نَبرة حانية:

- أعلم وأقدر شعورك الآن، أنت تتوجع، تعلّقت بهم، أحببتهم، وكأنّ هناك من اقتلعهم فجأة من قلبك.

- اسمعني يا أبي، "مَرام" كانت مثلي، م..م... محاربة، لا بدّ أنها قد عادت هي الأخرى إلى هنا، إلى عالمنا! كيف سأصل إليها؟

- "أنس"...تمالك نفسك، فكلّ ما عشته سيظل...

- سيظل ماذا؟

- في الحقيقة... أنت..

- أنا ماذا!!

- كنت مجرّد... شخصية في رواية!

بدأ الغضب يأخذ طريقه إلى رأسه، صاح بعصبية:

- ماذا!! ما الذي تقوله!

- كما سمعت.. مجرّد شخصية في رواية!

- وتلك الملابس التي ما زلت أرتديها!! لا تحدثني بتلك الطريقة أرجوك!

- رفقًا بنفسك يا بني، مررت بما تمر به من قبل، اصبر أيامًا وسينتهي كلّ شيء.

- كيف... كيف!! هذا لم يكن حلمًا!

- تحلم لفترة تخطّت الأسبوع!! وتختفي عن الوجود يا "أنس"!

- أرأيت.. تعترف إذن أن ما مررت به حقيقي، لقد اختفيت من هنا، لم أفقد الوعي ولم أكن نائمًا ولم أغرق في غيبوبة، كنت أعلم أن الشمس التي تشرق على تلك المملكة هي نفس الشمس التي تشرق علينا هنا فكيف تقول أنني غصت في رواية! أنا بشر، أنا روح، أنا إنسان!

- يا بنيّ، انتهى الأمر...



تحسس "أنس" يده وقال بحماس:

- انظر .. أثر هذه الحبال المجدولة على يدي، ما زال يحرقني!

أغمض الأب عينيه في يأسٍ وقال:

- لن يصدقك أحد، ولن تستطيع العودة إلى هناك، حاولنا قبلك وفشلنا.. أنسيت؟

هزّ "أنس" رأسه وقام يجول في الغرفة كالمجنون وقال:

- وكيف أنسى نفسي التي وجدتها هناك؟

أمسك جدّه بذراعه وأعطاه الجريدة وقال بهدوء:

- انظر.. ها هي الجريدة هناك إعلان عن رواية جديدة للكاتب "شهاب السيوفي"، ستصدر عن دار "مملكة البلاغة" للنشر والتوزيع، مكتوب هنا أنّ الرواية تحكي قصة حب نوبية قديمة، هكذا تسير الأمور.

أمسك "أنس" الجريدة وطالع صورة الكاتب، وصاح متعجبًا:

- إنه هو..."شهاب"!!

- لا بدّ أنّك التقيت به هناك، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، كان يظهر ويختفي من آن لآخر.

هزّ الجد رأسه بثقة وقال بهدوء:

- وهذا ما حدث معنا من قبل، معي ومع أبيك، صدرت روايتان بعد عودتنا وكنا نلتقي بالكاتب هناك، يظهر فجأة، ويختفي فجأة، وانتهى الأمر.

التفت إليهما الأب الذي كان يحملق في زجاج النافذة مراقبًا انعكاس ضوء الشمس عليه:

- هذا ما أعنيه يا ولدي، كلّ ما مررت به مخطوط في تلك الرواية بعناية شديدة، وانتهى الآن فقد تم تسليمها لدار النشر وستتم طباعتها، فلتنس كلّ ما مررت به هناك.

- و"مَرام"!!

- كانت أيضًا مجرّد شخصية في رواية.

- لا... لا.. مستحيل!

- أعلم أن الأمر يصعب عليك، هكذا هو في البداية، ستعاني كثيرًا يا ولدي، اهدأ فأنت عاقل وتعلم جيدًا أنّك لن تعود إلى هناك. والأيام كفيلة بلملمة الجراح.

- ولكن... الرمادي! ألن يعود!

- لن يظهر إلا بظهور رمز جديد، لأحد أفراد العائلة، ربما بعد سنوات طويلة من الآن، ابن لك أو حفيد من أحفادك، حاول أن تتجاوز الصدمة لتكمل حياتك.

- ولكن...

قبض "أنس" على صدره، و قال بخفوت:

- شيء ما مني بقي عالقا هناك ولم يغادر.

قال والده:

- اثبت يا "أنس"، واحمد الله أن الأمر لن يتكرر.

- ماذا تعني؟

- تخيّل مثلًا لو تكرر الأمر من آن لآخر كلّما قرأ أحدهم الرواية تعود أنت لنقطة البداية وكأنّ شيئًا لم يكن، وتتكرر الأحداث!

- ليت هذا يحدث، ليته يتكرر كلّ يوم، ليتني أراهم مرّة أخرى، عزائي الوحيد وقتها أنني سألتقي بمن أحببتهم مرات ومرّات.

- لكن إن حدث هذا لن تستطيع إخبارهم بأي شيء.

- لماذا؟



- لأنك ستنسى كلّ شيء وتعود لنقطة البداية، وكأن ذاكرتك قد محيت تمامًا، انتهى الأمر يا بني... تماسك أرجوك.

ارتفع رنين هاتف والده، كانت والدته، يبدو أنّها كانت غاضبة لأنّ "أنس" لم يرد على مكالماتها طوال أسبوع كامل!، كان الأب يحاول شرح موقف "أنس" وأخبرها أن هاتفه كان مفقودًا وأنّه كان مع رفاقه، أصرت على سماع صوته فقد كانت تشعر أنّ هناك شيئًا ما قد حدث له، فليس من عادته ألا يهاتفها ليطمئنها عليه بنفسه، اقترب الأب من "أنس" وهمس في أذنه قائلًا:

- لا تخبر أمّك فهي لا تعلم شيئًا، فأنا أخبرتها أنّك كنت مع رفاقك، وهذا ما حدث بالفعل.

ضمّ الأبُ الهاتف لصدره ليكتم الصوت ورمقه بحزم وأردف قائلًا :

- لا تخبرها ولا أي أحد آخر غيري وجدّك... لن تصدقك وسيظنك الجميع مجنونًا.

أمسك "أنس" الهاتف وتحدث مع أمه بصعوبة، كان يعتذر وحسب، ويكرر اعتذاره مرّات ومرّات، ظلّت تصيح عليه في الهاتف وتلومه فقد كانت في غاية القلق عليه وظنت أنه أصيب في حادث أو شيء ما، أنهت صياحها ببكاء شديد فأخذ يهدئ من روعها ثُم قال بصوت يقطر ألمًا:

- كنت مع رفاقي...

قالها "أنس" وهو يتألم، كان يفتقد رفاق رحلته العجيبة، فقد احتل كلّ منهم جزءًا من كيانه، تذكّر قول العجوز "ناردين" عن كل من تلتقي بهم وتحبّهم، وكيف كانت تشير إلى صدرها وتقول أنّهم مروا من هنا.. كان "أنس" في غاية الحزن.

أغلق الهاتف وأمسك برأسه فجأة، كان يشعر بخفقان يضغط على صدره والحرقة تنخر معدته فسقط مغشيًا عليه فحمله أبوه وجده وأعاداه إلى فراشه وجلسا طوال الليل بجواره يتألمان لألمه ويسألان الله له الثبات.



أطلّت الشمس من خلف السحب، وكأنّها تتخفى من "أنس"، كان بالفعل مستيقظًا منذ وقت طويل، يحملق في سقف الغرفة ويسترجع كلّ لحظة مرّت به، وثب وارتدى ملابسه على عجل وخرج دون أن يشعر به أبوه وجدّه، قرر أن يذهب للقاء "شهاب" بالقاهرة، بعد ساعات كان يهرول خارجًا من محطة القطار فور وصوله باحثًا عن سيّارة أجرة، ولكي يحصل على عنوان بيته اتجه أولًا لدار "مملكة البلاغة" للنشر والتوزيع، بناء أنيق من القرميد الأحمر تحيط به حديقة رائعة من كل الجهات، أخرج بطاقته الشخصية للحارس النحيف الذي كان يعبث بشاربه وهو يتفحّص هاتفه الجوّال، لم يطالع الحارس البطاقة ولم ينظر حتى لوجهه، تأخّر المصعد وكان "أنس" في قمّة التوتر حتى أنّه بدأ يقرض شفتيه، هرول نحو الدرج وصعده وثبًا متوجها لمكتب مديرة الدار في الطابق الخامس من تلك البناية، وبعد أن أشارت إليه موظفة الاستقبال بلطف ليتفضل بالدخول طرق الباب وفتحه وهم بالدخول وكانت المفاجأة.

الحوراء تجلس أمامه بشحمها ولحمها، تجلس بوقار خلف المكتب على كرسي من الجلد الفاخر وعلى أنفها عوينات صغيرة تطل من خلفها عيناها الواسعتان والسوداوان حيث كانت تطالع شاشة الحاسوب باهتمام شديد، التفتت إليه وخلعت عويناتها وابتسمت له، ثُمّ قالت مرحبة به:

- أهلًا وسهلًا، تفضل بالجلوس.

ثُمّ أمسكت ببطاقة ورقية صغيرة وقرأت ما دون عليها وقالت:

- المهندس "أنس كمال".

- نعم أنا.

- مرحبا بك، كيف أستطيع أن أساعدك؟

- عفوًا سيّدتي، هل التقينا من قبل؟

- لا أظن! تبدو مألوفًا لكنني لم أرك من قبل يا ولدي!

- حسنًا، وددت أن أسأل عن رقم هاتف السيد "شهاب السيوفي"



- هل أستطيع أن أعرف السبب؟

- أمر خاص بروايته الجديدة.

- وما بها؟

- أفضل أن أخبره شخصيًا.

اعتدلت المديرة في جلستها وتأرجحت على مقعدها على نحو خفيف وقالت باهتمام:

- كل ما يخص تلك الرواية بالذّات يخصّنا.

- وددت فقط أن أسأله عن نهايتها ومصير أحد الأبطال في الرواية.

- انتظر إذن حتى تُطبع وتقرأها.

- لا أستطيع الانتظار فهناك أحداث لا بدّ أن تُعدّل بشكل سريع.

- وهل تعرف أحداثها؟

- نعم

- أقرأتها؟.. معقول!! من سرّبها... أخبرني؟

- لم أقرأها ورقيًا ولكن...

- مهلًا... أنت لا تعرف رقم هاتف السيد شهاب ولا عنوانه، ولم تلتق به! فكيف تعرف أحداث الرواية!

- علمت أن اسمي مدرج بها، وبعض ما يخصني شخصيًا.

- كيف هذا! الرواية تتحدث عن قصة نوبية قديمة! والأسماء فيها لا تتضمن اسمك!

- ربّما...

- أرجوك كن واضحًا معي!

- أودّ أن ألتقي به. ولتعتبري ما أعرفه عن الرواية مجرد تخمين، أو شيء يشبه الرؤى.

- من فضلك ليس لديّ وقت لهذه الحوارات، ولن أستطيع إمدادك بعنوان السيد "شهاب". فكلامك يقلقني، ربما تودّ أن تلتقي به لإعجابك به يا بنيّ، ولكن ليس بتلك الطريقة! للكتاب حياتهم الخاصة. انتظر حتى تلتقي به في حفل التوقيع.

- ولكن..

- من فضلك!!

رفعت يدها لتستوقفه فأدرك أنّ لا مجال للنقاش. خرج من الغرفة غاضبًا، يبدو أن الأمر أعقد مما تخيله، وقف شاردًا أمام المصعد ينتظر وصوله، كان يغمض عينيه ويتأفف بينما اقترب شاب أنيق يرتدي بذلة سوداء فاخرة حسنة التقاطيع أظهرت تناسق جسده، عطره النفاذ أرغم "أنس" على فتح عينيه، كاد يصرخ عندما رأى ملامحه، إنّه "الزاجل الأزرق"!!

دلف معه المصعد وهو يطالعه بفضول شديد، كان الشاب يمسك هاتفه النقال ويقلّب فيه باهتمام، رفع عينيه على نحو سريع وحيّاه بابتسامة مقتضبة ثمّ عاد ينظر إليه مرّة أخرى عندما لاحظ اندهاشه فقال له:

- هل أنت جديد هنا؟

قال "أنس" وما زالت عيناه معلّقتين على وجه الشاب:

- لا.. أنا مجرد زائر.

- أنت كاتب إذن!

- تقريبًا.

- هل قمت بتقديم عملك اليوم؟

- ليس بعد.



- أسرع إذن فالسيدة "ناردين" ستنتهي من مراجعة رواية الأديب "شهاب السيوفي" الليلة، حتى تضم عملك في جدولها قبل أن تُنشر الرواية، فبعدها ستنهال علينا الأعمال من الكتاب والأدباء كالعادة، وربما يتأخر دورك.

- هل تعمل هنا؟

- أنا " أحمد" وبالفعل أعمل هنا.

- مرحبًا بك.

- تبدو شابًا لطيفًا، لا بد أن كتاباتك رائعة.

- هل من الممكن أن أطلب منك شيئًا بسيطًا؟

- وما هو؟

- رقم هاتف السيد "شهاب السيوفي"، أودّ أن ألتقي به وأعرض عليه عملًا ما.

- حسنًا، ها هو رقمه، دونه الآن، ولا تنس أن تضيفني على "الفيسبوك"

- وما اسمك هناك؟

- "الزاجل الأزرق"

فغر "أنس" فاه ثُمّ هزّ رأسه متعجبًا، الأمر مضحك وموجع في آن واحد، ما الذي يحدث الآن بالتحديد!!

بدأ الأمل يدبّ في نفسه فربما يلتقي بـ"مرام" أيضًا! كان يرزح تحت موجة من الحنين إليها، يشتاق لوجودها بجواره، تتنفس نفس الهواء، تسير وتتحرك وتروح وتجيء وإن كانت بعيدة عنه ولكن في نفس المكان، نفس العالم!

خرج من المصعد وسار بخطوات بطيئة خلف "أحمد"، نفس طريقة السير، نفس الصوت، نفس الإيماءات الخاصّة، إنّه هو "الزاجل الأزرق"! بأصابع مرتعشة ضغط "أنس" على أزرار هاتفه ليحدّث السيد "شهاب"، كان صوته على الهاتف أكثر اتزانًا من صوته في مملكة البلاغة، حتى طريقته في

الكلام بدت أكثر تعقلًا وهدوءًا، عرفه بنفسه وطلب منه أن يلتقي به، وأخبره أن السيد "أحمد" هو الذي نصحه بلقائه قبل أن يعرض أي عمل على السيدة "ناردين"، بعد مماطلة من "شهاب" وافق أخيرًا على لقاء "أنس" وأعطاه عنوانه، أسرع يوقف سيّارة أجرة لتقلّه سريعًا إلى هناك، كانت دقّات قلبه تتواثب وتتسابق على نحو سريع، شعر بها وكأنّها طبول تدق في أذنيه، وقفت السيّارة الأجرة أمام بناء عتيق مكون من طابقين، كانت البوابة الحديدية تحمل لافتة مكتوب عليها بخط واضح "فيلا شهاب السيوفي"، ترجل من السيّارة بعد أن نقّد السائق الأجرة ووقف شاردًا يتأمّل البناية، كانت الثانية عشرة إلا الربع، باقٍ ربع ساعة على موعده معه، تنهّد بعمق وأغمض عينيه، ما زال موجوعًا، مسح على صدره بيده وكأنّه يتحسس الألم، لم ينتظر حتى تمرّ الربع ساعة، بل أسرع يدق جرس الباب.



(٢٤)

شهاب

تناهى إلى سمعه صوت خطوات تقترب من الباب، فتح السيّد "شهاب" له الباب بنفسه، كانت ملامحه كما هي عندما رآه هناك، وجه يحمل مسحة من الوسامة بشعره البنيّ، وبشرته الباهته وفكّه العريض، وأمّا تلك النظرة الساخرة التي كانت تُطلّ من عينيه الضيقتين تبدّلت بنظرة عميقة منكسرة، وكانت عيناه خلف عوينات أضفت على مظهره وقارًا لطيفًا. كانت دقات قلب "أنس" متسارعة، حتى أن "شهاب" شعر بتوتره وهو يصافحه حيث قال وهو يهزّ يده بحرارة:

- مرحبًا بك، يبدو أنّك متوتر جدًا، يدك باردة جدًاوكأنّها قطعة من الثلج.

تنحنح "أنس" في ارتباك وهو يتأمّل وجه "شهاب". بدا أكثر اتزانًا وتعقلًا مما كان عليه، أكبرًا عمرًا ربّما! وكأنّه أربعيني!

كما أنّه تخلى عن نزعة الغرور التي كانت تطفح من عينيه، أغلق "أنس" الباب وسار خلفه، مرّ برواق البيت حيث كان كل شيء يسبح في هدوء شديد، وصلا سريعًا إلى غرفة كبيرة جدرانها تحتضن الكثير من الرفوف المكتظة بالكتب، كانت رائحة الصندل تفوح من المكان، ذكرته الرائحة بالغابة والعجوز "ناردين".قال "شهاب":

- أخبرتني على الهاتف أنك حصلت على رقمي من "أحمد".

- نعم... الزاجل الأزرق.

قهقه "شهاب" وهو يتأرجح بالكرسي الجلدي الفاخر الذي غاص فيه خلف مكتبه ثُم خلع عويناته وقال ساخرًا:

- أنت صديق له على الفيسبوك أيضًا، كم هو لطيف ذاك الفتى، أحبه كثيرًا، حسنًا أخبرني عن روايتك أو كتابك، أم... هل أنت شاعر؟

- في الحقيقة لست بكاتب ولكنني جئتك في أمر آخر هام جدًا بالنسبة لي.

اعتدل "شهاب" في جلسته أعاد ارتداء عويناته ونظر إليه بجدية وسأله:

- وما هو؟

- أنت تعرفه.. لا تزعم أنّك لم ترني من قبل!

- أنا بالفعل لا أعرفك!

لم يتمالك "أنس" نفسه وثار فجأة ووقف يتحدّث بعصبية شديدة:

- أين "مَرام"؟

- ومن هي "مَرام"!

- لماذا أخرجتني من هناك قبل أن ألتقي بها؟

- أخرجتك من أين!!

طرق "أنس" بقوة على سطح المكتب وقال:

- لم يكن الأمر واضحًا في بدايته، لكنني أدركت الحقيقة عندما ربطت بين الأرقام التي كانت على الخريطة والفجوات، وما مرّ من أحداث محدده في أماكن محدده برقم خاص.

شعر "شهاب" بالقلق وبدأ يتحرّك من مكانه نحو باب الغرفة وهو يقول:

- أيّ أرقام! وأيّ فجوات؟ هل أنت مجنون!

رفع "أنس" سبابته وحرّكها بعصبية في الهواء وقال:

- لم تنجح خدعتك، لا تحاول العبث بعقل من درس الهندسة، فأنا لديّ خيال واسع وسرعة بديهة سهّلت عليّ كشف الحقيقة!

ثار "شهاب" ودفع "أنس" تجاه باب الغرفة وقال:



- اخرج من بيتي!

كاد "أنس" يسقط، لكنه عاد ووقف بثبات وقرّب وجهه من وجه "شهاب" وقال:

- الأرقام كانت أرقام صفحات رواياتك، وكنت أنتقل بالفجوات من رواية لأخرى، حتى أنني عدت بـ"حليم" لصفحات سابقة ليرى كيف قتل "كِمشاق" والده وذبحه واستولى على عرشه، وكان ذاك عونًا لي ليكون في صفي عندما اقتحمت القصر لأخرج "كلودة".

- "حليم" و "كِمشاق" و "كلودة" شخصيات في رواية لي بالفعل، لكنني لا أفهمك!!

بدأ "شهاب" يرتجف، كانت يداه تهتزّان كما لو كان يعاني من اضطراب أو مرض ما، ارتبك "أنس" وعاونه على الجلوس على أقرب مقعد، هدأ كلاهما للحظات كانت كافية لخلط الأفكار في رأس "أنس"، ربّما "شهاب" لا يعرف شيئًا عمّا رآه وعاشه، وكما قال والده وجدّه سيظنه مجنونًا كما سيظنه أيّ شخص آخر لم يخُض تلك التجربة بنفسه، قرر أن يشرح له الأمر بطريقة أخرى، لعلّه يصل إلى أي معلومة عن "مَرام"، قال بعد أن تنفّس بعمق ثُمّ مسح وجهه بكفّيه:

- حسنًا يا سيدي... اسمع، أنا مررت بتجربة غريبة وحدث لي شيء لا يُصدّق.

هزّ "شهاب" رأسه ليشجعه على إكمال كلامه فأردف "أنس" مكملًا حديثه:

- بطريقة ما انتقلت إلى مملكة البلاغة وعشت هناك لفترة.

- أتقصد دار النشر؟

- لا... مملكة البلاغة هي بلاد غريبة، حتى أنني التقيت هناك بعدّة أشخاص قد تكون أنت كتبت عنهم في روايتك.

- ماذا!!...

حملق "شهاب" في وجهه وأطرق للحظات يفكّر، ظنّه يعاني من اضطـراب

نفسي فقرر أن يجاريه، سأله مظهرًا اهتمامًا بكلامه:

- وأين تلك البلاد؟

- لا أدري مكانها بالتحديد.

- كيف سافرت إلى هناك؟

- حملني صقر.

رمقه "شهاب" بتعجّب وقال بنغمة تخالطها رنّة ارتياب:

- من فضلك... إن كنت تريد إخباري بفكرة رواية لأكتب عنها فلا تتبع تلك الطريقة معي... كن منطقيًا وتحدث بشكل طبيعي وسأتجاوب معك.

- أليس هذا ما كتبته في روايتك؟.ألم تكتب اسمي فيها؟

- في الحقيقة....

قاطعه "أنس" بعصبية وقال:

- المغاتير، المجاهيم، الأمير "أواوا"، المحاربون!

رفع "شهاب" حاجبيه ثُمّ قال:

- هل اطلعت على النسخة التي قدمتها للسيدة "ناردين؟

أكمل "أنس" غير مبالٍ بسؤاله:

- قصر الملك، والقرية، والغابة...

غضن "شهاب" حاجبيه غاضبًا وقال:

- كيف سمحوا لك بقراءتها!! لا بد أن أتحدث معهم الآن، هذا غير لائق!

أمسك "شهاب" بهاتفه فمدّ "أنس" يده ووضعها فوق يده يستوقفه وقال برجاء:

- سيدي من فضلك.... أرجوك صدقني، الكتاب اختارني بنفسه.



احتدّت نَبرة صوت "شهاب" وهو يسأله:

- أي كتاب؟

- كتاب قديم صفحاته خالية كان بمكتبة جدي.

- أنت شخص غريب!

- "أبادول".. هل تعني لك شيئًا؟

حرّك "شهاب" عينيه في المكان ثُمّ قال:

- تلك رواية كتبها روائي عظيم من أساتذتي منذ سنوات، وأصدرتها نفس دار النشر.. لماذا تذكرها؟

- هذا جدي.. أبادول هو جدّي.

ران عليهما صمت ثقيل للحظات، حاول "شهاب" أن يستعيد رباطة جأشه، تأمّل وجه "أنس" وتفرّس في ملامحه ثُمّ قال بجديّة:

- يبدو أنّك واسع الخيال يا فتى، ربما الأفضل لك أن تتجه للكتابة، تلك الأفكار ستساعدك وربما ينجح الأمر معك وتصبح كاتبًا مشهورًا يومًا ما، أرجوك انتهت الزيارة.

وقف "شهاب" فوقف "أنس" متأهّبًا وقال:

- إيكادولي... هل تعني لك شيئًا؟

رفع "شهاب" كتفيه في استغراب شديد وقال:

- كيف عرفت اسم روايتي!! لم أخبر أي مخلوق أنني اخترت هذا الاسم بعد لروايتي! حتى دار النشر نفسها لا تعلمه! حتى السيّدة "ناردين" فقد أرسلتها إليها معنونة بعدّة اقتراحات للاسم ليس هذا من بينها فقد فكرت فيه أمس!، حتى زوجتي وتوأم روحي التي تشاركني في كل شيء لا تعرفه!

قال "أنس" في ثقة:

- ألم أخبرك أنني كنت هناك؟ الآن ستصدقني.. أليس كذلك؟

- ماذا تقول؟.. كن منطقيًا أرجوك..

قاطعه "أنس" وقال محتجًا:

- ما حدث لي خارج نطاق المنطق، لا تخبرني بأن الغابة والمملكة والقرى حولها غير موجوده، انظر إلى يدي، ذاك أثر الحبال لمَّا حملت "مَرام" عندما سقطت من فوق الجبل.

مدّ "أنس" يده أمام "شهاب" الذي اتسعت حدقتا عينيه عندما رأى أثر الحبال المجدولة على يد أنس وذراعه، تذكّر ما كتبه في روايته، شعر بقشعريرة تجتاح جسده، تسارعت دقّات قلبه من شدّة الانفعال وتراجع خطوة للخلف، حملق في وجه "أنس" مرّة أخرى!! قال بصوت مرتعش:

- الحبل الذي تعلّقت الفتاة به!!

خرّ "شهاب" على الكرسي خلفه بعد أن ترنح قليلًا وقال بخفوت:

- يا إلهي!! لا أصدّق..

- هل ستساعدني إذن؟

- في أي شيء؟

- عدّل نهاية روايتك... أرجوك.

كان "شهاب" يحدّق في وجه "أنس" الذي انطلق متحدثًا بسرعة:

- كنت أعيش في روايتك، لا أدري كيف، لكنها الحقيقة، حتى أنني التقيت بمحاربة أخرى هناك اسمها "مَرام" كانت تعيش أحداث رواية أخرى تسمى "هيلا".

- "هيلا" رواية أخرى لي بالفعل... ولكن مهلًا.. أنت تقول أنك التقيت بتلك الفتاة هناك؟

- نعم..."مَرام"

- بالفعل روايتي الجديدة "إيكادولي" والتي لا يعلم مخلوق أنني اخترت لها هذا الاسم تحتوي على أحداث متشابكة وبها شخصية محارب و محاربة!



- أتقصد أنا و"مَرام"؟

- حسنًا كما تحب... أنتما...

قال "أنس" بصوت غلبت عليه نَبرة التوسّل والرجاء:

- أرجوك يا سيّدي تحدث عن الأمر بتلك الطريقة فهذا سيعني لي الكثير لأنني عشته بالفعل... قل أنت و"مَرام"

تنهّد "شهاب" بعمق وقال بهدوء:

- حسنًا يا "أنس"، اجلس وأخبرني بكلّ ما مررت به بالتفصيل، وكلّي آذان صاغية.

كان "شهاب" يحرّك رأسه يمنة ويسرة ويفرك كفّيه بتوتر شديد وهو ينصت إلى"أنس" الذي بدأ يحكي له بالتفصيل كل شاردة وواردة مرّ بها، كان ما يرويه الشاب عصي على الفهم، عصي على الشرح، عصي على التصديق! في النهاية، وبعد أن أفرغ "أنس" ما بجعبته، قال "شهاب" بعد أن خلع عويناته ومسح وجهه وصمت لوهلة وكأنّه يرتب أفكاره:

- في الحقيقة يا "أنس" ما تخبرني به عجيب، فروايتي وإن كان أبطالها من النوبة وبها من الشخصيات مثل "كلودة" و"أُونتي" و"كِمشاق" و"نَبرة"، إلا أنني لم أكتب عن الصقور، كما أن أمر الكتب واختيارها للمحارب لم يكن موجودًا.

- ماذا تعني!

- إن كان ما تحكيه صدق..

ثم رمقه بنظرة عميقة وأردف:

- فهذا يعني أنّ الكتب حيّة وتنبض وتشعر بنا.

قاطعهما أزيز الباب وهو يُدفع بلطف، ظهرت زوجة "شهاب" التي عادت للبيت منذ دقائق، وجه مريح عليه مسحة طيبةٍ وقسمات تنم عن جمالٍ

متعب، رحّبت بـ "أنس" ووضعت أمامهما كوبين من عصير البرتقال وانصرفت بهدوء.

التفت "أنس" تجاه "شهاب" وسأله:

- لديك ثلاث بنات، "جميلة"، و"جمانة"، و"جويرية".. أليس كذلك؟

شخص "شهاب" للحظات، ثُم قال مذهولًا:

- يبدو أنك اخترقت رأسي... وقرأت أفكاري.

- ماذا تعني؟

اقترب "شهاب" من باب الغرفة وأغلقه بحرص وعاد لمكانه وقال بصوت خفيض:

- هذا ما كنت أحلم به قبل زواجي، أن ننجب أنا زوجتي ثلاث فتيات متشابهات وكأنهن توائم ولدن في سنوات متفرقة، نسخة متطابقة ومتكررة، يركضن حولي ويتعلّقن بساقي عندما أدلف إلى البيت، يغرقوني بالحب، "جميلة" و"جمانة" و "جويرية"، هكذا تمنيت، لكن الله برحمته كتب على زوجتي أن تتعثرعلى درج الأمومة، فهي لا تتخطى الشهر الثاني في حملها وسريعًا ما يسقط الجنين، وما زلت أحلم... وما زلنا ننتظر الفرج من الله، لكنني لا أحدثها أبدًا بذاك الحلم وتلك الأمنية، ولم أحدث به مخلوق!

- لقد رأيتهن هناك.

ابتسم "شهاب" وربّت على ساق "أنس" وقال له:

- بل رأيتهن في رأسي، يبدو أنّك كنت هنا.

وأشار لرأسه وهو يبتسم بلطف، لاحظ "أنس" في تلك اللحظة علامات الهمّ التي ارتسمت على وجه "شهاب"، كانت روحه متعبةً ذاك الحدّ الذي جعله لا يقوى على إكمال حديثه مع "أنس".



أطبق عليهما الصمت حيث ندم "أنس" على ما قاله، بينما جعل هذا "شهاب" يزداد ثقة به، فها هو يتحدث عن أحلامه وأمنياته التي يخبئها في رأسه، قال "أنس" محاولًا أن يخفف عن "شهاب":

- آسف

هزّ "شهاب" رأسه وقال بثقة:

- لا عليك، أعلم أنّك من النوع الذي يراعي مشاعر الآخرين، أنسيت؟ أنا أعرف كلّ شيء عنك، كتبت عنك طوال الأيّام الماضية. فسمات شخصيتك مطابقة لسمات شخصية المحارب في الرواية.

قام "شهاب" وتوجه نحو أحد الرفوف وأحضر مجموعة من الروايات وبسطها على مكتبه أمام "أنس" وبدأ يقرأ العناوين:

- هذه رواياتي الخمس، كل منها رواية منفصلة عن الأخريات، ويا للعجب! يبدو أنّك بالفعل عشتها بل وكنت سببًا في انتقال الشخصيات من رواية لأخرى بطريقة ما!.. رواية "الغابة المسحورة" حيث العجوز "ناردين، ورواية "المجاهيم" وعالمهم تحت الأرض، ورواية "مملكة الشمال" حيث الملكة العادلة "الحوراء" وابنها الذي يفعل الخير ويساعد الناس متخفيًا مع رفاقه، ورواية "مملكة الجنوب" حيث كان ملك ظالم وشقيقته الأميرة شديدة الجمال التي أحبّها شاب حليم الطباع لكنّها كانت أنانية ولا تستحقّه، وفي تلك المملكة عدّة قرى متجاورة تعكس روعة أهل النوبة وأخلاقهم وعاداتهم الجميلة، لكلّ قرية سرّها الغامض ، واحدة منها كان فيها كهل يسمى "الرمادي" يتجوّل فيها ولاقى الكثير مع زوجته. وأخيرًا هذه رواية "هيلا" التي يبدو أنّك لم تخترق صفحاتها، ولو اخترقتها وعشتها لعشقت أهل النوبة بحق!

ثُمّ سكت هنيهة وأردف قائلًا:

- أمّا أمر الكتب والمكتبة فهو عظيم لكنني لم أكتب عنه ولا عن الصقور!، وددت لو ذهبت إلى هناك يا "أنس".. لا شك أنّه شعور رائع، وصفك للمكان والرفوف ولقاؤك بالكتاب في تلك الغرفة والحرّاس وهيبتهم فتن عقلي وأسر روحي.

قال "أنس" وهو ينقل عينيه بين أغلفة الروايات:

- ولهذا كان هناك فاصل حجري يفصل بين كلّ مكان والآخر لا يتعداه أحد، فكلّ رواية منفصلة عن الأخريات.

- وتلك الفجوات التي كنت تصنعها بالخنجر وتنتقل بها من مكان لآخر كانت طريقة ذكيّة تنتقل بها من صفحة لأخرى، وخاصة استخدامك لأرقام الصفحات، حتى أنّك نجحت في تغيير بعض الأحداث! ونقلت بعض الشخصيات من رواية لأخرى يا "أنس".

- أدركت هذا وأنا هناك.

- لكن ما لم تدركه أنّك دخلت رواية منهم بطريقة معكوسة، لقد بدأت رحلتك من صفحاتها الأخيرة يا "أنس"

- ماذا!

- القصة تبدأ بشاب سيء الخلق يسمى "كلودة"، تحبّه ابنة عمّه في صمت، تتمناه زوجًا بينما يعيش قصّة حب مع أميرة تدعى "أُونتي" كانت أنانية وشهوانية، لا تفكّر في مشاعر الآخرين، تطارده فيقع في غرامها، كان الناس يعرفون بقصتهما، وكانوا ينفرون منه.

- ألهذا كانت "أشريا" ترفض الزواج منه؟

- نعم، كانت تعلم خبيئته وتتألم، وعندما أفاق من غفلته وندم وتوقف عن لقائها وتزوج من ابنة عمّه ثارت الأميرة وغضبت، وظلت تهدده ليعود إليها، فعاني كثيرًا ومرض بسبب فراق زوجته التي جرحها الأمر.

تذكّر "أنس" عندما ذهب معه للطبيب أوّل مرّة التقي به فيها وقال:

- كان يتناول علاجًا من خلطة خاصّة يعدّها طبيب له، عاني من الهلوسات وكان حزينًا..

- لكنّه ظل على ثباته فأمرت الأميرة بقتل ابنتهما، فهربا للغابة، فتبعهما حراس الأميرة وقتلت "أشريا" وخطفت ابنتها الرضيعة، فانطلق "كلودة هائمًا على وجهه يبحث عنها حتى وجدها، وعاد للقرية وأعطاها لزوجة



الخباز لترضعها وترعاها، وتنسّك وظل على حاله منكسرًا حزينًا و باكيًا على زوجته، يسبّح ليلًا ونهارًا ويذكر الله في كلّ حين.

سكت "شهاب" للحظات ثُمّ أردف:

- كان أوّل لقائك ب"كلودة" في الصفحة الأخيرة، لكنّك بإلباسك القلادة لـ"أشريا" وابنتها أنقذتهما من الهلاك والموت على يد "المجاهيم"، تغيّرت بعض المواقف بالطبع، ثُمّ عدت إلى البداية حيث بيت "كلودة" عندما بدأ صباح أول يوم لك معه، ولهذا أخبرتني أنّك شعرت أنّه بروح جديدة وكأنه لم يبك في الليلة الماضية كما أخبرتني! ولهذا أيضًا عندما سألت عن الرضيعة لم تحصل على إجابة شافية، لقد بدأ "كلودة" فاسدًا ثم تاب وتزوج من حبيبته "أشريا"، وتنسّك بعد ذلك ولم ينتكس ويضلّ كما ظننت أنت، ومرّت الأحداث تتوالى، وانطلقت تعدّل في الرواية أيها المحارب!، بل وسحبت شخصيتين من رواية "إيكادولي" وأدخلتهم رواية "الغابة المسحورة"! في الحقيقة أنا مذهول! حتى الحبر الذي سكبته العجوز "ناردين" في جرح "كلودة" أنقذه لأنه شخصية مكتوبة في رواية!.. دماؤه سوداء لأنّها مجرد حبر!

كنت تظن أن "كلودة" و"أشريا" هما أبطال رواية "إيكادولي"، والصحيح أن المحارب والمحاربة هما البطلان! أنتما! أنت و "مَرام"! كان الجميع هناك يراكما في صورة المحاربين! كنتما مكانهما!

شعر "أنس" وكأن هناك من ألقى بجبل من الحجارة على رأسه، تخشّب لسانه للحظات قبل أن يسأل بصوت متقطع:

- وأي شيء كنت أحاربه ؟

- هذه النقطة تحديدًا أودّ أن أوضحها لك يا "أنس"، المحارب لا يحارب بخنجر ولا بسيف وليست معركته بالنبال والسهام، حياتنا كلّها معارك، وكلّنا محاربون، نحارب أحيانًا أفكارنا الشاّذة، ونحارب أنفسنا عندما نضل، ونحارب شهواتنا عندما نتوب ونعود لخالقنا، ونصارع الأنانية فينا، نحارب الحقد وتلك النفس المتقلبة التي تجرنا أحيانا إلى الشر وتسقطنا في الفتنة، نحارب حتى ننطق بالحق والصدق، ونحارب من أجل الحبّ... كلنا محاربون.

- لماذا اختارني كتاب "إيكادولي"؟

- لأنك تؤمن بالفضيلة يا "أنس"، كان واضحًا وجليًا وأنت تحكي لي بالتفصيل أنّك كنت ثابتًا عليها حتى وأنت تعاني من السحر، وحتى عندما دق الحب على أوتار قلبك، أنتما أو المحاربان، كنتما من وجهة نظري كمؤلف تحاربان نفسيكما لأنكما وقعتما في الحب رغم أنفيكما، وهذا ما وصفته في رواية "إيكادولي"، المحاربان شخصيتان رئيسيتان، أنت و"مَرام"! كلاكما كان يجاهد نفسه، تمسكتما بالفضيلة لآخر لحظة، دار صراع عظيم وأحداث عدة، وتفرقتما عدّة مرّات.

- وماذا حدث في نهاية الرواية؟ أخبرني كيف كتبتها؟

- تركت النهاية مفتوحة.

- لماذا؟

- وددت أن أترك للقارئ مساحة ليفكر بنفسه، ليحدد ما يراه من منظوره مناسبًا.

- ولماذا.. لماذا تفعل هذا! إما نهاية سعيدة أو مؤلمة....اقتلني إذن لكن لا تتركني هكذا بدونها.

- رضاء القراء غاية لا تدرك، إن كتبت نهاية سعيدة سيقولون هذا هراء ويشبهونها بالأفلام التافهة والمسلسلات الفاشلة، وسيتهمون القصّة بالضعف كالعادة، وإن كتبت نهاية حزينة سيسبونني ويقولون إن الرواية كئيبة، النهاية المفتوحة ترمي الكرة في ملعبهم، فلينهها كلّ منهم في خاطره كما يحب، أوتدري! حتى النهاية المفتوحة تُحزن البعض مثلك فهي تتركهم في تخبط مؤلم كمن سقط منه شيء ثمين وحزن عليه.

- وأنا؟ و"مَرام"؟

لاح شبح ابتسامة على وجه "شهاب" وهو يقول:

- أتعلم أنها فكرة مجنونة!



- أي فكرة؟

- أن ألتقي بشخصية في رواية كتبتها!!

- لكنني التقيت بك هناك! كنت تهددني، وأخبرتني أنني لن أستطيع تغيير شيء!

- لم أكن أنا! وكانت تلك نفسك تهيئ لك هذا!... لا تستهن بالصراع الداخلي الذي كنت تخوضه مع نفسك، ليتني كنت هناك مع بناتي اللاتي وصفتهن لي!

همهم "أنس" بكلام غير مفهوم، بدأ ينهار وتخلّى عن تماسكه، أمسك "شهاب" بيده بعد أن أشفق عليه وسارا نحو أريكة وثيرة تتوسّط غرفة المكتب وجلس بجواره يحدثه بهدوء حيث قال:

- لولا إحساسي الذي لا أستطيع تكذيبه بأنّك شاب طيب وصادق لأنهيت هذا اللقاء فورًا. ولأنّك أخبرتني بأشياء مخبوءة في رأسي فقد أنصتّ إليك وأنا الآن أصدقك... لكن أتظنني أستطيع تغيير شيء؟

- لا أدري!

- بل تدري، فكلّ شيء يحدث لنا في حياتنا له تفسير منطقيّ.

- وبعد؟

- لا أدري؟ وددت لو أستطيع أن أساعدك، لكنني عاجز، ليس بيدي شيء!

قال"أنس" وهو يتحسس ضلعه:

- وماذا سأفعل أنا!.

وضع "شهاب" كفّه على صدر "أنس" وقال:

- ألم الفراق، أعلم ما شعرت به هناك، أحيانًا وأنا أكتب تراودني مشاعر مشابهة وكأنني رحلت إلى تلك الأماكن التي أكتب عنها، أشعر بك..

قال "أنس" وكأنه يقطتع الكلمات من قلبه:

- وما أحمله الآن من ألم؟

ترقرقت دمعة في عينيه فتأثّر "شهاب" وقال وهو يضع يده على صدر "أنس":

- حتى ما تحمله الآن من ألم... فقد صرت كتابًا مفتوحًا أمامي أيّها الشاب الطيّب، قد تظن أن حياتك قد انتهت، وأن كل لحظة تعيشها ستزيد همّك، وأنّه لا يوجد بصيص نور في هذا الظلام، لكنّك ستسعد عندما تبتسم في وجه عجوز، أو تنظر برحمة لصديق، أو تقف بجواره في محنة، أو تطعم فمًا جائعًا، أو تسعد أحدهم بكلمة، نفحات السعادة التي ستمنحها للآخرين سترتدّ إليك بعد حين، قد يكون الحصول على السعادة أمر صعب، لكنّ منحها لمن حولنا أيسر بكثير.

ثُم قال بحنان:

- "أنس"، لا تظنّ أن قدرك بين يديّ أنا مخلوق ضعيف مثلك، ما مررت به غريب وعجيب، لكنّ الأقدار بيد الله وحده، هو الذي يكتب علينا جميعًا ما سيحدث لنا، ما أنا إلّا شخص ضعيف يحاول أن يكتب شيئًا يبني قيمًا هنا، ويزرع أملًا يزهر هناك، لكنني في النهاية ضعيف ليس بيدي شيء أقدمه لك، وإلّا كنت قد قدمته لنفسي قبلك! فلا تلجأ إلّا لله وحده...اطلبها منه!

رمش "أنس" بعينيه، وأقرّ ما سمعه وعيناه ساهمتان، كادت تندّ منه أنَّةٌ موجعةٌ لكنّه تماسك، تمتم بالدعاء بصوت خفيض "اللهم اجبر كسر قلبي"، وجلس ساكنًا للحظات. ثُمّ ودّع "شهاب" وشكره على إنصاته له وكاد ينصرف لولا أنّ "شهاب" استوقفه وقال له:

- الأمر يشبه ما حكيته عن العجوز "ناردين"، اهمس بالدعاء.. فالهمس بالدعاء وبحكايانا التي توجعنا ونخبئها بين طيّات سهام الليل يسبق ما نعيشه وما نكتبه! أما تعلم أن الدعاء يتصارع مع القدر ويغلبه أحيانًا ويسبقه!

ثُم ابتسم "شهاب" وعانقه طويلًا، انصرف "أنس" وقد ازداد شعوره بالغربة والوحشة، وغادر المكان برصيدٍ هائلٍ من الحزن. كانت زوجة "شهاب"



تراقبه من خلف زجاج النافذة، اقترب منها "شهاب" وأحاط كتفها بذراعه، كاد يخبرها عن "أنس" لكنّه خشي ألّا تصدقه! ظلا يراقبانه وهو يبتعد. قالت بهدوء:

- أليس هذا هو الشاب اللطيف الذي كان يداعب الأطفال الصغار في محطّة القطار والذي رأيناه منذ أسبوع أو أكثر ونحن عائدان من الفيوم؟
- يا إلهي... يبدو أنّه هو!

ابتسم "شهاب" وأطرق مفكرًا، هل من الممكن أن ينقله صقر إلى مملكة البلاغة في يوم ما!



(٢٥)

النهاية

اختفى "أنس"...اختفي المحارب!

ارتبك كل من بالوادي، ثمّة لمسة من الحزن الشاجي تظلل المكان، كانت الحوراء تتلفت يمنة ويسرة في تعجب، ركض "الزاجل الأزرق" تجاه "سامي كول" الذي كان ثابتًا في مكانه كالصنم، عيناه ثابتتان كعادته، وسأله عن سبب اختطاف "الرمادي" فجأة لـ"أنس"، قال "سامي كول" بعد أن تنهّد بعمق ورفع صوته ليسكن الجميع وكأن الصمت ألقى فوق رءوسهم عباءته فجأة:

- لقد نجح "أنس" واستعاد كلّ شيء، الصفحات امتلأت بالكلمات، وتم ختم الكتاب وضمّه لسجلات المكتبة وسينشر في الآفاق.

قالت "الحوراء":

- ولماذا إذن اختطفه "الرمادي" بتلك الطريقة! لم نودعه كما يليق به!

أجابها "سامي كول" بجدية شديدة:

- كان لا بد من حمايته، "الرمادي" أنقذه في اللحظة الأخيرة، كاد "القرناس" يقتلع رأسه.

- القرناس!!... لماذا؟

- إنّها "نَبرة" عادت لتثأر.

سألته "مَرام" وعلامات القهر على وجهها:

- هل سأراه مرّة أخرى؟



- ربما نعم... وربما لا... الله وحده يعلم.

- لقد حدث ما أخبرتني به أيها الحكيم، كان طوق نجاة لي..

سالت دموعها وسط صمت الجميع، لم يجدوا من الكلمات ما يواسونها به، لم تفلح في إخفاء مشاعرها، الآن بدأت "قطرة الدمع تحلّق فوق رءوسهم، تريد أن تعيد "مَرام" لعالمها. رفعت "مَرام" رأسها بوجه أغرقته الدموع، ثُمّ كفكفت دموعها وركضت نحو "الحوراء" وأمسكت بثوبها وقالت ترجاها والدموع تملأ عينيها:

- أرجوكِ يا مولاتي حققي لي ما وعدتني به، ألم تعديني بتحقيق ما أطلبه منك بعد انتهاء مهمتي هنا؟

- بلى

- الآن...حققي لي طلبي.

انحنت "الحوراء" وأمسكت بيديها وساعدتها على النهوض وقالت لها بحنان:

- وما هو طلبك يا ابنتي؟

- ستحققينه مهما كان؟

- بالتأكيد أنتِ تعلمين أنني عندما أعدُ لا أخلف الوعد يا ابنتي.

- أريد حق التدوين.

- ماذا!!

اقتربت "مَرام" من "الحوراء" وهمست لها:

- نعم، أنت الوحيدة التي يسمع لها الصقور، وتسمع لها الحروف، أريد أن أكتب نهاية قصّتنا، لم أتوقع أن أحب "أنس"، ظننت الأمر أبسط لكنني لا أملك قلبي الآن ولم أتمكن من حجب حبّه عنه، لقد ابتليت بحبّه.

طالعتها "الحوراء" بإشفاق وقالت:

- عودي يا ابنتي لبيتك، ربّما تلتقين به يومًا ما.

- قبل أن أعود... لا بدّ أن يكون هنا كتاب يحكي قصتنا، ينتهي بلقاء! أرجوك، اسمحي لي بالتدوين.

- ماذا تقولين!!

- نعم، ولن تحتاجوا إلى استدعاء محارب، فهي مجرّد قصة ستقرأ يومًا ما...

- عن ماذا؟

- عني وعن "أنس"، عن الحب الذي يعيش طاهرًا حتى اللحظة الأخيرة وإن لم يلتقِ الحبيبان.

- ولكن يا "مَرام" ..

- أرجوك يا مولاتي ارفقي بقلبي واطلبي من الصقور وحراس المكتبة أن يسمحوا لي.

نقلت "الحوراء" نظراتها لأبيها "سامي كول" واقتربت منه وأمسكت بيده، فسحب كفه من بين يديها برفق ونكّس رأسه، لم ينبس ببنت شفة، أدركت أنه يحيل القرار لها وحدها، بدا عليها الارتباك الشديد، مرّت الأحداث أمام عينيها تتوالى، كلّ ما قدمته "مَرام" وقدمه "أنس" للمكتبة، سارت عدة خطوات تتبعها نظرات الجميع، ثمّ ارتقت فوق درجات السلّم المؤدي لبوابة قصرها ورفعت صوتها قائلة لتفاجئ الجميع بقرارات متوالية:

- أيها الجمع الكريم الطيب، كنت أخطط لتلك اللحظة، أفكر فيها وأرتب لها، لكنني لم أتخيل أنها ستكون الآن...

صمتت هنيهة والكل يترقب ثُمّ أردفت قائلة:

- حان وقت انتقال الحكم لولدي الأكبر والذي ظلّ لفترة طويلة بين صفوف "المغاتير" ساعيًا لخدمتكم لا يطلب مجدًا ولا شهرة، فاسمحوا لي بإلباسه التاج، فأنا على وشك القيام بأمر جلل.

رفعت "الحوراء" كفيها وخلعت التاج عن رأسها، وتقدّمت تجاه "الزاجل



الأزرق" ووضعته على رأسه وسحبت غطاء وجهه لينكشف أمام الجميع، كان مرتبكًا ذاك الحد الذي عقد لسانه وجعله يقف صامتا أمام نظرات عيني أمّه التي ترجمت كلّ شيء، كل الحب، كل التقدير، كل الفخر به. اندفع بمشاعر الابن التي كان يخفيها دائمًا أمام الجميع وقبّل يد أمه بإجلال ثُمّ عانقها، فقد اعتاد وأمه على التعامل بشكل رسمي أمامهم حيث كان يصرّ على إخفاء هويته ليفعل الخير ويساعد الناس دون أن ينال منهم شكرًا ولا جزاء على فعله، سالت دمعة من عيني "الحوراء" وهي تضع كفها على خدّه وتتأمله وكأنها تملّي عينيها منه، تصافح كل التفاصيل الصغيرة بمقلتيها!

تحرّك الموكب والكل في ذهول مما حدث، أصبح لديهم ملك جديد!، حتى "سامي كول" لم يجد كلمات يعبر بها عما يعتمل بصدره من مشاعر، سارت "الحوراء" نحو الغابة، يبدو أنها سترسل "مَرام" لحراس المكتبة، تحرك الموكب تكلله الهيبة، وصلوا للحدود حيث وقفت "الحوراء" وهي تمسك بيد "مَرام" أمام الفاصل الحجري بين أرض مملكتها والغابة، التفتت ولوحت لشعبها الذي كان يهتف باسمها، فاجأتهم ورفعت طرف ثوبها وتخطّت الحاجز الحجري ومشت خطوة واحدة ووقفت تتأرجح على أرض الغابة ثُمّ ندت منها صيحة فزع، لقد أظلمت الدنيا في عينيها فجأة، فقدت "الحوراء" بصرها للأبد، صرخ "الزاجل الأزرق":

- لماذا يا أمي؟!!

أدرك الآن أن أمه دخلت الغابة بإرادتها وهي تعلم أنها ستفقد بصرها للأبد لتلتقي بكبار الصقور وتتحدث إليهم، ولتنقل رياح الغابة كلماتها للحروف فوق الجبل الأحمر، ولحراس المكتبة الأجلاء، وأدرك أيضًا أنها لن تتراجع عن قرارها وأنه لن يستطيع الدخول معها للغابة.

ارتفع صوت أبيها "سامي كول" وهو يقول مثبتًا إياها:

- رعاك الله يا ابنتي، هذا عهدي بك، لا بدّ من تضحية لأجل المحاربين، هذا دَين وستسددينه عنّا.

ثُمّ همس لحفيده "الزاجل الأزرق" الذي اقترب وعيناه تراقبان أمّه وهي تبتعد:

- كان "أنس" طوق النجاة لـ"مَرام" عندما أنقذها من الموت، وستكون طوق النجاة لقلبه.

مضت "الحوراء" في الغابة تسحبها "مَرام" وهي تبكي، كانت تظنّ أن الملكة ستستدعي الصقور ربما أو ترسلها إلى مكان ما، لكنها لم تتخيل أنها ستدخل معها الغابة بنفسها!

لم تتمن "مَرام" أن يحدث هذا، لكنه القدر!

❐❐❐

أوراق الأشجار المتساقطة تدور وكأنّ هناك من يتلاعب بها، الأشجار تهتزّ وكأن هناك صاعقة تضربها، الرياح تهب من هنا وهناك، الغابة ترتج، وهناك من يهمسون..

"الملكة في الغابة.. الملكة في الغابة"

حتى الفراشات التي كانت تغطي جذوع الأشجار في سكون طارت وحلّقت فجأة... "ووووو...وووو..."

دوي مخيف يصدر من الأكواخ وكأن وحوشًا تسكنها، أظلمت فجأة! ثم عبر شعاع الشمس فشق الضباب فسقطت خيوط ذهبية وتقاطعت على الأرض أمام "مَرام"، كانت "الحوراء" تتخبط وتتعثر، قالت بارتباك:

- لم أدرك قدر نعمة البصر إلّا الآن! سبحان الله!

- سامحيني يا مولاتي.

- لا عليك يا "مَرام"، كان لا بدّ من هذا، كنت أعلم أنني سأدخل الغابة يومًا ما، لكنني لم أعلم متى بالتحديد، حتى أنني كنت أربط عيني من آن لآخر وأسير في غرفات القصر.. كنت أستعد!

- تستعدين لماذا؟

- هكذا تمضي الأمور، عند انتقال الحكم لا بـــدّ من الخـــروج من نطـــاق



المملكة و دخول الغابة، مرحلة جديدة تبدأ، وملك جديد يتولّى الحكم. فقدَ أبي بصره هو الآخر عندما دخل إلى الغابة، ألبسني التاج قبل أن يدخلها بإرادته، من أجل محارب قديم، ضحى من أجله هو الآخر..

- أتعلمين يا جلالة الملكة.. كنت أظنّه يرى، فهو يحرّك عينيه ويطالع من يحدّثه وكأنّه يراه!

- هكذا يظن الكثيرون، لأنه أيضًا يسير وحده بدون مساعدة، فهو يحفظ كل شبر بالمملكة.

- إنّه رجل عظيم.

- نعم يا ابنتي، هو رجل عظيم وأب رائع، وكان ملكًا عظيمًا أيضًا، إن كان فقد بصره فهو لم يفقد بصيرته.

هبّت رياح قوية أطارت أوراق الأشجار المتساقطة على الأرض وأطاحت بالأغصان الصغيرة فوق سطح مياة النهر الأخضر حيث كانت "الحوراء" تسير مع "مَرام"، ظهرت "ناردين" فجأة ووقفت وهي تستند على عكازها، همست بكلمات لم تفهمها "مَرام" فإذا بالحوراء تبتسم وتضغط على يدها وتقول بحماس:

- "ناردين"؟ أهذا أنت؟

طالعتها العجوز وقالت بإجلال:

- نعم يا مولاتي، هي أنا... العجوز الوحيدة في الغابة.

- كم كنت أتمنى أن ألقاك.

- وها نحن ذا.. نلتقي أخيرًا.

أحنت الملكة رأسها وقالت بخفوت:

- ليتني أرى وجهك.

- لقد فات الأوان يا مولاتي.

- نعم... لقد فات الأوان.

- لماذا دخلتِ الغابة؟

- من أجل "مَرام"... طلبت حق التدوين، تريد أن تكتب قصّة حبها.

التفتت "ناردين" إلى "مَرام" وقالت:

- ولكن نهايتها مؤلمة يا "مَرام"!

زفرت "مَرام" بقهر ولم تتكلّم، استدارت "ناردين" وضربت الأرض بعكازها فارتجّت الغابة واهتزّت أشجارها وأسقط المزيد من أوراقها على الأرض، من بعيد ومن خلف الجبل الأحمر أطلت كوكبة من الصقور يحلقون في نظام بديع، كان هناك صقر كبير يتقدمهم بينما يصطف خلفه الصقور على التوازي في خطوط تزداد طولًا وعددًا وكأنّهم جيش كبير، اقتربوا تجللهم الهيبة وحلقوا للحظات قبل أن يهبطوا على الأرض الفسيحة أمام "ناردين"، وقفوا بنظام كما كانوا يطيرون بنظام، ضمّوا أجنحتهم إلى أجسادهم ووقفوا برءوس شامخة ينظرون تجاه الملكة "الحوراء"، ارتجفت "مَرام" وجاست خلال الصفوف تبحث عن قطرة الدمع، اطمأنت أخيرًا عندما استقرّت عيناها عليها وقد عرفتها من لون ريش رأسها المميز، استدارت "ناردين" ووجهت حديثها إلى الملكة وقالت:

- تفضلي يا مولاتي.

خطت "الحوراء" خطوة للأمام، وبدأت تتحدث بإيجاز، ألقت التحيّة على الصقور، ذكرت أسماء بعضهم ممن قضوا نحبهم خلال سنوات مضت، ذكّرتهم بأحداث جليلة، تحدّثت عن أبيها، وعن الكتب التي تتحدث عن النور، والخير، والحب، والصدق، والفضيلة. عن الحروف والكلمات، وعن قيمة ما يُكتب ويُقرأ، كانت الصقور تنصت إليها في صمت بليغ، لم يتحرّك أحد منهم، ولم يرّف لهم جناح، إلّا عندما ذكرت "القرناس"، وكيف كان سيقضي على "أنس" لولا "الرمادي" الذي أنقذ حياته فحينها أصدروا غمغمات تشي بغضبهم منه، سألت عن "الرمادي" فأسرعت "ناردين" تنفي وجوده، لم يعد بعد!، نكّست "الحوراء" رأسها حزنًا عندما تذكّرت كيف رحل "أنس" دون



وداع يليق به، طلبت أخيرًا من الصقور أن يساعدوا "مَرام" لتقوم بكتابة قصّة حبّها على الورق، مرّت لحظة صمت مهيبة قبل أن يبسط أكبر الصقــور جناحيه ثُم يقترب من الملكة التي انحنت على "مَرام" وقالت لها:

- الآن يا "مَرام"

- الآن ماذا؟

- سيحملك هذا الصقر إلى المكتبة العظمى حيث ستكتبين ما يريح قلبك

- ولكن...

شعرت "مَرام" بالخوف، كادت تتراجع لولا "القرناس" الذي ظهر فجأة ونقر كبير الصقور بين عينيه، تراجعت الصقور وأفسحوا المجال لزعيمهم ليقاتل "القرناس"، انقضّ كلاهما على الآخر في معركة شرسة، شكّلت الصقور دائرة حولهم فغاب المشهد عن "مَرام" التي كانت تمسك بيد الملكة ومعهما العجوز"ناردين"، ابتعد الثلاثة وساروا نحو الكوخ، لا بدّ من الاحتماء به حتى تنتهي المعركة، من الخلف ظهرت "نَبرة" وفي يدها خنجر غريب يبرق حدّه كاللجين، كان "القرناس" قد حملها إلى الغابة وتركها خلف الأشجار، انقضّت على "مَرام" وأسقطتها أرضًا وكادت تغرز الخنجر في قلبها وهي تقول:

- إن لم يكن "أنس" يومًا لي، فلن يكون يومًا لك.

ثمّ أطلقت صرخة غضب عالية وهي ترفع يدها للأعلى لكي تهوي بالخنجر وتثقب قلب "مَرام"، في تلك اللحظة انقضّت بومتها عليها وغرزت مخالبها في عينيها فسقط الخنجر من يدها واستمر صراخها وهي تركض في الغابة حتى سقطت في النهر الأخضر الذي استحال سوادًا، ثُمّ عاد لونه الزمردي بعد أن أحدث فورانًا وكأنه يبتلع شيئًا ما، حلّقت البومة البيضاء التي طالما كانت "نَبرة" ترى بعينيها فوق النهر حتى تأكّدت أن "نَبرة" غرقت فيه، لم تنس تلك البومة أبدًا عندما خنقت "نَبرة" صغارها في العشّ لأنّها انشغلت بهم ولم تحلّق ليلًا لأيام جعلتها لا تتمكن من متابعة تحركات "أنس"، كرهت تلك اللحظة التي قهرتها فيها "نبرة" على صغارها ولم تنسها أبدًا، عادت حيث كانت "مَرام" ورمقتها بنظرة تعني الكثير، ثُمّ حطت على رأس "الحوراء" التي صاحت:

- ما هذا! ما الذي يحدث! اتركوني اتركوني.

أسرعت "مَرام" تجاه "الحوراء" محاولة إزاحة البومة عن رأسها، لكن "ناردين" منعتها بعكازها الذي مدته أمام صدر "مَرام" وهي تتقدم وقالت لها:

- لا...اتركيها!

اهتزّت البومة وبسطت جناحيها الأبيضين وغطّت عيني "الحوراء" بهما ثُمّ أغمضت عينيها هي الأخرى للحظات ونزلت لتستقرّ على كتف "الحوراء" التي كانت في غاية الارتباك بينما وبشكل سريع انتشرت على أطراف جناحيها تموجات رفيعة باللون اللازوردي الفتّان أظهرت بياض لونها بقوّة وزادتها تألّقًا وجمالًا، وفجأة! صرخت "الحوراء":

- ما هذا! أنا أرى!! عاد بصري!!.. عاد بصري!!

تهلل وجه "ناردين" واقتربت منها ثُم قالت:

- بل منحتك البومة هدية، أنت ترين الآن بعينيها كما كان يحدث مع "نبرة" الهالكة، ستصحبك البومة وستكون دليلك يا مولاتي.

التفتت "الحوراء" تجاه البومة وتأمّلت لونها الرائع وابتسمت، كان بياضها يحاكي روح "الحوراء" النقية، قالت "الحوراء" وقد بدا التأثّر عليها:

- سأسميها "الشهباء"، كم هي جميلة!

انتفض الثلاثة عندما قعقع الرعد في السماء، رياح قويّة هبّت عليهم وتناهى إلى سمعهم غقغقة أحد الصقور... كان "القرناس" يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما يستعدّ الجميع للتحليق مرّة أخرى خلف زعيمهم الذي اقترب من "مَرام" وما زالت الدماء تقطر من منقاره، ودون أن يسأل الحوراء حمل "مَرام" من كتفيها وانطلق بها وخلفه الصقور في صفوف، اشتدت الرياح، ندف شلجية صغيرة تتطاير في كلّ صوب، كانت "ناردين" تصيح وتلوح لها:

- لا تخافي يا "مَرام" أنتِ في أمان.

كانت تحمل حقيبة "أنس" حيث أخفت خنجره، وما تبقى من الحبر في الزجاجة الزرقاء التي استخدمتها "ناردين" في علاج جرح "كلودة"، وصلت أخيرًا



وفُتحت لها الأبواب، وانتقلت مع كبير حراس الكتب إلى ديوان الكتابة حيث تستطيع كتابة قصّتها مع "أنس" بنهاية ترضيها، بينما يسيران تجاه ديوان الكتابة، وفي أحد الممرات التي دخلها "أنس" من قبل، توقف كبير الحراس وكان يشعر بمعاناتها وقال متأثرًا:

- ذاك باب الغرفة الخاصّة بكتاب "إيكادولي".

توقفت "مَرام" أمامه، أرادت أن تدخل وترى الكتاب، حاولت أن تفتح الباب فلم تتمكن.

اقترب منها كبير الحراس وقال بهدوء:

- هذا الباب لا يُفتح إلا بمفتاح خاص، وذاك المفتاح كان مع "أنس"، وقبله والده، وقبلهما جدّه، فهل المفتاح معك؟

فتشت "مَرام" في الحقيبة فلم تجد المفتاح وأسقط في يدها وشعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، سالت دموعها، ما عادت تقوى على الكلام، طنٌّ من المشاعر الجريحة يقبع بين ضلوعها الضعيفة.... وفجأة!، صدر دوي مكتوم، ثم فُتح لها باب الغرفة على مصراعيه! بلا مفتاح! كست وجه كبير الحراس ابتسامة واسعة، وهزّ رأسه يشجعها على الدخول، دخلت تهرول يسبقها قلبها مهرولًا على درج الذكريات، كلّ لحظة مرّت والتقت فيها بـ"أنس" أو تحدثت إليه فيها تتجدد الآن! شعور بالحنين يغمرها، أجفلت عندما نشر كتاب "إيكادولي" صفحاته أمام عينيها ثُمّ بدأت تقرأ كلّ شيء، كل تلك التفاصيل الصغيرة التي مرّت بهما، دارت الصفحات حولها وغمرها شعور بالسكينة ، قرأتها وهي تبكي، سقطت الصفحة الأخيرة أمامها على الطاولة، أسرعت نحوها وأخرجت زجاجة الحبر من حقيبة "أنس" بيد ترتجف، تلفتت حولها بِحيرة، كانت تبحث عن شيء ما تغمسه في تلك الزجاجة وتكتب به، أرادت أن تنقش شيئًا هامًا على تلك الورقة، ربما لقاء أخير لهما وإن لم يكن، أو ربّما نهاية سعيدة كانت تتمناها، وأخيرا رُفعت الصفحة الأخيرة أمام عينيها وارتفعت في الهواء بعيدًا عنها فانخلع قلبها ومدّت يدها محاولة أن تجذبها لكنّها لم تتمكن، كانت تظنّ أنها ستكتب نهاية لتلك القصة التي عاشتها، لكنّها لم تقدر، فلن نكتب أبدًا أقدارنا!!

وبينما تبكي... شعرت بأنفاس دافئة قريبة من وجهها فأجفلت فهي وحدها في تلك الغرفة! همسٌ بصوت عذب تردد في أذنيها!

إنه كتاب "إيكادولي" الذي كان يخبرها بشيء ما!!

❒❒❒

في الغابة، التفتت "ناردين" تجاه الملكة التي كانت تراها بعيني بومتها "الشهباء"، ابتسمت لها "الحوراء"، وأخيرًا رأت وجهها وملامحها، عانقتها بحرارة وسارت معها، صعدت العجوز التلّة وجلست على الدرج الحجري فجلست الملكة "الحوراء" بجوارها ثُمّ قالت وعلى وجهها ابتسامة مشرقة:

- أظنّ أنّ "مَرام" ستحسن كتابة نهاية سعيدة.

- المسكينة، تظن أنها تستطيع كتابة النهاية بنفسها، لكنها ستفيق بعد مرور الصدمة، ولست قلقة عليها، فهي فتاة عاقلة ومؤمنة تعلم أن أمرهما بيد الله وحده.

قالت "ناردين" بتعجّب:

- ألن تكتب هي النهاية؟

- لا!

- إذن فلم طلبت حقّ التدوين؟

- أنسيتِ يا "ناردين" أن كلّ هذا مكتوب في رواية!! كان لا بدّ أن تطلب "مَرام" حق التدوين لتذهب إلى هناك لسبب ما ربما لا أعرفه أنا ولا أنتِ.

- صحيح.. نسيت.. عمومًا، لا تزال لقصتهما بقية... فالستار لم يسدل بعد.

لكزتها "الحوراء" في ذراعها وقالت:

- نحن النساء نفضل النهايات السعيدة، أليس كذلك؟



- نعم، فأنا لا أفضل النهايات المفتوحة، أرأيت كيف أصبحت نهاية قصّة "كلودة" و "أشريا"؟

صفّقت "الحوراء" وقالت مبتهجة:

- نعم.. لم تمت "أشريا" بل خرجت من الغابة، والآن يعيش الزوجان في سعادة.

رفعت "ناردين" عينيها وكأنّها تقتنص فكرة ثُمّ قالت:

- لكنني... وددت أن يتزوج "كُومبو" من فتاة جميلة، ويسمن قليلًا حتى يناسبه اسمه! ربّما في مرّة قادمة، أليس كذلك؟

- ولم لا!!

- والآن... تعالي لنهمس بقصة "أنس" و "مَرام" حتى نُسمع الجميع.

- هيّا.... فلنبدأ.

بدأت العجوز "ناردين" تهمس و خلفها "الحوراء" تردد الكلمات... سمعتهما الرياح وحملت أصواتهما هنا وهناك، وتناقلت أجواء الكون قصّة حبّ عفيف طاهر،...

(يحكى أنّه كان هناك شاب مليح الوجه له عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام يرى كلّ ليلة كابوسًا مزعجًا و.......)



في اليوم التالي ليوم لقائه بـ"شهاب" في القاهرة، وبعد ليلة لم ينم فيها ووصل سهده بتهجده وهمس بالدعاء، وعلى شاطئ البحر في الإسكندرية، بعد أن تذكّر وسط يأسه وحزنه أنه كان قد اتفق مع "مرام" على مكان للقاء، فلمع في نفسه بصيص أمل وظلّ يفسح له حتى ملأ الضياء جوانب نفسه فأسرع مهرولًا تجاه المكان الذي اتفقا عليه منذ طلوع فجر ذلك اليوم، كان يقف ساهمًا يراقب الساعة من آن لآخر، وكلما مرت دقيقة كان يشعر

بالاختناق وكأنّه على وشك الغرق، كان ينتظر طوق النجاة لقلبه، يرجو أن يراها مرّة أخرى، ارتج كيانه وهو يسمع صوتًا أنثويًّا رفيقًا ولطيفًا خلف أذنه يناديه:

- "أنس"؟ أهو أنت؟!

شعر بوجيب في قلبه عندما سمع صوتها، التفت مرتبكًا فإذا بـهـا خلفـه

بقامتها القصيرة وجسدها الرقيق وملامحها البريئة، وعينيها الرائعتين، مخبوءة في شعاع نوراني من حيائها الجميل... إنّها "مَرام"!!

صاح بحماس غير مبال بالتفات المارّة إليه:

- "مَرام"... يا إلهي!

طالعها بنظرة بثّ فيها كل ما بقلبه من أشواق، رفعت كفها في الهواء فظهرت آثار الحبال المجدولة عليه، ما زال الجرح يحرقها، رفع "أنس" هو الآخر يده ليريها آثار الحبال على كفّه وذراعه، وكأنّ كلاهما يريد أن يثبت للآخر أنّه هو. بدا عليهما الارتباك الممزوج بالسعادة، لمعت دمعة طاهرة في عينها كنجمة قطب ثمّ نفرت من جفنها وسالت على خدّها برفق، رفعت عينيها الشهلاوين وعليهما آثار التعب وقالت:

- ظننتك مجرّد شخصية في رواية، هكذا أخبرتني أمي...

مرّت لحظة صمت لطيف قال بعدها:

- كيف عدت إلى هنا؟

- أمر الملك الجديد "قطرة الدمع" بإعادتي.

- ملك جديد!

- تخلت "الحوراء" عن عرشها لابنها.



- "الزاجل الأزرق"!

- وهل كنت تعرف أنّه ابنها؟

- بل عرفت عندما أتيت إلى هنا، سأخبرك لاحقًا، يبدو أنّ كلانا لديه ما يحكيه للآخر، المهم أننا التقينا، وهذا من فضل الله، كنت على يقين أنّني سأجدك هنا... وثقت بربي.

قالت وهي تشعر أن كيانها يختلج:

- أتدري، همس لي "إيكادولي" يذكّرني بالمكان والموعد الذي اتفقنا أن نلتقي فيه يومًا إن افترقنا..أرجوك لا تختفي مرّة أخرى...

- وإن حدث... سأبحث عنّك حتى أجدكِ، كوني على ثقة من هذا.

انزوت على ثغرها ابتسامة وقالت وهي تشيح بعينيها بعيدًا عنه:

- أثق بهذا.

ثمّ قالت باهتمام شديد:

- "أنس"، عندما كنّا فوق قمّة الجبل أخبرتني أن أذكرك بشيء ما تودّ أن تخبرني به، فهل ما زلت تذكر هذا الأمر الهام؟

- بالطبع أذكره، وكيف أنساه!

- وما هو؟

أومضت حفنة من النجوم في عينيه البندقيتين وقال:

- هل تقبلين الزواج منّي؟

لم تنطق "مَرام" بكلمة، كانت الدموع تنهمر على وجنتيها مختلطة بماء المطر الذي بدأ يهطل برقّة وعذوبة، غمرتها حمرة الخجل، ثُمّ همهمت موافقة

بصوتٍ خفيض، شعر "أنس" بالفرحة تموج في صدره، كست وجهه ابتسامة واسعة فأشرقت عيناه، كان يتأرجح في مكانه وكأن صاعقة أصابته فجأة..

اختبأ قرص الشمس خلف سحابة هشة وبدأ المطر الهتون يسقط عليهما،

دسّ "أنس" يديه في جيبي سترته وسألها عن الساعة وهي التي كانت خارج نطاق الزمان والمكان، ثُم قال بحماس:

- فلنذهب الآن للقاء والدتك..

ردت مشرقة:

- حسنًا أيها المحارب.

قهقه "أنس" وفتح ذراعيه ثُمّ رفع رأسه يستقبل زخّات المطر على وجهه الذي أضاءه الحبّ، بدأ يغني بصوت تنضج منه البهجة و في لحن جميل كان يردد أغنية طالما رددها "كلودة" و "كومبو"، كانت بدايتها كلمة واحدة محببة لقلبه... "إيكادولي.... إيكادولي"

غضنت "مَرام" حاجبيها وقالت بغضب ممزوج بالخجل:

- مهلًا مهلًا... ليس الآن!

ثُمّ هرولت أمامه في خجل ورفعت يدها لتستوقف سيارة أجرة تقلّهما للقاء أمّها بينما كان يلاحقها معتذرًا وهو يقول:

- كنت أغنيها فقط...لم أقصد أن... يا "مَرام" لقد فهمتني خطأ.. أأقصد .. هذا بالفعل ما أشعر به.. سامحيني.

- "ليس الآن... ليس الآن"

قالتها وهي تهرب بعينيها منه...



بعد سنوات، وحيث حملت الأيام ثلاث بشريات لـ"شهاب" وزوجته، ونثرت الكثيرمن السعادة على "مَرام" و"أنس"، وفي بيت الجدّ، وبينما في بقعة أخرى من مكان آخر كان هناك شاب لطيف وواسع الخيال يجلس في غرفته ويقرض أظافر يده اليسرى ويتمتم وهو يكتب آخر جملة في روايته الجديدة.. كانت الكتب تدور في مكتبة الجدّ بالفيوّم حول "حبيبة" شقيقة "أنس"، والتي كادت تفقد الوعي عندما سقطت الكتب فجأة على أرض الغرفة مخلفة حولها سحابة من الغبار حيث أصدر سقوطها دويًّا مهيبًا، كان هناك كتاب واحد فقط بقي مفتوحًا أمامها، كانت ترتجف وهي تحملق في الصفحات وهي تتقلب وحدها أمام عينيها وكأن هناك شبحًا يعبث فيها، اقتربت بحذر من الكتاب، رأت صورتها تُرسم على الصفحة، ثُمّ بلون أحمر كرزي رأت رمزًا غريبًا يُكتب بوضوح!

.. تمت ..